السُّيُوفُ الحِدَادُ

في أعناقِ أهلِ الزّندقةِ والإلحادِ

« فى التفرقة بين الصّوفية وغيرهم المدّعين وردّ شبهة المعترضين »

تصنيف

شيخ الإسلام أبى المعارف قطب الدّين مصطفى بن كمال الدّين الصّدّيقى البكرى

(١٠٩٩-١١٦٢ هـ)

تحقيق وتعليق

أحمد فريد المزيدى

دار الآفاق العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي ضرب على سُرادق أسراره أقفال التمسك بالشريعة الغَرَّاء، وصَان طوالع أنواره أنْ تغشي قلوبًا لم تستطع مع الحدود صبرًا، وحمى حما أوامره ونواهيه بسيوف رهبوت جلاله، وأعظم لها قدرًا، ورمى بأسهم سطوته من حاد عن ملته الحنيفة، ومنهاجه الأسنى، وشرعته الكبرى، فمن زاغ عن سواء سبيله فقد ضلَّ قدمه وظل ندمه، واكتسب وِزرًا، ما ثَمَّ حقيقة تخالف الشريعة عند محقق بدت له الأسرار سرًّا، فإن الشريعة صورة كاملة بها روح وجسم يتلي سرها ويقرأ، فالأحكام جسمها والحقيقة روحها، فما هناك إلا شرع حوى نهيًا وأمرًا.

فالسعيد: مَن وفق القيام بنواميس التكاليف الشرعية، يمنحه من أمره يسرًا.

والشقي: من مَالَ عن سنن الكمال، فاستحق وبالاً دنيا وأخرى؛ إذ الشريعة أصل الحقيقة وسرها، خلافًا لمن خالف حيث جهل وما دري، فله الحمد على هذا التعريف الذي أكسبنا فخرًا، وأطلع لنا فجرًا، وله الشكر على نعمة التحقق بأن الشريعة عين الحقيقة، ما أورث الذكر لنا ذكرًا.

والصلاة والسلام على الذي جاء بظاهر الشريعة وباطنها، فأعلن تارةً وأسرَّ أخرى، وأمر بسفك دماء من خالف ظاهر الأمر؛ لأن من أنكره فقد باء بغضب وأظهر كفرًا، وعلى آله وأصحابه حماة الدين الذين شيَّدوا أركانه، وأسسوا بنيانه سرًّا وجهرًا، ما حفظ مريد حرمات حرم الشرع الشريف فوردت عليه الموارد تترًا، وأشرقت شمس العيان في جنانه، وأظهر فيه نور الإحسان بدرًا، وسلم تسليمًا، وعظَّم تعظيمًا، ما زاد المنعم عليه شكرًا وهجر سكرًا.

وبعد... فيقول الفقير الحقير، والعاجز الكسير، مصطفى بن كمال الدين بن علي الصديقي الخلوتي، غفر الله ذنوبه ومحا زللـــه وعيوبه:

قد ظهرت طائفة تدَّعي التصوف، مع أن غالبهم لم يدرِ الفرق بين الخوف والتخوف، مـــرقوا مـــن الديـــن مروق السهم من القوس، وهم يدَّعون في نفوسهم كمال الخزرج والأوس، لم يكن لهم حظٌّ مما يدعونه سوى الدعوى.

ولم توصلهم تلك الخرافات إلا لاتِّباع الابتداع وما تهواه الأهواء، ولا صحَّ لهم في المعرفة اسمٌ ولا لقبٌ، ولا اتَّصل لهم بها حبلٌ ولا نسبٌ، ولا تخلَّقوا من آدابها بأدب، فكيف يصح لهم أن ينالوا منها الأرب، وعباداتهم عادة لا عبادة، بل يتظاهرون بها ولًا يقتدون بمن تقدَّم من السادة، ينتهكون حرمة الشرع الشريف، ويبيعونها بدون الطفيف، ويوقعون ذوي العقول الخسيفة،والبصائر الكفيفة في الزندقة والإلحاد، والميل عن جادة الصواب والسداد، فتح بهم فم الفتنة للعوام، فكانوا كشؤم داحسٍ على أولئك الأقوام، فهم أبلغ من لصوص الري في سرقة عقول القاصرين، ولهم طيش الذباب وطرب الزنج إذا وافقهم بعض جهلاء المعاصرين، هم أثقل من حمل الدهيم في الليل البهيم، وهم جند إبليس وميكال الشيطان، يخبطون خبط عشواء ويخسرون الميزان، يلتقطون شطحات العارفين ويتخذونها مذهبًا، ويحفظون نذرًا من كلماتهم حتى يظنهم السامع أدبًا، يدعون القول بوحدة الوجود، ويفهمون كلام العارفين على خلاف المقصود، فيلبسون الأمر على الضعفاء، فيزل قدمهم عن سواء الاقتفاء.

فلما رأيت أمرهم فشا، ضاق عن التوسع فيه الحشا، غيرةً على الشريعة المحمدية، ونصرةً للملة الأحمدية، وخشية أن ينتسب أحد هؤلاء الزنادقة الفجار إلى طريقتنا، فإن الطريق لا يخالف كتابًا ولا سنةً؛ إذ عنهما نشأ العز والفخار، وبالاستمساك بهما تحصل النجاة غدًا في تلك الدار، من عذاب الله تعالى العزيز الغفار.

وعن لي أن أسعف بعض الإخوان، الذين ربما مالوا إذا سمعوا كلام هؤلاء الخوان، برسالة تردهم إلى الحق المبين، وتقودهم إلى التمسك بالعروة الوثقى والحبل المتين، وسمَّيتها: «**السيوف الحداد في أعناق أهل الزندقة والإلحاد**».

ولنشرع الآن في المقصود، ومنه سبحانه نرتجي عوائد الجود، فنقول:

اعلم أن الشريعة هي الباب واللباب، التي تهدي إلى صواب الصواب، وأول واجباتها معرفة رب الأرباب على طبق السُّنة والكتاب، وهي تنقسم إلى ثلاثة أقسام: معرفة عوام، وخواص، وخواص الخواص.

فالأولى: معرفة ما يجب وما يجوز وما يستحيل في حقه تعالى، وكذلك في حق رسله، وهذه واجبة على كل مكلفٍ؛ لئلا يشتبَّه عليه الحال فيقع في الخيال، وليسلم من ورطة التقليد في التوحيد.

قال صاحب الجوهرة: إذ كل من قلَّد في التوحيد إيمانه لم يخل عن ترديد، وكل من

طلب الثانية و لم يحكم الأولى كان جاهلاً بالله؛ فإنها أولى وأولى، ويجب على صاحب هذه المعرفة أن يطلب العلم الواجب في حقِّه؛ ليكون ممن يعبد الله على بصيرةٍ، وإلا كان ما يهدم أكثر مما يبني.

ففي الحديث: «**ركعتان من عالمٍ أفضل من سبعين ركعة من غير عالم**»(١).

والعالم العامل هو الورع المشار إليه بحديث: «**ركعتان من رجلٍ وَرِعٍ أفضل من ألف ركعة من مخلطٍ**»(٢). رواه الديلمي في مسند الفردوس عن أنس.

وإلا فمع الجهل أين الورع.

والثانية: معرفة آثار الأسماء والصفات، وظهور أنوار تلك الآثار في القلب؛ ليخلص صاحبه من الآفات، وطريقها تسير الأوقات بالعبادات، وتزكية النفس وترك المخالفات، والجلوس على بساط الفقر والانكسار، وشغل القلب بمراقبة العزيز الغفار، والاقتداء بأستاذٍ شهدت بصحة عقيدته وكماله العارفون، وأقرَّت بحسن منازلاته ومواجيده الواصلون، ليسلك به مقام التعلق، ويرقيه إلى التحقق، ويوصله إلى التخلق، وهناك يدرك الأسرار بطريق المنازلة والذوق، ويأكل لا من تحت الأرجل بل من فوق، وطريق التصوف عند السادة الصوفية، كله تخلق بالأخلاق المصطفوية، فمن زاد تخلّقه زاد تصوفه، والتخلق يحتاج إلى السلوك، وهو يفتقر إلى المرشد العارف.

قال الشعراني ﷺ في الميزان: أما سلوكك بغير شيخٍ فلا يسلم غالبًا من الرياء والجدال والمزاحمة على الدنيا، ولو بالقلب من غير لفظٍ، فلا يوصلك إلى ذلك، ولو شهد لك جميع أقرانك بالقطبية فلا عبرة بها.

وقد أشار إلى ذلك الشيخ محيي الدين في الباب الثالث والسبعين من الفتوحات فقال:

«من سلك الطريق بغير شيخٍ ولا ورعٍ عمَّا حرَّم الله فلا وصول له إلى معرفة الله

(١) ذكره المناوي في فيض القدير (٣٨/٤).

(٢) رواه البيهقي في الشعب (٢٥٥/٦)، والديلمي في الفردوس (٢٦٥/٢).

تعالى، المعرفة المطلوبة عند القوم ولو عبد الله تعالى عُمر نوح ﷺ».

ثم إذا وصل العبد إلى معرفة الله تعالى فليس وراء الله مرمى ولا مرقى بعد ذلك، وهناك يطلع كشفًا ويقينًا على حضرات الأسماء الإلهية، ويرى اتصال جميع أقوال العلماء بحضرة الأسماء، ويرتفع الخلاف عنده في جميع مذاهب المجتهدين؛ لشهود اتصال جميع أقوالهم بحضرة الأسماء والصفات، لا يخرج عن حضرتها قول واحد من أقوالهم.

وهذه المعرفة نتيجة التخلي عن الأخلاق الذميمة، والتحلي بالأوصاف الكريمة، فأثمرت التجلي بالأسرار العظيمة، وفي الحديث: «**الأخلاقُ مخزونةٌ عند الله تعالى، فإذا أراد الله تعالى بعبدٍ خيرًا منحه منها خُلقًا**»[١].

وقال ﷺ: «**إنما بُعثتُ لأُتمم مكارم الأخلاق**»[٢].

قال صاحب عوارف المعارف[٣]: «فالصوفية راضوا نفوسهم بالمكابدات والمجاهدات

---

(١) رواه الحكيم الترمذي في النوادر (٢/٣١١).

(٢) رواه الحكيم الترمذي في النوادر (٢/٣١٢)، والبيهقي في الكبرى (١٠/١٩١).

(١) هو الشيخ الجليل السيد الحفيل أستاذ زمانه وفريد أوانه، مطلع الأنوار ومنبع الأسرار. دليل الطريقة، وترجمان الحقيقة، أستاذ الشيوخ الأكابر، الجامع بين علمي الباطن والظاهر، قدوة العارفين، وعمدة السالكين، العالم الرباني، المربي أبو حفص عمر ابن محمد البكري الصوفي السهروردي، مصنف كتاب عوارف المعارف، المشتمل على مكنونات المعارف، ومصونات المحاسن، واللطائف، وغير ذلك من التصانيف الحسنة الجامعة بين بداعة الملاحة، وبراعة الفصاحة، وحلاوة العبارة المشتملة على درر المعارف ومواقيت الحكم، وطلاوة الإشارة المحتوية على حياة القلوب، وشفائها من السقم، وعقيدته معروفة مشهورة موصوفة مشكورة، وكان إذا أشكل عليه شيء من أمرها منها، يرجع فيه إلى الله تعالى ويستخيره حول بيته ويتضرع إليه في التوفيق لإصابة الحق والتحقيق، وكان فقيهًا شافعي المذهب، كثير الاجتهاد في العبادة والرياضة.

تخرج عليه خلق كثير من الصوفية في المجاهدة والخلوة، ولم يكن في آخر عمره مثله.

صحب عمه الشيخ الإمام أبا النجيب، وعنه أخذ التصوف والوعظ.

وصحب أيضًا قطب الأولياء وقدوة الأصفياء الشيخ عبد القادر الجيلي، ثم انحدر إلى البصرة إلى الشيخ أبي محمد بن عبد، ورأى غيره من المشهورين، وكان شيخ الشيوخ ببغداد، وكان له مجلس وعظ عليه قبول وله نفس مبارك.

حتى أجابت إلى تحسين الأخلاق، فنفوس العباد أجابت إلى الأعمال وجمحت عن الأخلاق، ونفوس الزهَّاد أجابت إلى بعض الأخلاق دون البعض، ونفوس الصوفية أجابت إلى الأخلاق الكريمة كلها».

والثالثة: معرفة كنوز أسرار الذّات العَليَّة، وهذه المعرفة خاصة بأكابر المحققين من الأولياء الرَّاسخين، وقد أشرنا إلى طلب هاتين المعرفتين بقولنا في ورد السحر المُسمَّى بالفتح القدسي والكشف الأُنسي(١)، والمنهج القريب إلى لقاء الحبيب: إلهي عرفني حقائق أسمائك الحسنى، وأطلعني على رقائق دقائق معارفك الحسنى، وأشهدني خفي تجليات صفاتك، وكنوز أسرار ذاتك.

وتكلمنا على هذا التوسل في شرح الورد المُسمَّى بـ «الضياء الشمسي على الفتح

=

قال ابن خلكان رحمه الله: ورأيت جماعة ممن حضروا مجلسه وقعدوا في خلوته فكانوا يحكون غرائب مما يطرأ عليهم فيها من الأحوال الخارقة.

وكان كثير الحج، وكان أرباب الطريق من مشايخ عصره يكتبون إليه من البلاد صور فتاوى يسألونه عن شيء من أحوالهم، وسيأتي آخر الفصل إن شاء الله تعالى.

قال ابن نقطة: كان شيخ العراق في وقته صاحب مجاهدة وإيثار وطريقة حميدة ومروءة تامة، وأوراد على كبر سنه.

وقال ابن النجار: كان شيخ وقته في علم الحقيقة، وانتهت إليه الرياسة في تربية المريدين، ودعا الخلق إلى الله تعالى، قرأ الفقه والخلاف والعربية، وسمع الحديث، ثم انقطع، ولازم بيته، وداوم الصوم والذكر والعبادة إلى أن ظهر له قبول من الخاص والعام، وعلا شأنه، وتكلم على الناس، وعقد مجلس الوعظ في مدرسة عمه على دجلة، فحضر عنده خلق عظيم وظهر، واشتهر اسمه وقصد من الأقطار، وظهرت بركات أنفاسه في توبة العصاة، ورأى من الجاه والحرمة عند الملوك ما لم يره أحد.

وانظر في ترجمته: طبقات الشافعية الكبرى (١٤٣/٥)، طبقات المفسرين للداودي (٨٩)، وفيات الأعيان (٤٨٠/١)، اللباب (٥٨٠/١)، البداية والنهاية (١٣٨/١٣)، طبقات الأولياء (٥٣)، طبقات الشافعية للإسنوي (١٢٢/٢)، مرآة الجنان (٧٩/٤ ، ٨٢)، وروضة الحبور (ص١٧٦)، بتحقيقنا.

(١) انظر: المنح النفسي للقاوقجي (ص٦٧) بتحقيقنا.

القدسي»[١]. وطريق هذه المعرفة لا يكون إلا عن محض المِنَّة، وكرامة صاحبها استقامته على نهج الكتاب والسُّنة.

قال أبو يزيد البسطامي قدَّس الله سرَّه[٢]: لو نظرتم إلى رجلٍ أُعطي من الكرامات

(١) أتم الله لنا تحقيقه.

(٢) ذكره الحافظ أبو نعيم في حلية الأولياء وترجمه فأحسن، وقال: ومنهم التائه الوحيد القائم الفريد البسطامي أبو يزيد تاه فغاب، وهام فآب، غاب عن المحدود وآب إلى موجد المحسوسات والمعلومات، فارق الخلق ووافق فأيد بإخلاء السر وأمد باستيلاء الذي إشاراته فانية، وعباراته كامنة لعارفيها صائنة، ولمنكريها فاتنة.

اسمه طيفور بن عيسى بن شروشان وكان جده مجوسيًا فأسلم وكان سبب إسلامه على ما ذكره شيخ المشايخ أبو عبد الله محمد بن علي الداستاني البسطامي قدس الله روحه أنه كان يخالط شروشان ولد إبراهيم الذي ورد بسطام في أول الإسلام فلام إبراهيم ولده وأنكر عليه صحبة شروشان، وقال له: رجل مجوسي تصاحبه؟ فقال لوالده: هو رجل مرضي الخصال لا يرد السؤال عن السؤال سخي وفي وإنما أحبه لذلك؛ فقال له والده: قل له: إن أبي يجيئك ضيفًا، فأخبره فقال: نعم إن فعل فعلي الهدية والكرامة، فلما حضر إبراهيم وأحضر شروشان الطعام. قال له: لا آكله حتى تعطيني مرادي وتقضي حاجتي. قال: وما ذاك؟. قال: أن تسلم. قال: أفعل وكرامة، وقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده رسوله، فكان هذا سبب إسلامه. وقد كثر اسم طيفور في قبيلته وقومه في يومه وغير يومه، وفي الأجانب من كل جانب كانوا يسمون باسمه ويكنون بكنيته تبركًا واستسعادًا، ولكن هو ذلك الطيفور الذي هو نور على نور، ولا زال المشايخ المتقدمون في عصره يزورونه ويتبركون بدعائه وهو عندهم من أجل العباد والزهاد وأهل المعرفة بالله. قد فاق أهل عصره بالورع والاجتهاد ودوام الذكر لله تعالى حتى بال الدم من خشية الله تعالى.

قال الشيخ أبو عبد الرحمن السُّلمي رحمه الله: مات أبو زيد عن ثلاث وسبعين سنة، وهو من قدماء مشايخ القوم له كلام حسن في المعاملات، ويحكى عنه في الشطح أشياء منهـا مالاً يصح ويكون مقولاً عليه يرجع إلى أحوال سنية وفراسة حادة ورياضة لأصحابه حسنة. مات سنة إحدى وستين ومائتين، وقيل: أربع وثلاثين ومائتين.

ذكر معنى أقواله المشهورة عنه في الشطح: «سبحاني سبحاني ما أعظم شاني».

قال الشيخ أبو النصر السراج رحمه الله: وقد قصدت بسطام فسألت جماعة من أهل بيت أبي يزيد عن =

حتى تربَّع في الهواء، فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود وأداء الشريعة، ولما قصد زيارة ذلك الرجل المشهور بالزهد ودخل المسجد، رمى ببصاقه تجاه القبلة، فانصرف و لم يسلِّم عليه وقال: هذا غير مأمون على أدبٍ من آداب رسول الله ﷺ فكيف يكون مأمونًا على ما يدَّعيه، فاتِّباع القدم المحمدي نعمة وأي نعمة، والزيغ عنه نقمة لا يماثلها نقمة، فإن شؤم هلاك الدين لا يعادله شؤم، نعوذ من ذلك بالله الحي القيوم.

وإذا نظرت بعين التحقيق في هؤلاء الزَّنادقة المنابذين لأهل الطريق لم ترَ عندهم غير شقشقة اللسان الخالية عن الدليل والبرهان، وإذا بحثت مع أحدهم أسفر وجهه عن أخلاق البغال بكلام أبرد من برد العجوز؛ لتمثله في وصف النعال.

ولقد أحسن سيدي عبد السلام بن غانم المقدسي(١) في وصفهم، حيث قال في آخر كتابه: «**حل الرموز وفتح الكنوز**»:

=

وقال أبو الحسين: ولعمري لقد كان يبدو منه الشيء بعد الشيء على سبيل الغلبة لا يجوز أن يتخذها الإنسان دعوى يدعيها. وقال الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي: سمعت علي بن بندار، يقول سمعت أبا بكر بن محمود يقول: بلغني أن أبا حفص قدم على أبي يزيد، فقال له: يا أبا يــزيد: يبلغنا عنك في كل وقت أشياء منكرة، فقال: إنما يخرج الكلام مني على حسب وقتي، ويأخذه كل بحسب وقته ثم ينسبه إلي، والله أعلم.

وانظر في ترجمته: حلية الأولياء (١٠/٣٣، ٤٠)، وفيات الأعيان (١/٣٠١)، صفة الصفوة (٤/٨٩، ٩٤)، المنتظم (٥/٢٨)، الرسالة القشيرية (١٧)، طبقات الصوفية للسلمي (٨)، ميزان الاعتدال (١/ ٤٨١)، الكواكب الدرية (١/٢٤)، البداية والنهاية (١١/٣٥)، مرآة الجنان (٢/١٧٣)، نفحات الأنس (٥٦)، الطبقات الكبرى للشعراني (١/٨٩)، طبقات الأولياء (١٠٨)، النجوم الزاهرة (٣/٣٥)، جامع كرامات الأولياء (٢/٤٠)، نتائج الأفكار القدسية (١/١٠٤)، رشحات عين الحياة (١٤)، معجم البلدان (١/٦٢٣)، درر الأبكار (ص١٢٠)، وروضة الحبور في مناقب الجنيد البغدادي وأبي يزيد طيفور لابن الأطعاني (ص١٨) بتحقيقنا.

(١) هو الشيخ الفقيه العلامة سيدي عز الدين عبد السلام بن أحمد بن غانم المقدسي، المتوفى ٦٧٨ هـ، له: حل الرموز، وطرق الوسائل، وكشف الأسرار عن حكَم الطيور والأزهار، والفتوحات الغيبية، وتفليس إبليس، والشجرة في الوعظ (طبع بتحقيقنا). وانظر: شذرات الذهب (٥/٣٦٢).

ذَهَبَ الرجالُ وجَالَ مِثل مجالهم … زمر مِن الأوباشِ والأنذالِ
زَعَمُوا بأنهم عَلَى آثارِهِم … سَارُوا ولكن سيرة البطَّال
لبسُوا الدلوق مرقَّعًا وتقشَّفُوا … كتقشف الأقطابِ والأبدَالِ
قطَعُوا طَرِيق السَّالِكين وأَظلموا … سبل الهُدَى بجهالةٍ وضلالِ
عَمَّروا ظَواهِرهم بأثوابِ التُّقى … وحشوا بواطنهم مِن الأدغالِ
إنْ قلت: قَالَ الله، قَالَ رسوله … همزوك همز المنكرِ المغتالِ
ويقول قلبي قَالَ لِي عن سرِّه … عن سرِّ سرِّي عن صفَا أحوالِي
عَنْ حضرتِي عَنْ فكرتِي عَنْ خلوتِي … عَنْ جلوتِي عَنْ شَاهِدي عَنْ حالِي
عَنْ صَفْو وقتِي عن حقيقةِ حكمتِي … عَنْ ذاتِ ذَاتِي عَنْ صِفات فعالِي
دَعوى إذَا حقَّقتها ألفيتها … ألقاب زور لُقِّبت بمحالِ
تَركُوا الشَّرائع والحقائق واهتَدُوا … بطرائقِ الجُهَّالِ والضلالِ
جَعَلُوا المِرَا فتحًا وألفاظ الخطَا … شطحًا وصَالوا صَولة الأدلالِ
وترصَّدُوا أكل الحرامِ تخادعًا … كتخادع المتلصصِ المحتالِ
فهناك طَابَ المخلصون وأَصْبَحُوا … مستبشرين بصورةِ الأشكَالِ
فهم خواص الله آية يمهل … الذَّاكرين الله فِي الآصالِ
القَانِتين المحبِّين لربِّهم … النَّاطِقين بأصدقِ الأقوالِ
التَّاركين حظوظهم ونفوسهم … المؤثرين بخالصِ الأموالِ
مَا شَأنهم في شانهم دعوى ولا … عملوا بقصد مراءٍ ولا لجدالِ
عملوا بما علموا وجَادوا بالذي … وجدوا وما بخلوا بفيضِ نوالِ

إلى آخر القصيدة البديعة الفريدة يستدلون بأدلة، كبيت العنكبوت وحجه عادت بتوالي الأيام مقطوعة الثبوت كأنها ألعاب الشمس، وهي أبعد عن الحق من أمس يتمسكون بكلام السُكارى، ويحتجُّون بأقوال الحيارى، مع أن الصحاة إذا خالفوا نص الشارع لا يعول على كلامهم، ولا يلتفت بعد وجود الحق الصراح لما يضاده من

فهامهم، اللهم إلا أن يكون فهمًا لا يعارض نصًّا، ولا يوجب في مقام قائله نقصًا.

هذا مع أن تلك الشطحات مؤولة(١)، وعن مؤدي اللفظ الظاهري إلى ما يليق محولة،

---

(١) قال الشيخ أبو الهدى الصيادي: قال الشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي قُدِّس سرُّه في فتوحاته في باب معرفة الشطح وأسراره ما نصَّه:

وحاشا أهل الله أن يتميزوا عن الأمثال أو يفتخروا؛ ولهذا كان الشطح رعونة نفس، فإنه لا يصدر من محقق أصلاً.

فإن المحقق ما له مشهود سِوَى ربه وعلى ربه ما يفتخر وما يدعي، بل هو ملازم عبوديته مهيأ لما يرد عليه من أوامره، فيسارع إليها وينظر جميع ما في الكون بهذه المثابة، فإذا شطح انحجب عمًّا خلق له وجهل نفسه وربه، ولو انفعل عنه جميع ما يدعيه من القوة فيحيي ويميت ويولي ويعزل وليس عند الله بمكان، بل حكمه في ذلك حكم الدواء المسهل أو القابض، يفعل بخاصية الحال لا بالمكانة عند الله كما يفعل الساحر بخاصية الصنعة في عيون الناظرين، فيخطف أبصارهم عن رؤية الحق فيما أتوا به.

فكل من شطح فعن غفلة شطح، وما رأينا ولا سمعنا عن ولي ظهر منه شطح لرعونة نفس وهو ولي عند الله إلا ولا بدَّ أن يفتقر ويذل ويعود إلى أصله، ويزول عنه ذلك الزهو الذي كان يصول به.

فذلك لسان حال الشطح. هذا إذا كان بحق فهو مذموم، فكيف لو صدر من كاذب.

فإن قيل: وكيف صورة الكاذب في الشطح مع وجود الفعل والأثر منه؟.

قلنا: نعم ما سألت عنه، فأما صورة الكاذب في ذلك، فإن أهل الله ما يؤثرون إلا بالحال الصادق إذا كانوا أهل الله، وذلك المُسمَّى شطحًا عندهم حيث لم يقترن به أمر إلهي أمر به كما تحقق ذلك من الأنبياء عليهم السلام.

فمن الناس من يكون عالـمًا بخواص الأسماء فيظهر بها الآثار العجيبة والانفعالات الصحيحة، ولا يقول: إن ذلك عن أسماء عنده، وإنما يظهر ذلك عند الحاضرين أنه من قوة الحال، والمكانة عند الله والولاية الصادقة، وهو كاذب في هذا كله.

وهذا لا يُسمَّى شطحًا ولا صاحبه شاطحًا، بل هو كذب محض ممقوت.

فالشطح: كلمة صادقة صادرة عن رعونة نفس عليها بقية طبع تشهد لصاحبها ببعده من الله في تلك الحال، وهذا القدر كاف في معرفة حال الشطح.

وقال قُدِّس سِرُّه في الجزء الأول من فتوحاته في الباب التاسع والثلاثين: حكي عن بعضهم أنه قال: أقعد على البساط. يريد بساط العبادة.

وإياك والانبساط: أي التزم ما تعطيه حقيقة العبودية من حيث أنها مكلفة بأمور حدَّها لها سيدها، فإنه =

وهم كتبٌ في الألفاظ المصطلح عليها كثيرة، فكيف يفهم من لم يدرِ رموزهم العسيرة، وضعوها غيرةً على الأسرار أن تُذاع لدى الأشرار.

قال سيدي الشيخ عبد الغني، حفظ الله وجوده، ورزقه العيش الهنيء في رسالته المُسمَّاة بـ «إيضاح المقصود في معنى وحدة الوجود»(١):

والحاصل أن جميع علماء الظاهر لا حق معهم في الطعن على القائلين بوحدة الوجود من المحققين العارفين، القائلين بذلك على وجه الحق والصواب كما ذكرنا، أما القائلين بوحدة الوجود من الجهلة الغافلين والزنادقة الملحدين، الزاعمين بأن وجودهم المفروض المقدر هو بعينه وجود الله تعالى، وذواتهم المفروضة المقدرة هي بعينها ذات الله تعالى، وصفاتهم المفروضة المقدرة هي بعينها صفات الله تعالى، الذين يحتالون بذلك على إسقاط الأحكام الشرعية عنهم، وإبطال الملَّة المحمدية، وإزالة التكليف عن نفوسهم، فالطعن عليهم بسبب القول بوحدة الوجود على هذا المعنى الفاسد طعن صحيح، وعلماء الظاهر

=

رؤيت بمرأى الشطحات فهي مؤوَّلة متصرفة عن مقام الشطح على الغالب.

وأما بعض الكلمات التي لا تقبل التأويلات فهي نسبت إليه، ولم تكن منه ﷺ على الأصح، كالكلمات التي سمَّاها واضعها عليه من الله ما يستحق بالغوثية والمعراجية وأسندها إلى الشيخ ﷺ، وأخذ به نزه الله مقامه إلى مذهب الحلولية وأهل الوحدة المطلقة، فهي بهتان وافتراء محض عليه قُدِّس سرُّه.

وإنه ﷺ من أعظم من تحقق بقدم الاتباع للنبي ﷺ في الأقوال والأفعال، وقد دلَّت عليه إرشاداته وكمالاته وعباداته.

وقال قومٌ معنى الشطح، وصاحبه: أي الشطَّاح الذي يقف عن الترقيات والمجاهدات، والأعمال الموجبة لإعلاء المراتب والدرجات، مع شطحه وتجاوزه منحطًّا عن المراتب الرفيعة حالة الشطح، هذا إذا لم يسقط بصدمة شطحه عن مرتبته بالكلية؛ لأن الشطح من أعظم مزالق الإقدام؛ لأن صاحبه ربما ينصرف عنه انطماسه وذهوله، ووارد غيبته، يعود إلى الصحو، ويبقى على لسانه الأول متكلمًا في حضرة خيالية فيسقط، ويبعد ويلحق بأهل الأنانية، حفظنا الله والمسلمين. وانظر: قلائد الزبرجد للشيخ الصيادي (ص٧٨) بتحقيقنا.

(١) انظر: إيضاح المقصود (ص٦٦) تحقيق الأستاذ سعيد عبد الفتاح (طبع الآفاق العربية) مصر.

مثابون بذلك كمال الثواب من الملك الوهَّاب، والعارفون المحققون في هذا الطعن من غير خلافٍ قد أشار إليهم الشيخ عبد الكريم الجيلي، قدَّس الله سرَّه، في كتابه المُسمَّى شرح الخلوة في أوائله من الوصايا[1] حيث قال:

«يا أخي.. قد سافرت إلى أقصى البلاد، وعاشرت أصناف العباد، فما رأت عيني ولا سمعت أذني أشر ولا أقبح ولا أبعد عن جناب الحق تعالى من طائفةٍ تدَّعي أنها من كُمَّل الصوفية، وتنسب نفسها إلى الكمَّل وتظهر بصورهم، ومع هذا لا تؤمن بالله ورسله ولا باليوم الآخر، ولا تتقيَّد بالتكاليف الشرعية، وتقرر أحوال الرسل وما جاءوا به بوجهٍ لا يرتضيه من في قلبه مثقال ذرة من الإيمان، فكيف من وصل إلى مراتب الكشف والعيان، ورأينا منهم جماعة كثيرة من أكابرهم في بلاد أذربيجان[2] وشروان[3] وجيلان[4] وخراسان[5]، لعن الله جميعهم[6].

فالله الله يا أخي.. لا تسكن في قرية فيها واحد من هذه الطائفة؛ لقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال:٢٥]، وإن لم يتيسر لك فاجتهد ألا تراهم ولا تجاورهم، فكيف أن تعاشرهم وتخالطهم، وإن لم تفعل فما نصحت نفسك، والله الهادي».

وقال الجنيد ﷺ [7]لرجلٍ ذكر المعرفة وقال: «أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك

(١) شرح الخلوة للإمام الجيلي (مخطوط)، وأما كتاب الخلوة للشيخ الأكبر فمطبوع.

(٢) هي ناحية واسعة بين قهستان، وإيران، بها مدن كثيرة، وقرى وجبال، وانظر: آثار البلاد وأخبار العباد للقزويني (ص٢٨٤).

(٣) هي ناحية قرب باب الأبواب، قيل: قصة موسى والخضر عليهما السلام كانت بها، وقيل غير ذلك، وانظر: آثار البلاد (ص٦٠٠).

(٤) غيضة بين قزوين وبحر الخزر، صعبة المسالك لكثرة ما بها من الجبال والوهاد والأشجار والمياه، وانظر: آثار البلاد (ص٣٥٣).

(٥) هي بلاد مشهورة شرقيها ما وراء النهر، قصبتها: مرو، وهراة، وبلخ، ونيسابور، وهي من أحسن أرض الله وأعمرها، وأكثرها خيرًا، وانظر: آثار البلاد (ص٣٦١).

(٦) هذه الدعوة من الشيخ الجيلي لها الأثر الشديد على الكاذبين منهم بلا شك.

(٧) هو سيد الطائفتين ومفتي الفريقين وإمامهم وتاجهم وطاووس العباد وقطب العلم والعلماء.

الحركات من باب البر والتقرُّب إلى الله تعالى فقال الجنيد قدس الله سره:

إن هـــذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال، وهو عندي عظيم، والذي يسرق ويزني أحســـن حالاً من الذي يقول هذا، وإن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله وإليه رجعوا فيها، ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة إلا أن يحال بي دونها»[١].

وقال ﷺ: الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر رسول الله ﷺ[٢].

وقـــال ﷺ: «من لم يحفظ القرآن و لم يكتب الحديث لا يُقتدى به في هذا الأمر؛ لأن علمنا هذا مقيَّدٌ بالكتاب والسُّنة»[٣].

وقال ﷺ: «ما أخذنا التصوف عن القيل والقال، لكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات»[٤].

وقال ﷺ: «رأيت في المنام أني أتكلم على الناس، فوقف عليَّ ملكٌ فقال: ما أقرب ما تقـــرَّب به المتقربون إلى الله تعالى؟ فقلت: بعملٍ خفيٍّ بميزان، وفي قولي وهو يقول: كلامٌ موفـــقٌ والله، وقيل له: من أين استفدت هذا العلم؟ فقال: من جلوسي بين يدي الله تعالى ثلاثين سنة تحت تلك الدرجة، وأومأ إلى درجةٍ في داره»[٥].

ورُئـــي في يـــده سبحة فقيل له: أنت مع شرفك تأخذ في يدك سبحة، فقال: طريق

---

(١) انظر: الحلية (١٠/٢٧٨)، وطبقات الصوفية (ص١٥٩)، والرسالة (٢/٦٠٥)، وروضة الحبور (ص١٢٠) بتحقيقنا، وكتابنا الإمام الجنيد (ص٢٦٥) بتحقيقنا.

(٢) انظر: طبقات الصوفية (ص١٥٩)؛ والرسالة (١/١٠٦)، وطبقات الشافعية للسبكي (٢/٢٦٣)، والاستقامة لابن تيمية (ص٩٧)، وكتابنا الإمام الجنيد (ص١٤٦).

(٣) انظر: اللمع (ص١٤٤)، والرسالة (١/١٠٧)، وتاريخ بغداد (٧/٢٤٣)، وسير أعلام النبلاء (١٤/٦٧)، ومدارج السالكين لابن قيم (٣/١١٩)، وكتابنا الجنيد (ص١٦٠).

(٤) انظر: الحلية (١٠/٢٧٧)، والرسالة (١/١٠٦)، وطبقات الصوفية (ص١٥٨)، وتاريخ بغداد (٧/٢٤٦)، وطبقات الحنابلة (١/١٢٧)، وطبقات الشافعية الكبرى (٢/٢٦٦)، وذم الهوى لابن الجوزي (ص٥١)، وروضة الحبور (ص١١٩) بتحقيقنا، وكتابنا في الجنيد (ص٢٣٨).

(٥) انظر: الرسالة للقشيري (٢/٧٢٦)، والإحياء للغزالي (٤/٥٠٨)، والحبور (ص١١٣) بتحقيقنا، والإمام الجنيد (ص٢٨٧).

وصلت به إلى الله تعالى لا أفارقه أبدًا [١].

وكان يدخل كل يوم حانوته ويسبل الستر، ويصلّي أربعمائة ركعة ثم يعود إلى بيته، كذا في الرسالة القشيرية[٢].

فانظر يا أخي بعين الإنصاف إلى حال هؤلاء الزنادقة، وما هم عليه من سوء الاعتقاد مع ادِّعائهم المعرفة بالله تعالى التي هي أعز منالاً من بيض الأنوق ومن مناط العبوق، وحال السلف الصالح تجد بينهم من البون كما بين النور والظلام، والعلم والجهل التام.

فإن القوم تخلّقوا وهؤلاء تشدَّقوا، وأولئك اتَّبعوا وهؤلاء ابتدعوا، وأولئك على الحق ائتلفوا وهؤلاء اختلفوا، والقوم ساروا وما وقفوا وهؤلاء وقفوا وتخلفوا، أجمع أهل الحق على اتِّباع الشريعة فخالفوهم، وعلى مخالفة الشيطان وجنوده فحالفوهم.

وقد قلت سابقًا محذرًا من هذه الطائفة التي عليها دَوائر السوء دائرة وبها طائفة.

حمى أهل ذَاكَ الحي مِنْ حله رقَا ... وعند أخَا العِرْفَانِ يرتحلُ الشَّقَا
حمى مَنْ بِهِ قد حل جل مناقبًا ... فدونكه يَا طَالب الوصل واللقا
وعربد على الصَّاحِي بسكرِكَ إن تَكُنْ ... برشفِ اللمى قَدْ فُزْتَ أَوْ جزتَ بالنقا
وكُنْ يَا فَتَى ممن بِشدَّةِ بَأسِهِ ... لمقلة بعد الحبِّ بالوصلِ قَدْ فَقَا
وعادي لمن قد لامَ فِي شربِ خمرهم ... وصافي لمن كأس التَّصَابِي قد سَقَا
وكُنْ أحمدي الشُّرب صَافٍ من الرِّدا ... وإيَّاكَ أَنْ تلوي عَلَى مَنْ تَزَنْدَقَا
وشم نسيم القرب من عرف بأهم ... وكُنْ من الحِمَا ممن يحق تحققَا
فهذا شرابٌ لم يشبه مدنس ... تصفي عن الأمشاج قدمًا وعتقَا
فلُذْ فِي حِمَى ليلى لعلَّكَ تحتَمِي ... وتصبح من قيدِ الأجانبِ مطلقَا
ولا تلتفتْ فِي الحبِّ عَنْ ذَا لغيرهْ ... فَفِي غيرِهِ السم الزعاف تدفقَا

---

(١) انظر: الرسالة (١/١٠٨)، وتاريخ بغداد (٧/٢٤٥)، وطبقات الأولياء (ص١٢٨)، والإمام الجنيد سيد الطائفتين (ص٢٢٣).

(٢) انظر: الرسالة (١/١٠٨)، وكتابنا الجنيد (ص٩٠).

فهـــذَا هـــو القـــولُ الصحيحُ فثقْ بهِ وخُـــذْهُ بِصِـــدْقٍ كَـــي تكون محققَا
وصـــلِّ وســـلِّم كلَّمَـــا هبَّت الصبا عـــلى المصـــطفى من تابعيه الأساوقَا
كَـــذَا الآل والأصحـــاب ثم وتابـــع مدى الدهـــر ما عود الأراكة أورقَا

واعلم يا أخي أني ذكرت في أول الألفية عقدة مجملة وفيَّة، وقلت بعدها:

وقَـــدْ برئـــنَا مـــنْ فـــتى يخالفُ كـــــنـــز الهُدى وللعدَا يحالفُ
وإنْ يَكُـــنْ زورًا إليـــنَا انتســـبا ومَـــا انتحى جهلاً لنا قد نسبا
فـــإن مَنْ وافقـــه صـــديـــق ومن يَكُـــنْ خالفـــه زنـــديق

وإن ممن يحفظون بعض مشكلات كلامه الواردة في نثره ونظامه قدوة العارفين سلطان المحققين: سيدي محيي الدين بن العربي، النور الأزهر، والشيخ الأكبر ﷺ(١).

ومن المعلوم أن مشكل كلام العارفين يُراد منه الإشارة لا العبارة؛ لأن علوم الأذواق من فوق طور العقل، وإن أُشير إليها في بطون الأوراق.

قال سيدي عمر قدَّس الله سرَّه: وثم وراء النقل علم يدق عن مدارك غايات العقول السليمة، فكيف يقبل العقل المعقول بعقال الشهوات كلام من خلصوا مذ أخلصوا منها ومن الشهوات، ومن أراد من العامة ذلك فهو كمن أورى زنادًا على غير حجرٍ، أو ابتغى نفخ ضرم على ماء يتفجر.

هذا وكلام العارفين كالعرائس، لا تُجلى معانيه إلا على كفئها، ومخدرات مبانيه لا تُتلى إلى على من صفا من الأكدار واستقى من صفوها، كيف يمكن الجعلان أو نبت

(١) هو من تغني معرفته عن الإشارة إليه، وإن كانت معرفته مستحيلةً على غير أبناء جنسه، ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣] فهو ممن ورثوا: «لا يعرف قدري غير ربِّي»، فكان من موروثه ﷺ مُربَى ولغيره مُربي، سُتروا في الدنيا؛ تخلقًا بأخلاق سيدهم، خاتم الولاية المحمدية، حجَّة الله على أوليائه، العين التي يشرب بها عباد الله، الولي، الكامل، المقرَّب، السند، العالم بالله تعالى، المؤيَّد من الله ورسوله في جميع شئونه، سيدنا محمد بن علي بن محمد الطائي الأندلسي، المعروف بالشيخ ابن العرب، صاحب الفتوحات والفصوص والمشاهد القدسية وغيرها ما لا يحصى ﷺ، ونفعنا به في الدارين، آمين، وأماتنا على محبته ومحبة جميع الصالحين، آمين.

الورد إن شم عرف الطيب، أم كيف يبصر الشمس خفاش، أو ذو رمدٍ أعيا الطبيب.

ولنذكر لك قدرًا يسيرًا من كلام هذا الهمام الإمام المقدام؛ لنجعله أصلاً ترد إليه ما اشتبه عليك من كلامه، وما لا تفهم منه، فدعه لأهله الذين يفهمونه على مراده ومرامه.

وقد ذكر الشيخ عقيدته في أول فتوحاته؛ ليرجع العارف إليها ما خالفها من ظواهر كلماته فنقول: قال ﷺ في كتاب «**العبادلة**»:

من أراد أن يعرف ما عنده من معرفة ربه فلينظر إلى ما عنده من الوقوف عند رسومه وزنًا بوزنٍ، فإن استغرقت أنفاسه المعاملات ظاهرة وباطنة فقد شرب المعرفة بالله تعالى شربًا، ولقرض المقاريض والإحراق بالنار أهون على العارف من أن يمر عليه نفس في غير طاعة الله، ولو بُشِّر بالغفران والتجاوز عن ذلك النفس، فإن أعمال العارفين ما قامت على طلب الأعواض، وإنما قامت على ما يقتضيه الأمر في نفسه، فشتان بين العبادتين، يقول العارف: الله، فيحرق بنفسه كل ما سوى الله: أي لكن في حاله لا في مقامه.

وقال فيه: ما ثَمَّ إلا موافقة ومخالفة، فبالموافقة ينال القرب الإلهي وتُرفع الحجب، وبالمخالفة يكون البُعْد الإلهي وإرسال الحجب؛ إذ هو القريب البعيد.

وقال فيه: السعيد: من إذا صلَّى العشاء الأخيرة جعل صحيفة أعماله في ذلك اليوم بين يديه، ونظر فيها فإذا رأى ما يطلب الشكر شكر، وما يطلب الاستغفار استغفر، وما يطلب التوبة تاب، إلى أن يفرغ، ثم يطوي الصحيفة وينام على شكرٍ واستغفارٍ وتوبةٍ، يفعل ذلك كل ليلةٍ. فإنه لا يدري متى يفجأه الموت.

هكذا كان فعل شيخنا أبي عبد الله بن مجاهد بإشبيلية، إلى أن مات وولى مكانه، ومجلس تدريسه شيخنا أيضًا أبو عبد الله بن قسوم، ونعم ابن قسوم زاد على شيخه في الاجتهاد، وأربى والتزم هذه الطريقة: أي محاسبة نفسه في كل ليلةٍ، وكنت كثيرًا ما أغشاه، ويوصيني بما أفعله في ديني رحمه الله.

وعلى هذه الطريقة رأيت أبا عمران موسى بن عمران المسيريلي، من أكابر أصحاب الشيخ أبي عبد الله بن مجاهد المذكور، وكان لديه أدب كثير وطلب، ومما أنشد به لنفسه

من أبياتٍ له خرجت عن خاطري في هذا الوقت، وهي لزومية كتبها لي بخطه ﷺ منها:

فأنـــت ابنُ عمران موسى المسيء ولست ابن عمران موسى الكليمَا

وكان يؤم بمسجد الرِّضا بإشبيلية، ويعرف ذلك المسجد أهل البلد بالكنيسة المرحومة، فالتزمت هذه الطريقة، ورأيت لها البركة أعني: محاسبة النفس.

وقال في رسالة الكنه فيما لا بدَّ للمريد منه: «ومما لا بدَّ منه محاسبة نفسك ومراعاة خواطرك مع الإناث، وأشعر بالحياء من الله تعالى في قلبك، فإنك إذا استحييت من الله منعت قلبك أن يخطر فيه خاطر يذمه الله، أو تتحرك بحركةٍ لا يرضاها الله، ولقد كان لنا شيخ يقيِّد حركاته في نهاره في كتابٍ، فإذا أمسى جعل صحيفته بين يديه، وحاسب نفسه على ما فيها، وزدت أنا على شيخي بتقييد خواطري».

وهذه الرسالة ينبغي لكل مريدٍ ناصح نفسه أن يلتزم بما فيها، كما ينبغي لكل من يدَّعي المعرفة أن يطلع كتابه المُسمَّى بـــ «**روح القدس في مناصحة النفس**»، فإنه نصح فيه وبالغ في النصيحة، جعل الله موازينه رجيحة، ومن أراد أن يستكشف عن زوايا أسرار الآداب المحمدية وما فيها من الخبايا فليدأب على مطالعة آخر أبواب فتوحاته، وهو باب الوصاية، ومن أراد شرب الرحيق المختوم فليتحقق بكتابه مواقع النجوم، وكتبه ﷺ كلها نافعة، وللحجب رافعة، غير أن طعام الرجال يضر بالأطفال، فإذا طالع المريد كتبه التي تنـــزل فيها لأفهام القاصرين، ورزق نوع الفهم بحسن الاتِّباع والتسليم للكاملين، جاز له مطالعة غيرها من كتب الحقائق المفصحة عن عجائب الرقائق.

ولقد ألفت رسالة في لزوم صون الأسرار عن القاصرين وأهل الإنكار، وسميتها: تشييد المكانة لمن حفظ الأمانة.

وقال الشيخ ﷺ في شرح اليوسفية عند قول المؤلف(١): فالزم الباب، ولا تخل بشيءٍ من آداب الشرع أصلاً، فإن أخللت بشيءٍ من الآداب أنت أو غيرك كانت العقوبة إليك سريعة، فالزمْ حلقة الباب، وزنْ حركاتك بميزان الشرع.

(١) وهي تسمى: شرح روحانية الكردي أيضًا، تحت قيد الطبع بتحقيقنا.

يقول لك في وصيته بلزوم الباب وحلقته ما قال الله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [البقرة:٢٥٦]، وهو من حلقة الباب، وذلك هو الإيمان، والباب الإسلام، وبالباب وحلقته تكون السعادة للعبد، وإنما قيد الإيمان بالله والكفر بالطاغوت.

فإنه يقول في حق قوم: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ﴾ [العنكبوت:٥٢] فسمَّاهم مؤمنين، كما قال: ﴿يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾ [البقرة:٢٥٦] فسمَّاهم كافرين، كما سمى الكافر بالله كافرًا، فلما وقع الاشتراك في الاسم لذلك قيد بيانًا لغاية الإطلاق.

واعلم أن الآداب جماع الخير، والشرع ما شرع الله، ففي الشرع جماع الخير، فإن الطريق إليه لا يُعرف إلا منه، فإنه ليس لمخلوقٍ أن يحكم فيما يقرب إلى الله إلا بروائح مكارم الأخلاق، فإن الصورة الإلهية تعطي ذلك، ولهذا يجني ثمرها المؤمن صاحب الجنة والمخلد في النار لا بدَّ من ذلك، ولما كان الأمر كما قلنا لذلك أمرك بالآداب الشرعية؛ لتكون بها في الدار المسمَّاة جنة.

وأما صورة الوزن بين الحكم المشروع وبين أفعال المكلفين، فالعلم بذلك موقوفٌ على العلم بالشرع، والشرع على قسمين:

ثابتٌ يناقضه شرع ثابت، وهو ما وقع فيه الاختلاف بين المجتهدين.

وشرعٌ جامعٌ وهو ما أجمعوا عليه، فالإنسان يحتاط أبدًا، ولا يزال أبدًا يميل إلى ما وقع فيه الإجماع، كالقصر في الصلاة للمسافر، والفطر للمسافر في رمضان، ودخول مكة لمن لا هدي معه بعجزه دون حج، وترك نكاح الربيبة التي ليست في الحجر، وترك شرب النبيذ وأمثال ذلك، وهذا هو طريق العزائم، فأمرك ألا تجنح إلى تأويلٍ مع قدرتك على مثل هذا: أي لا يكون في عملٍ مشروعٍ ينقضه عليه شرع آخر والشارع واحد، وأكثر من هذه النصيحة من هذا الرجل في مثل هذا الأمر لا يكون، والله أعلم.

قال ﷺ في رسالة القربة: «فالله الله. لا تنبذوا حكمًا ولا تعدوا حدًّا من الحدود المعلومة عند علماء الرسوم، وإن اختلفوا في ذلك وحرَّم الواحد عين ما حلله الآخر فلا تقلد هذا الرسمي في شيءٍ من ذلك ولا تخالفه، واعمل بما توجه عليك في وقتك مما فيه

سلامتك، واشتغل بنفسك شغلاً كليًّا، واهرب إلى محل إجماعهم، فإن لم تجد إجماعًا فكن مع أكثرهم، فإن لم تجد كثرة فكن مع أصحاب الحديث في تلك المسألة المطلوبة، وقلَّ أن يحتاج أهل الطريق إلى مثل هذا؛ لأنهم زهدوا في الدنيا فقلَّ الحكم عليهم».

أخبرني شيخنا الشيخ محمد الخليلي حفظه الله تعالى قال: كنت أعمل على مراعاة المذاهب، وأتبع محل الإجماع منها فأعمل به، فرأيت رسول الله ﷺ في المنام فقلت: يا رسول الله، هل العمل بالمتفق عليه من شريعتك أولى أو المختلف فيه؟ قال: فانتهرني وقال: «لا تسأل».

ففهمت منه أنه لم يرضَ بهذا السؤال، ثم أُلهمت فقلت له: قد فهمت مرادك يا رسول الله، المتفق عليه من شريعتك، والمختلف فيه من شريعتك، والكل من عند الله، قال: هكذا قل...

وما ضلوا به وأضلوا هؤلاء اللئام قولهم: إن الشريعة جعلها الله ستارة على الحقيقة لأجل العوام، وليس المراد من الصلاة إلا الوصلة، والصيام يُراد به الإمساك عن رؤية السوى، والحج: القصد إلى الله، وعرفات يُراد به جبل المعرفة، واستدلوا على ذلك بعبارات العارفين، وهم إنما أرادوا ذكر المعنى الباطني، فإن كل شيءٍ له ظاهر وباطن، فالمتمسك بالظاهر من النصوص فرقة ضالة يُقال لها: «الظاهرية»، والمتمسك بباطنها فرقة أخرى ضالة يُقال لها: «الباطنية».

والجامع بين الظاهر والباطن هم أهل السُّنة والجماعة، الذين فرقتهم لكل خيرٍ جامعة، وكُمَّل هذه الطائفة هم الصوفية الأبرار والسادة الأخيار، فإذا سمعوا قوله ﷺ:

«إنَّ الملائكة لا تدخل بيتًا فيه كلبٌ ولا صورةٌ»(١).

أخرجوا من بيوتهم الكلاب والصور عملاً بظاهر الحديث، وفهموا من إشارته أن المراد بالبيت القلب، وبالكلب الحقد، وبالصورة تصور الغير، فبادروا لطهارة القلب منهما، عملاً بإشارة النص، والإشارة لا تعارض ظاهر العبارة، وليس مرادهم بهذه

(١) رواه البخاري (٣/١٦٦٦)، ومسلم (٣/١٦٦٤).

الخزعبلات إلا مجرد الاحتيال على إسقاط التكاليف الشرعية، وإبطال شعائر الملة المرعية.

قال الإمام العارف السهروردي في «عوارف المعارف»: «ومن أولئك: أي المنتمين للصوفية وليس منهم قوم يغرقون في بحار التوحيد، ويسقطون ولا يثبتون، لنفوسهم حركةً وفعلاً، ويزعمون أنهم مجبرون على الأشياء، وألا فعل لهم مع الله تعالى، ويسترسلون في المعاصي، وكلما تدعو النفس إليه، ويركنون إلى البطالة ودوام الغفلة، والاغترار بالله، والخروج عن الملة، وترك الحدود والأحكام والحلال والحرام.

وقد سُئل سهل عن رجلٍ يقول: أنا كالباب لا أتحرك إلا إذا حُرِّكت، قال: هذا لا يقوله إلا أحد رجلين: إما صديق، أو زنديق؛ لأن الصديق يقول هذا القول إشارة إلى أن قوام الأشياء بالله مع أحكام الأصول، ورعاية حدود العبودية، والزنديق يقول ذلك إحالة للأشياء على الله، وإسقاطًا للأئمة عن نفسه، وانخلاعًا عن الدين ورسمه، فأما من كان معتقدًا للحلال والحرام والحدود والأحكام، معترفًا بالمعصية إذا صدرت منه، معتقدًا وجوب التوبة منها، فهو سليمٌ صحيحٌ، وإن كان تحت القصور بما يركن إليه من البطالة، ويستروح بهوى النفس إلى الأسفار والتردد في البلاد، متوصلاً إلى تناول اللذائذ والشهوات، غير متمسكٍ بشيخٍ يؤدبه ويهذبه ويبصره بعيب ما هو فيه».

واعلم يا أخي سلك الله بي وبك سبيل التحقيق الموصل إلى أقوم منهج، وأعدل طريق، أن القول بأن ظواهر الأحكام المشروعة للأنام خاصة بالعوام، منابذة للدين وخروج عن الشرع المتين، ويلزم عليه أن طريق الخواص ليس فيه شيء من أعمال البر الظاهرة، وإنما هو على دعواهم أعمال باطنة باهرة.

وهذا القول يناقضه حال أكمل الأنام، وقيامه حتى تورَّمت قدماه من طول القيام، ومكابدة الأصحاب، ومجاهدة الأحباب بما ليس في وسعنا الإتيان ببعض ذلك، وإقرارهم بالقصور والعجز عن الوفاء بحقوق السيد المالك، وما سمع منهم ولا نقل عنهم ما يقول به هؤلاء الأنذال، مع أنهم في الحضيض الأسفل عن منازل أولئك الأبدال.

وهذا القول ألجأهم إلى تمييز الشريعة عن الحقيقة، ودعوى انفصالهما ليجيبوا إذا سُئلوا عن مخالفاتهم، التي هي بالذم حقيقة أن هذه الأمور من خلف ستور الحقيقة، مع أن كُمَّل

العارفين لم يفرقوا بينهما إلا بقصد التعريف، فكلما صلح تعريفًا للحقيقة صلح أن يكون للشريعة والطريقة، فإن الحقيقة شريعة والطريقة كذلك، وقد رأيت في بعض الرسائل حديثًا مرفوعًا وهو: «**الشريعة مقالي، والطريقة أفعالي، والحقيقة حالي**»(١).

وعلى تقدير صحته فالشريعة: البيان، وهو بالمقال وما ينطق عن الهوى وبالأفعال، وهو أبلغ فاتبعون يحببكم الله، والحال ما ينتجه البيان فعاد الأمر إليه(٢).

---

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفا (٦/٢).

(٢) حديث الرسول ﷺ: «**الشريعة مقالي، والطريقة أفعالي، والحقيقة حالي**»:
قال الشيخ الكردي الباني في شرح هذا الحديث ضمن حكم الشيخ الأكبر ﷺ بقوله:
شرع الشيخ في بيان حديث الرسول ﷺ الجامع للشريعة، والطريقة، والحقيقة، وتحقيق هذه الثلاثة.
فقال ﷺ حاكيًا عن أفضل البشر ومعدن الكرم.
قال: (**النبي**) بالهمزة من النبأ بمعنى الأخبار؛ لأنه أخبر عن الله والأحكام الشرعيَّة والعقليَّة والعاديَّة، وبدون الهمزة من نبا ينبو بمعنى ارتفع لارتفاعه وعلو شأنه على الخلق كلهم؛ لأنه معدن الكائنات ومنبع جميع الخيرات صلَّى وأفاض الله رحمته بالتجليات الذاتية والأسمائية والصفاتية عليه من الحضرات الأسمائية الإلهية المعبر عنها بخزائن الجود والكرم، وسلم عليه بالاسم السلام فيسلم إليه حقائق الكمال، ويعطيه السلامة عن سطوات تجليات الجلال وعن الانحرافات والزيغ والضلال، ويهبه التحقق بحقائق مرتبة الاعتدال الشريعة أي: مسماها (**مقالي**)، وفي رواية (**أقوالي**) أي: مقولاتي يعني مدلولاتها، ومسمًّى (**الطريقة**) هو أفعالي بمعنى مفعولاتي، و(**الحقيقة**) ومسميها (**حالي وهيئتي التي أنا عليها**)، وفي رواية (**أحوالي**)، وهي أنسب لرواية أقوالي لفظًا ومعنى، وهذا ما قاله الرسول ﷺ: في الأصول الثلاثة، وقلت في توضيح ما قاله الرسول ﷺ بلسان بالإلهام الرباني مبلول:
١- الشريعة بمنـــزلة جسم، والطريقة بمثابة نفس، والحقيقة روح للشريعة والطريقة.
فالجسم ظاهر النفس والروح وهما باطنه، والظاهر قشر والباطن لبّ، والنفس مدبرة للجسم، ولكن في الحقيقة بالجسم من القوَّى النظرية والحسيَّة والخياليَّة وغيرهما مما لا يحصل للنفس إلا بالجسم والروح أحدية جامعة بينهما هذا في الحقيقة، وإلا فالنفس هو البرزخ بين الجسم والروح، فلا يكون الجسم من حيث الكمال بدونهما ولا هما بدونه، ويعبر عن الجسم بلسان الإشارة بالتابوت الذي فيه سكينة الرب؛ لأنه فيه حصول العلم واليقين، وبهما ازدياد الإيمان وحصول اطمئنان النفس إلى الملك الرحمن، فكمال الشيء من روحه، كما أن كمال الروح من سلامة بدِّمه، فعند هذه الطائفة تمام النشأة
=

قال سيدي محيي الدين قدَّس الله سرَّه في كتاب «التراجم» في باب ترجمة الشريعة والحقيقة: لطيفة:

يخيل لمن لا يعرف أن الشريعة تخالف الحقيقة، هيهات بل الشريعة عين الحقيقة، وأن الشريعة جسمٌ وروحٌ، فجسمها الأحكام وروحها الحقيقة، فما ثم إلا شرع لطيفة، الشريعة: وضعٌ موضوعٌ وضعه الحق في عباده، فمنه مسموع وغير مسموع، فلهذا من الأنبياء متبوع وغير متبوع، ﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا﴾ [الأنفال:٢١]، كمثل الذي ينعق بما لا يسمع.

وقال في فتوحاته في باب الشريعة: الشريعة من جملة الحقائق، فهي حقيقة لكن تُسمَّى شريعة، وهي حقٌّ كلها، والحاكم بها حاكمٌ بحقٍّ مثاب عند الله؛ لأنه حكم بما كلف أن يحكم به، وإن كان المحكوم له على باطلٍ، والمحكوم عليه على حقٍّ، فهل هو عند الله كما هو في الحكم، أو كما هو في نفس الأمر؟ فمنا من يرى أنه عند الله كما هو في نفس الأمر، ومنا من يرى أنه عند الله كما هو في الحكم.

ثم قال بعد كلامٍ طويلٍ: فعين الشريعة عين الحقيقة، والشريعة حقٌّ كلها، ولكل حقٍّ

=

و (**الحقيقة التمام**) ومباشرة بلمهما وجمعهما، فإن المجلس بلا خمر لا ينفع، والخمر بلا مجلس لا تؤثر، فالنقص في أفراد كل من الآخر موجود والكمال في جمعهما.

فصاحب الأول معترف بالأحكام، وصاحب الثاني معترف بالحكم، وصاحب الثالث معترف بهما، فبالظاهر يعمل الأحكام ويأتي بها كالعوام، وبالباطن يعتقد بالحُكم ولا يقف عنده حتى لا يقع في المخالفة والآثام.

رزقنا الله والمسلمين هذه الثلاثة بالكمال والتمام بحرمة محمد خير الأنام.

فهذه تسعة عشر وجهًا من وجوه الأصول الثلاثة.

وقال بعضهم: (**الشريعة**) قشر.

و (**الطريقة**) لب.

و (**الحقيقة**) دهن، وهو أنسب بالعقل والنظر، وما ذكره الشيخ أوفر بالمعرفة. وانظر: شرح الحكم الأكبرية للباني (ص٤٦٧) بتحقيقنا.

حقيقة، فحق الشريعة وجود عينها، وحقيقتها ما ينـــزل في الشهود منـــزلة شهود عينها في باطن الأمر، فيكون في ذلك الباطن كما هي في الظاهر من غير مزيد، حتى إذا كشف الغطاء لم يختل الأمر على الباطن.

ثم قال: فما ثمَّ حقيقة تخالف الشريعة؛ لأن الشريعة من جملة الحقائق، والحقائق أمثال وأشباه، والشرع ينفي ويثبت، فتقول: ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، وهذا قول الحقيقة بعينه، فالشريعة هي الحقيقة.

وأطال في ذلك. وقال فيها أيضًا: ومن جملة آداب الحق ما نزلت به الشرائع.

وقال: لما كان الأمر العظيم يجهل قدره ولا يعلم، ويعز الوصول إليه، تنـــزلت الشرائع بآداب التوصل؛ ليقبلها أولوا الألباب؛ لأن الشريعة لُب العقل والحقيقة لُب الشريعة، فهي كالدهن في اللب الذي يحفظ القشر، فاللب يحفظ الدهن والقشر يحفظ اللب، كذلك العقل يحفظ الشريعة والشريعة تحفظ الحقيقة، فمن ادَّعى شرعًا بغير عقلٍ لم تصح دعواه، فإن الله تعالى ما كلف إلا من استحكم علقه، ما كلف مجنونًا ولا صبيًّا ولا من خرفٍ، ومن ادَّعى حقيقة من غير شريعة فدعواه لا تصح.

ولهذا قال الجنيد: (علمنا هذا يعني علم الحقائق الذي نجا به أهل الله مقيَّدٌ بالكتاب والسُّنة: أي أنه لا يحصل إلا لمن عمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وذلك هو الشريعة، وقال: إن الله أدبني فأحسن أدبي، وما هو إلا شرع له، فمن تشرَّع تأدَّب، ومن تأدَّب وصل).

وقال سيدي عبد الله بن أسعد اليافعي رحمه الله تعالى في نشر المحاسن:

اعلم أن الشريعة الشريفة المنيفة مشتملة على قسمين: علم وعمل، ثم العلم من حيث الجملة على قسمين: ظاهر وباطن.

والظاهر على قسمين: شرعي وغير شرعي.

والشرعي على قسمين: فرض ومندوب.

والفرض على قسمين: فرض عين وفرض كفاية.

وفرض العين على ثلاثة أقسام: علم صفات القلب، وعلم أصل، وعلم فرع.

وقد مثلت لهذه الأقسام وغيرها من أقسام العلوم، وبيَّنت المحمود منها والمذموم، وأوضحت ذلك في خاتمة كتاب شرح التوحيد.

والقسم الثاني من التقسيم الأول وهو العمل على قسمين: عزائم ورخص. إذا علم هذا فاعلم أن الحقيقة ذات المعاني الرقيقة والعلوم الدقيقة مشتملة أيضًا على قسمين: علم وعمل.

والأول منها على قسمين: وهبي وكسبي.

فالوهبي: علم المكاشفة، والكسبي على قسمين: فرض وغيره.

والفرض على قسمين: فرض عين وفرض كفاية.

وفرض العين على ثلاثة أقسام: علم قلب وعلم أصل وعلم فرع، كما تقدَّم في العلم الشرعي.

فهذا العلم الكسبي الذي هو أحد قسمي علم الحقيقة هو علم الشريعة، والقسم الثاني من القسمين الأولين وهو العمل هو القسم الأول من قسمي علم الشريعة الذي هو للعزائم، وهو مشتملٌ على سلوك طريق الحقيقة، والطريقة المشتملة على منازل السالكين تُسمَّى مقامات اليقين، فالحقيقة موافقة للشريعة في جميع علمها وعملها وأصولها وفروعها فرضها ومندوبها، ليس بينهما مخالفة أصلاً.

نعم هنا شيئان من العلم والعمل أحدهما: علم صفات القلب، فأهل الحقيقة لهم به اعتناء واهتمام جدًّا، وسلوك طريقتهم موقوف على معرفته وتبديل صفاته الذميمة، وأكثر أهل الشريعة مهملون ومتهاونون فيه مع كونه فرض عين في الشريعة والحقيقة بلا خلافٍ.

وأما القسم الثاني من قسمي علم الشريعة وهو الرخص، فأهل الحقيقة من حيث العلم والاعتقاد لا يشكون بأن ذلك حق والعمل به جائز، لطفًا من الله تعالى بعباده، ورحمةً بهم في التخفيف، ورفع الحرج عنهم.

وأما من حيث عملهم فلهم طريق في العمل طريق في شواهق الحق على شوامخ جبال عزائم

الشريعة الغراء، يسلكون فيها إلى الله تعالى بتوفيقه وعنايته، وجميل لطفه وصيانته وعرة العقاب صعبة الذهاب، منهم من يقيم فيها سبعين سنة، ومنهم من يقطعها بتوفيق الله في سنة، وبعضهم في شهر، وبعضهم في جمعة، وبعضهم في يومٍ، وبعضهم في ساعةٍ، على حسب معونة الله الكريم وتقدير حكمة العزيز العليم، وأنشد في صعوبة مراقيه قوله من قصيدة:

ألا أيُّهَا السَّادات إنَّ طريقَكُمْ عَلَى غيركم وعر صعاب عقابه
طريقٌ كحدِّ السيفِ للهِ در مَنْ يكون على حدِّ السيوفِ ذهابه

إلى آخر عبارته، وقد ذكرت في الألفية فصلاً في كون الشريعة هي الحقيقة، فقلت فصل في الشريعة وأنها عين الحقيقة:

شَريعةُ المختارِ فعلُ الأمْرِ وتَرْكُ منهى دوام العمر
ونفسُ أمر الحق للخليقة عند أولي الحق هو الحقيقة
وقائلٌ بالفرقِ غير منصفٍ إلاَّ إذا التعريف رام فاعرف
وإنها سلبك للآثارِ عنك إذا شهدت فعل الباري
فِيْكَ فلاَ حَوْلَ ولاَ قوةَ لَكَ إلاَّ بِه هَذَا شهودُ مَنْ سلك[1]
والشرعُ حَقٌّ وله حقيقةٌ فاتحدَا وهذه رقيقة[2]
مَا ثَمَّ مَا يخالف الشَّريعة عند فتى نفس له مطيعة
ولا تقلْ بَاطِنها فرُبَّمَا أوهم بل قُلْ هي هي تكفي الظما
ومَنْ يخالف فعله الشَّريعة فإنَّه فِي مهامه القطيعة

(١) يرى الشيخ البكري أن إدراك عدم وجود فرق بين الشريعة والحقيقة.
(٢) الرقيقة هي اللطيفة الروحانية، وقد تطلق على الواسطة اللطيفة بين الشيئين، كالمدد والوصل من الحق إلى العبد .. وقد تطلق الرقائق على علوم الطريقة والسلوك، وعادة ما يفرق بين كل من الحقائق والدقائق والرقائق، فالحقائق: تتصل بالكليات العامة الثابتة، والدقائق: تتصل بالأسرار، والرقائق تتصل بما يثير شعور الرقة وتهذيب الوجدان.

إذْ كـــل مَـــنْ خَالفهـــا زنديق وكـــل مَـــنْ حالفهـــا صـــديق
وكـــل مَـــنْ حالفهـــا صـــديق ولـــيسَ يمكـــن انفكـــاك عنهما
شـــريعةٌ يَـــا ذَا بِـــلاَ حقـــيقةٍ عاطلـــةٍ إذْ لَـــمْ تَكُـــنْ وثـــيقة
حقـــيقة بدونهمـــا فـــباطلة فـــافهمْ منحت مُزن فيض هاطله
ومَـــنْ غَـــدَا مســـلوب الاختيار فحكمـــه تســـليمه للـــباري
لاَ تعـــترض فِـــي فعلِـــه علـــيه إذْ عقلـــه خـــباءه لديـــه
وإنَّمـــا يعـــترض الـــبَاقِي عَلَـــى عقـــلٍ لَـــهُ وشـــرع طه قَدْ قَلا
يقـــولُ ذَا حقـــيقة ذريعـــة كـــي ينـــبذن جانـــب الشريعة
فاحذرْ عَلَى دِيْنِكَ مِنْ ذِيْ القومِ ولاَ تجالســـهم ولـــو فِـــي النَّومِ
وقَـــدْ نَمَـــا فِي ذَا الزمَانِ شرهم حَتَّى سَمَا فِي النَّاسِ جدا ضرهم
ولم يَكُـــنْ لهـــم هـــنا من يردع من أجل ذَا الدين الحنيف ودعوا
وعـــندنا في الشـــامِ مـــنهم نفر قلـــوب أهـــل الحقِّ عنهم نفروا
طـــالـــع سيوفنـــا الحداد فيهـــم كي تمـــس ممن ربهم يهديهـــم

وإنما أشرت لهذه الرسالة في الألفية لأني سودتها، ولم أبيضها إلى الآن، فلهذا أشرت لها في بعض الرسائل.

كما وقع لنا ذلك أيضًا في مناقب شيخنا المرحوم الشيخ عبد اللطيف، التي سميتها: «الكوكب الثاقب في بعض ما لشيخنا من المناقب»، فإني سودتها ولم أبيضها إلا من أيامٍ قليلةٍ مع أن لها في المسودة مدة طويلة، وقد ذكرت فيها عن شيخنا أنه أشهدني على نفسه أنه بريءٌ من كل من انتسب إليه وخالف الشريعة المحمدية.

ومن وقف على هذه الرسالة وكان من أهل الإنصاف رجع عن إنكاره لجميل صفاته وآثاره، وعدل عن ركوب طريق الاعتساف، فإن راكب التعاسف على خطرٍ سيما في حق قوم على قلوبهم غير الحق ما خطر، وقد قلت في الجواب الشافي واللباب الكافي:

والـــزمْ شريعة الحبيب المقتفي مَـــنْ حَـــادَ عنها أحرمًا وأجرما

فإنها حقيقةٌ بِلاَ امترَا ... ومن يكن أنكر هذا ظلما
وفارق بينهما فقصده ... التعريف فاعرفْ حقها وعظما
ومن يخالف فعله مأمورها ... فذلك الزنديقُ حيث وهما
فاحذرْ عَلَى دِيْنِكَ منه إنه ... كالسم يبدي في المقالِ الدسما

وقلت في مطلع قصيدة أرسلتها لبعض الإخوان:

إنَّ الشريعةَ مركزُ الأسرارِ ... فالزمْ حِمَاهَا تُحْظَ بالأنوار
وكَذَا الطريقة إن عكفت بحالهَا ... جليت عليك عرائس الأبكار
وهما لآثارِ الحقيقة يدنيَا ... ن فتى صَفَا عَنْ سَائِرِ الأكدار
مَنْ يَدَّعِي أن الحقيقةَ خالفت ... نص الشَّريعةِ فهو حشورُ النَّار
لكن هما متلازمان فلا تمل ... عن واحدٍ باللوم من نكار
واحفظْ على أدبِ الطريقة لا تحدْ ... عنها تعد إذًا مِن الأخيار

وكان الشيخ علي الكازواني ﷺ يقول: الطريق إلى الله كمال الشهود ولزوم الحدود.

وكان يقول: من ادَّعى كمال الطريقة بغير آداب الشريعة فلا برهان له، ومن ادَّعى وجود الحقيقة بغير كمال الطريقة فلا برهان له.

وقال سيدي أحمد بن عطاء الله الإسكندري ﷺ في كتابه: «**تاج العروس**» في معنى قوله ﷺ: «**العلماء ورثة الأنبياء**»(١).

المراد بالعلم في هذه المواطن كلها العلم النافع، القاهر للهوى، القامع للنفس، وذلك متعين بالضرورة؛ لأن كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ أجل من أن يُحمل على غير هذا، والعلم النافع هو الذي يُستعان به على طاعة الله، ويلزم الخشية من الله تعالى، والوقوف على حدود الله تعالى، وهو علم المعرفة بالله ولكن من استرسل مع إطلاق التوحيد ولم يتقيَّد بظواهر الشريعة فقد قذف به في بحر الزندقة، ولكن الشأن أن تكون بالحقيقة مؤيدًا

---

(١) رواه أبو داود (٣/٣١٧)، والترمذي (٥/٤٨)، وابن ماجه (١/٨١).

بالشريعة مقيدًا، وكذلك المحقق فلا منطلقًا مع الحقيقة ولا واقفًا مع ظاهر إسناد الشريعة، وكان بين ذلك قوامًا، فإن الوقوف مع ظاهر الإسناد شركٌ، والانطلاق مع الحقيقة من غير تقييدٍ بالشريعة تعطيلٌ، ومقام الهداية فيما بين ذلك.

وقال شيخنا الشيخ عبد الغني حفظه الله تعالى في كتابه: «**نخبة المسألة شرح التحفة المرسلة**» بعدما ذكر عبارة الجيلي ﷺ، في أن مطالعة كتب الحقيقة مع إضافة فضلة سلوك واجتهاد توصل إلى درجة الكمال، فانظر إلى قوله:

فمن أضاف بعد ذلك إلى علمه فضلة سلوك واجتهاد صار من الكمَّل، ومن وقف مع علمه صار من العارفين، فإن المفهوم منه أن من خالف الشريعة و لم يتقيَّد بأحكامها لا يصير من الكاملين بالطريق الأولى، خصوصًا من اعتقد أن الشريعة أحكامها ليست بلازمة عليه؛ لأنه عارف، وإنما ذلك لازم في حق الجاهلين، كما هو اعتقاد الزنادقة الملحدين قاتلهم الله.

وأما من تأدَّب بآداب الشريعة ظاهرًا وباطنًا، وكان اعتقاده حسنًا على وجه السنة، ولكنه لم يسلك طريق أهل الورع والزهد، فإنه يصير عارفًا من غير ذوقٍ وكشفٍ وشهودٍ، ومن جاهد في نفسه المجاهدة الشرعية الخالية عن البدعة لا بدَّ أن يذوق ما ذاق الرجال، ويتحقق بمشاهدة حضرة ذي الجلال.

وقال الشيخ أحمد زروق رحمه الله تعالى في كتابه: «قواعد الطريقة في الجمع بين الشريعة والحقيقة»: «قاعدة أصل كل أصلٍ من علوم الدنيا والآخرة مأخوذٌ من الكتاب والسُّنة، مدحًا للممدوح، وذمًّا للمذموم، ووصفًا للمأمور به، ثم للناس في أخذها ثلاثة مسالك:

أولها: قومٌ تعلقوا بالظاهر مع قطع النظر عن المعنى جملةً، وهؤلاء أهل الجمود من الظاهرية لا عبرة بهم.

الثاني: قومٌ نظروا لنفس المعنى جمعًا بين الحقائق، فتأولوا ما يتأول، وعولوا على ما يعول، وهؤلاء أهل التحقيق من أصحاب المعاني والفقهاء.

الثالـــث: قـــومٌ أثبتوا المعاني وحققوا المباني، وأخذوا الإشارة من ظاهر اللفظ وباطن المعنى، وهمْ الصوفية المحققون والأئمة المدققون، لا الباطنية الذين حملوا الكل على الإشارة، فهـــم لم يثبـــتوا معنى ولا عبارة، فخرجوا عن الملة ورفضوا الدين كله، نسأل الله العافين بمَنّه».

وهـــؤلاء الفـــرقة ما ضلوا إلاّ من عدم اعتنائهم بسلوك طريق الله وضبطهم لأصوله، فـــإنهم لو سلكوا وصلوا إلى عين اليقين، وإذا وصولها ذاقوا، ومن ذاق أدرك الأمر على ما هو عليه، ومن أدرك ثبت، وما رجع عما وصل إليه.

قـــال أبـــو ســـليمان الداراني قدَّس الله سرَّه[١]: «ما حرموا الوصول إلا بتضييعهم الأصول، ولو وصلوا ما رجعوا»[٢].

وأمـــا من أخذ كلام أهل الذوق الذين بذلوا في تحريره الجهد والطوق، وفهمه بعقله القاصـــر، واستعمل فيه فكره الفاتر، ضلَّ عن سواء السبيل، فإن هذا العلم الباطني كشف ســـره أمر وجداني، ومقدمة الوصول إليه العمل بالكتاب والسُّنة، وأحكام الوصول حتى يُفاض عليه من عين المنَّة.

قال شيخنا المتقدِّم[٣] نفعنا الله به في شرح العينية الجيلية ثم قال ﷺ:

«وثم أصول في الطريق إلخ: أي لا بدَّ هناك من أصولٍ يبنى عليها طريق الله تعالى عند أهله، وهي ذرائع ووسائل إلى النجاة من مهالك هذا الطريق، وكل من سلك بغير هذه الأصول ضلَّ وغوى، وكفر وزاغ، ووقع في البعد والطرد عن جناب الحق تعالى، وهلك

---

(١) هو العالم الفاضل الشيخ الجليل أبو سليمان عبد الرحمن بن عطية الداراني ﷺ وداريا قرية من قرى دمشق من بني عبس، وكان كبير الشأن في علوم الحقائق والورع، مات سنة خمس عشرة ومائتين، وانظر: الروضة الريَّا في أخبار داريَّا (بتحقيقنا).

(٢) ذكره الشيخ الشرقاوي في شرح الحكم الكردية (ص١١٦) بتحقيقنا، وفيه: فمن لم يتخلق لم يتحقق، وعلامة من صح وصوله: الخروج عن الطبع، والأدب مع الشرع، واتِّباعه حيث سلك، والشفاء الشافي والدواء الكافي لهذا الداء العضال العلم، بشرط التوفيق، فإذا اجتمعا فلا حائل بينك وبين التحقيق. فافهم ترشد انتهى.

(٣) هو سيدي عبد الغني النابلسي.

هلاك الأبد ما لم يساعده الجذب الإلهي، وتأخذ بيده عناية ربَّانية، وذلك نادرٌ في بعض الأشخاص في بعض الأزمان، ومثال ذلك مثل من جاع وعطش ولم يستعمل المأكل والمشرب، وطلب من الله تعالى أن يشبعه ويرويه من غير ذلك، فإن ذلك محال بحسب العادة الجارية لله تعالى في خلقه، وإن كان ذلك قد يحصل لبعض المعتنين به على طريقة التكريم له، ولكنه نادر والنادر لا حكم له، ثم هذه المذكورة التي لا بدَّ منها هي معرفة الأحكام الاعتقادية التي ذكرها علماء الرسوم استنباطًا من كتاب الله تعالى وسنة رسول ﷺ.

والأحكام العلمية الشرعية كلها عبادات ومعاملات؛ لاحتياج السالك إليها في معاملته مع الحق سبحانه وتعالى ومع خلقه، ثم استعمال ذلك كله في وقته المشروع عمله فيه من غير تأخيرٍ، وانتقاد الخواطر بعد معرفتها ومعرفة أنواعها، وهي أصل عظيم في طريق الله تعالى، وبيان انتقادها إنما يكون بعرضها على القانون الشرعي، فما قبله منها الشرع فهو مقبولٌ، وما رده فهو مردودٌ، ومن لا يعرف الشرع كله كيف يعرف الخواطر.

ولا بدَّ من معرفة الأخلاق الحسنة كالتقوى والزهد والورع ونحو ذلك واستعمالها، ومعرفة الأخلاق السيئة كالحسد والحرص والرياء ونحوها واجتنابها، ثم الدوام على ذلك من غير تحولٍ عنه، ومطالعة مواجيد العارفين من أهل الكمال، والاقتباس من أنوارهم، والمشي على طريقتهم مع محبتهم، وتحسين الظن بهم وبكلامهم نثرًا ونظمًا، وإساءة الظن بنفسه إذا لم يفهم شيئًا من مواجيدهم الإيمانية لكمالهم ونقصانه، والله يهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيمٍ).

وقال سيدي علي بن علوان ﷺ في كتابه المُسمَّى بـ «**مصباح الهداية ومفتاح الولاية**»[1]:

---

(١) المصنف هو سيدي علي بن عطية الهيتي، صاحب: نسمات الأسحار في كرامات الأولياء الأخيار (طبع بتحقيقنا)، وكتاب مصباح الهداية (مخطوط يسر الله تحقيقه) وموضوعه: الفقه الشافعي بروح الحقيقة، ومقاصد الشريعة.

وليرغب: (أي العالم) التلامذة في علم السلوك والطريقة بعد ضبط الشريعة، وإلا فالحقيقة بدون الشريعة زندقة، شاهدنا ذلك وخبرناه، بل المرشد الصادق أول ما يندب: (أي المريدين) إلى أحكام الشرع وضبطه، وتطهير النفس، وتصفية القلب وصقله بدواب الذِّكر والمجاهدة، فإذا تجلَّت الحقيقة فيه بعد ذلك كان نورًا على نورٍ، وإن لم يفتح له في الحقيقة فهو على ساحل السلامة في بر الشريعة ورياض الطريقة، والمتحقق قبل الشرع وحفظه قولاً وفعلاً هو إلى الزندقة أقرب، إلا أن يكون مجذوبًا جذبة ربَّانية، فيصير حينئذ في طورٍ لا يعرفه إلا من شهده، ولربما برز على ظاهره ما هو مخالف للشريعة، وهو محقٌّ من حيث الحقيقة.

وشاهد ذلك قصة الخضر مع موسى عليهما السلام، كما تضمنها الكتاب العزيز والسُّنة، ولكن ها هنا مزلة الأقدام وموطن الدعاوي، والغلط في الحديث النبوي الذي رواه الشيخان: «**المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور وضح، ومن ادَّعى دعوى كاذبة يُشكر بها لم يزده الله عز وجل إلا قلة**»[1]. رواه مسلم.

أقول: ومما أدركته ذوقًا[2] في نفسي أني إذا نمت على غير طهارةٍ أرى نفسي في تعبٍ وعناءٍ، وأماكن خرِبة، وأمورٍ مكدرة، وإذا نمت على الهيئة المسنونة أرى نفسي في بسطٍ وسرورٍ ومحلات نزيهة، حتى أني إذا عجزت عن الوضوء لقلة نعاس أو شدة برد أتيمم، وإن تركته ونمت فكذلك.

وكثيرًا ما يتفق لي إذا احتجت اغتسالاً، ونمت قبله على غير طهارةٍ أو تيمم رؤية أمور مهولة تزعجني وربما استفقت منها، ومن ذلك أني أجد عندي نشاطًا ما دمت على

(١) رواه البخاري (٢٠٠١/٥)، ومسلم (١٦٧/٣)، وأبو داود (٢٩٩/٤)، والنسائي (٢٩٢/٥).

(٢) قال الشيخ العطار: الذوق هو أول مبادئ التجلِّي المؤدي إلى الشرب؛ لأنه إذا كان نفسين فهو الشرب، والوجدان ما يحس به بالباطن كالجوع مثلاً.

واصطلاحًا: ما يجدهُ العارف في قلبه من التجليَّات الإلهية، فكما أنَّ مَنْ أحسَّ بالجوع باطنًا لا يتردد فيه، ولا يكون لأحدٍ معه، دخل في هذا الإحساس الباطني الخاص، كذلك مَنْ وجد الحق تعالى يكون بهذه الكيفية.

طهارةٍ، فإذا أحدثت و لم أتوضأ أجد في باطني ضيقًا وقبضًا، وكذلك إذا فاتني قيام ليلة أجد تغيرًا في باطني ذلك اليوم، ولا أعلم له سببًا إلا عدم القيام مع أنه لا صنع لي فيه.

وقد وقع لعالم الزهاد وسلطانهم أنه حزن لفواته القيام ليلةً، فنُودي في سرِّه: كن بنا إن أنمناك نمْ وإن أقمناك قمْ، وعند أرباب المقامات خلق الحزن على فوات الطاعات من جملة النعم؛ لئلا تركن النفس إلى البطلات.

ومما أشاهده في نفسي إذا مرَّ عليَّ يوم وكان الاشتغال فيه بالله أكثر من الغفلة عنه حصول انفساح وانشراح قلبي لا يعبر عنه لساني؛ لأنه أمرٌ وجدانيٌّ، ويتفق لي إذا غلبني النوم قبل صلاة العشاء، وهذا الوقت يُكره فيه النوم، فأحس بشيءٍ لينٍ يضرب في وجهي فاستفيق من ذلك، وأعد مثل هذا وما شاكله من نِعَم الله على عبده.

ومما أشاهد تأثيره في القلب المطعم الحرام، فإنه يحدث ظلمة وغشاوة على القلب لا تزول إلا بمجاهدةٍ من حبس النفس، وإشغال القلب بالذكر، وإيقاد نار الخوف من الله فيه، والشوق الذي يصفيه.

وأكثر أهل الطريق إذا أحسوا بثقله في قلوبهم يستدعون القيء، كما فعل الصدِّيق ﷺ، وربما ادَّعى هؤلاء الرعاع أن قلوبهم كالبحر لا يعكرها الدلاء، مع نص أهل الطريق أن ظلمه الحرام تؤثر في قلب كل أحد على حسب مقامه حتى القطب وفعل الصديق من أقطع حجة وأرفع محجة.

ومما نشاهده في نفوسنا إذا وقعت منا هفوة كغيبة أو أذية أحد ولو بالقلب اختلاف سير القلب وانقباضه، وجموده وضيقه، حتى كأنه بين جبلين انطبقا عليه، وكلما عظمت المعصية عظم الكرب واشتد البلاء، هذا مع سرعة المبادرة؛ للتوبة والاستغفار والاعتراف بالجرم وعدم الإصرار، لكن هذا من لطف الله بعبده؛ حتى يتنبَّه ويرجع عن المعاصي، ولا يُغتر بأناس أماتت الذنوب قلوبهم واستولت عليها، فلا يحسون بقسوة، ولا يدركون أثر هفوة.

جاء في الحديث الشريف: «**إنَّ العبدَ إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإن هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو على قلبه، وهو**

الرَّان الذي ذكر الله تعالى: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]»[١]. رواه أحمد والترمذي والنسائي وغيرهم عن أبي هريرة.

ومما نشاهده إنا إذا أقمنا الصلاة بما ينبغي لها نجد لها في القلب نورًا عظيمًا، حتى نرى الالتفات في الصلاة يضعف تأثيرها؛ لما في الحديث: «**إيَّاكم والالتفات في الصلاة فإنه هلكة**»[٢].

وفيه أيضًا: «**ما التفت عبدٌ قط في صلاته إلا قال له ربه: أين تلتفت يا ابن آدم، أنا خيرٌ لك مما تلتفت إليه**»[٣].

وفي رواية: «**لا تلتفتوا في صلاتكم فإنه لا صلاة لملتفت**»[٤] إلى غير ذلك.

والحاصل أن كل عملٍ من أعمال الشريعة المُطهَّرة يجد العامل به نورًا وسرورًا، ويورثه قربةً وحضورًا، ويكشف الحق له به عن قبله ستورًا، ومن أخلَّ بآدابها و لم يعتصم بأسبابها وادَّعى وصولاً فهو صادقٌ لكن إلى سقر، أو حصولاً فكذلك لكن على صفات البقر، ولا يحتاج الموفق بعد العيان والوجدان إلى دليلٍ ظاهرٍ أو برهانٍ، فليس بعد العشية من عرارٍ، ولا بعد عبادان (قرية) قرار، فإن بركة عوائد التمسك بالشريعة الغراء أعظم بركة من نخلة مريم، وطيب فوائدها السنية أعطر من عطره نشم.

وإيَّاك أن تفرق جمع قلبك على الحق هؤلاء الفرقة الأسافل، وتمسَّك بحبل الله المتين، والزمْ حما الفرائض والنوافل، فما بعد هدى المصطفى وشريعته المستنيرة حيرة، ولا بعد سيرته العلية وسيرة العمرين والأصحاب سيرة، لكن الأمر كما قال الله في كتابه الذي هدى به من اهتدى: **﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِياً مُّرْشِداً﴾** [الكهف:١٧].

---

(١) رواه الترمذي (٥/٤٣٤)، والنسائي (٦/٥٠٩).

(٢) رواه الترمذي (٢/٤٨٤)، والطبراني في الأوسط (٦/١٢٤)، وأبو يعلى في مسنده (٦/٣٠٨).

(٣) ذكره المناوي في فيض القدير (٥/٤٢٦).

(٤) رواه أحمد في مسنده (٦/٤٤٢)، وابن أبي شيبة (١/٣٩٥)، والطبراني في الأوسط (٢/٢٩٤).

وقال سيدي علي بن علوان رحمه الله في شرح التائية الفارضية(١): ومن زعم أنه وصل إلى مقام أسقط عنه الخطاب بالفرائض فهو مدعٍ مبتدع يخاف عليه الكفر، فإن أكمل الكمَّل سيد الأولين والآخرين ﷺ، ومع ذلك لم يزل قائمًا بوظائف العبودية فرضًا وسنةً حتى لقي الله ﷻ.

وكان في مرض موته يعضد: أي يعان فينطلق إلى المسجد ورجلاه يخطان في الأرض من شدة الضعف؛ محافظةً على الصلاة في الجماعة، وكذلك أكابر الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام لم يُنقل أن أحدًا أخلَّ بأدبٍ من آداب الشريعة حتى لقي الله ﷻ.

ولقد سلك هذا المسلك أكابر العارفين حتى أنه نقل عن الشبلي أنه في مرض موته وضَّأه خادمه فنسي أن يخلل لحيته، فأشار إليه يأمره بتخليلها.

ونقل أيضًا عن غيره أنه حضره ملك الموت وقد حضرت صلاة المغرب، فكشف له عن عزرائيل فقال له: أنت مأمورٌ وأنا مأمورٌ، تأخَّر إلى زاوية البيت لأصلي المغرب، فأمهله بإذن الله تعالى حتى صلَّى المغرب ثم عاد بعد الفراغ من صلاته فقال له: فاقبض روحي، فقبضها.

ولقد شاهدنا في زماننا وبلغنا عما قبل زماننا أيضًا أن أناسًا زيَّن لهم الشيطان أعمالهم فأهملوا الطاعات، زعمًا منهم أنهم وصلوا إلى الحق حتى أنهم ربما أضاعوا الفرائض، وسلكوا مسلك الإباحة، وذلك مكرٌ واستدراجٌ والعياذ بالله.

ولقد قال الغزالي في بعض كتبه الأُصولية: لو زعم زاعم أن بينه وبين الله حالة أسقطت عنه الصلاة، وأحلَّت له شرب الخمر، وأكل مال السلطان، كما زعمه بعض الصوفية، فلا شكَّ في وجوب قتله، وقتل مثله أفضل من قتل مائة كافر؛ لأن ضرره أكثر، نعم بعض المجاذيب ربما يشاهد منه الإخلال بظاهر الشرع في بادئ الرأي، كترك الصلاة ونحوه، وهم على قسمين: مدَّعي الجذب ومتحقق فيه، فمن كان مجذوبًا محققًا في جذبه، ولاحت منه علامات الصدق على صفحات وجهه، فيسلم له حاله ولا يقتدي به، ويحسن

(١) تحت قيد التحقيق لدينا.

الظن به؛ لأن علم الله واسع، فلعله يكون غائبًا عن إحساسه فيجري عليه أحكام من زال عقله، والله أعلم.

وقال سيدي عبد القادر الجيلاني ﷺ[١]: كل حقيقةٍ ردت شريعة فهي زندقة، وكل ظاهرٍ يخالف باطنًا فهو باطلٌ.

وقال في كتابه «مفتاح الغيب»[٢]: لا يخلو أمرك من حالين: إما أن تكون غائبًا عن القرب من الله تعالى، أو قريبًا منه واصلاً إليه، فإن كنت غائبًا عن القرب من الله تعالى فما قعودك وتوانيك عن الحظ الأوفر والنعيم والعز الدائم، والكفاية الكبرى، والسلامة، والغنى، والدلال في الدنيا والآخرة.

وإن كنت من المقرَّبين الواصلين إلى الله ﷻ، ممن أدركتهم العناية، وشملتهم الرعاية، وجذبتهم المحبَّة، ونالتهم الرأفة والرحمة، فأحسن الأدب، ولا تغتر بما أنت فيه وتقصر في الخدمة، ولا تخلد إلى الرعونة الأصلية من الظلم والجهل.

وقد قال تعالى: ﴿**وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً**﴾ [الأحزاب:٧٢].

وقال سيدي إبراهيم الدسوقي ﷺ: إيَّاكم والدعاوي التي لا يشهد لها كتاب ولا سنة؛ فإنها سبب طردكم عن حضرة ربكم.

وكان يقول: طريقنا هذا مضبوطٌ بالكتاب والسُّنة، فمن أحدث فيه ما ليس في الكتاب والسُّنة فليس هو منا ولا من إخواننا، ونحن بريئون منه في الدنيا والآخرة، ولو

(١) هو السيد الجليل الحسيب النسيب أبو محمد عبد القادر بن أبي صالح موسى بن عبد الله بن يحيى الزاهد بن محمد بن داود بن موسى بن عبد الله بن موسى الجون بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى، ابن أمير المؤمنين الحسن السبط، ابن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

وُلد سنة سبعين وأربعمائة، وتُوفي سنة إحدى وستين وخمسمائة، وله من العمر إحدى وتسعون سنة.

وانظر في ترجمته: طبقات الشعراني الكبرى (١٠٨/١)، ونور الأبصار للصبان (٢٢٤)، والنجوم الزاهرة (٣٧١/٥)، والشذرات (١٩٨/٤)، وسر الأسرار ،وفتوح الغيب، وقلائد الجواهر، ومعدن الأسرار، وخلاصة المفاخر، والسيف الرباني، والروض الزاهر، جميعهم بتحقيقنا.

(٢) طبع مع سر الأسرار للشيخ باسم: فتوح الغيب (بتحقيقنا).

نتسب إلينا بدعواه.

وأنشد سيدي محيي الدين ﷺ قوله:

لاَ تَقــتَدِي بالذي زَالَتْ شريعته   عــنه ولَوْ جَاءَ بالأنباءِ عَن الله

وقال في مواقع النجوم باب علامات من تحقق بأعمال أعضائه الشرعية(١):

واعلم يا بني أنه من ادَّعى مراعاة التكليفات المتوجهة عليه شرعًا في بصره علامته الغض عن نظر المحرمات، والإطراق وقاية من النظرة الأولى المعفو عنها، وكل عملٍ توجَّه عليه في بصره شرعًا، ومن لم يشاهد من أحواله مثل هذا فدعواه كاذبة، ومن ادَّعى مراعاة التكليف المتوجه عليه في سمعه علامته ما قال الله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ**﴾ [الزمر:١٨]، وسماع العلم ومواظبة مجالس الذكر والعمل بكل خيرٍ يسمعه.

وكل من ادَّعى مراعاة هذا المقام لم يزل يحن إلى الأوطان والحداة، وعلامات صدق حنينه إليها العمل بما يسمع على قدر الاستطاعة، فمن نُودي من جهةٍ قد تعشق لها وكلف بها؛ لأنها منـــزلة حبيبه، حنَّ إلى ذلك النداء، فمن ناداه حبيبه من جهاتٍ حنَّ إلى تلك الجهات، ولم يرَ بها بدلاً، فمن ناداه الحق من الخلوة حنَّ إليها، فاستوحش من المخلوقات، وآثرها على جميع المقامات، ومن ناداه من الحكم يباشر الناس ولا يباشرونه، ومن ناداه من التأثيرات المرقية يباشره الناس حتى يؤذونه.

وكل صاحب مقام فرح بمقامه مسرور به، يدعو نفسه وغيره إليه.

قال تعالى: ﴿**كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ**﴾ [المؤمنون:٥٣]، بخلاف الكامل فإنه لا يحن إلى مقام أصلاً على الاختصاص، ولهذا لا يقتصر على مقامٍ، وإنما هو صاحب الوقت، ورئيسه جامع الحكم، لا يدعو غيره أبدًا إلا من حيث يرى قوته تميل إليه، فمن هناك يدعوه إليه، إما بالموافقة أو بالمخالفة على حسب ما يرى أنه الأصلح له، ولا يدعو نفسه

---

(١) انظر: مواقع النجوم للشيخ الأكبر (ص٥٢)، وشرح الحكم الكردية للشرقاوي (ص١١٥)، بتحقيقنا.

إلا من حيث حكمة الوقت.

ومن ادَّعى مراعاة التكليفات المتوجهة عليه في لسانه علامته قلة الكلام، إلا فيما يفض عليه من نصحٍ وتبليغٍ ورشدٍ وغيره، ودوام الذِّكر واسترساله على التلاوة إذا كان من أهل القرآن، وصدقه في الحديث، وخجله إن كان من أهل الإلقاء فيما يخبر به عن الحق، وبطؤه في الجواب عند المسألة إذا سألها، وإذا سأل ألا يسأل إلا فيما له فيه فائدة سعادته وأشباه ذلك.

ومن ادَّعى مراعاة التكليفات المتوجهه عليه في يده علامته ألا يبطش بها في محرمٍ، من لمس امرأة لا تحل له، أو قتل إنسان أو لطمه أو سرقة، أو لمس ذكره بيمينه عند البول، وألا يستنجي بها، وألا يدخلها في إناءٍ عند القيام من النوم أعني في وضوئه وأشباه ذلك.

ومن ادَّعى مراعات التكليفات المتوجهة عليه في بطنه علامته الورع في الاكتساب، والبحث عن الكسب، وإذا أكل ألا يمتلئ من الطعام ولا من الشراب؛ حذرًا من كسل الجوارح عن الطاعة، وألا يثار بقوته.

ورد: «**فما ملئ وعاء شر من بطنٍ ملئ بالحلال**»(١).

ومن ادَّعى مراعاة التكليفات المتوجهة عليه في فرجه، فعلامته الحفظ من التحرك إلى غير أهله من إحرار وإماء، وهو أمرٌ يقع في قلب العبد المعتني به على حسب مقامه، فيُسمَّى ذلك الأمر في حق شخصٍ خوفًا، وفي حق شخصٍ قبضًا، وفي حق شخصٍ هيبةً، وفي حق شخصٍ جلالاً، هذا مع الحضور، فإن كان غائبًا كان في حقِّه إما سكرًا أو محوًا أو محقًا أو فناءً على اختلاف المقامات.

وهذه كلها على تفاصيلها إذا تحقق شخص ما بأحدهما منعته قطعًا من أن يتعدَّى حدود سيده ومولاه، وألا يراه حيث نهاه، ولا يفقده حيث أمره، فإذا أراد سبحانه إنفاذ قوله: ﴿**وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَّقْدُوراً**﴾ [الأحزاب:٣٨] على عموم الأفعال في العبد بإيقاع زلة ما منه قبض عنه ذلك المقام بغفلةٍ تحصل مكانه، حتى ينفذ فيه الأمر، ويجري

(١) رواه النسائي (١٧٨/٤) بنحوه.

عليه القدر بما أراده الحكيم.

قيل لأبي يزيد: أيزني العارف؟ فقال: ﴿**وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَّقْدُوراً**﴾، ثم يرد إلى مقامه إن كان من أهل العناية والوصول، فتكون توبته من ذلك على قدر مقامه، فيرجى أن يكون في قوة تلك التوبة وعلو منصبها، أن يجري عليه وقت الغفلة حتى تكون له، وكأنه ما خسر شيئًا وما انتقل، وكتوبة ماعز التي قال فيها رسول الله ﷺ: «**لَوْ قُسِّمَتْ بينَ أَهْلِ السَّمَوَات والأَرْضِ لوسعتهم**»(١).

ومن ادَّعى مراعاة التكليفات المتوجهة عليه في رجله علامته السعي في قضاء حوائج المسلمين والإخوان، والسعي على العبادة والعيال، وكثرة الخطا إلى المساجد، والنــزول في الحرب، والثبوت يوم الزحف وغير ذلك.

ومن ادَّعى مراعات التكليفات المتوجهة عليه في قلبه، علامته الانتباه واليقظة، والفكر، والهيبة، وترك الحسد والغل والتنغيص بالاجتماع، إن كان من أهل الأحوال الموقوفة على الخلوة، وإن كان في خيرٍ، ودوام الحزن على قدر مقام المحزون، والتوكل والتفويض والتسليم والفرح بموارد القضاء، والمراقبة والتنــزه في العالم، وفعل الله فيه وفيهم وأشباه ذلك مما لا يحصى كثرةً.

وكل فعلٍ حسن للجوارح رأسه انتباه القلب، وهذه الأفعال كلها ما بين مبادئ الإرادة والسلوك، وليس لها زوال عن شخصٍ حتى يموت، فإن عدمها السالك المريد في أحواله وطريقه، فهو مخدوعٌ.

وأما الواصل فلا يتصور منه ترك لها أصلاً، وإن ادَّعى الوصول وفارق المعاملات استصحابًا فدعواه كاذبة، ولو فتح له في عالم الكونين وسر العالم فمكرٌ واستدراجٌ، فلا سبيل إلى الوصول إلى نهايةٍ صحيحةٍ عن الثبوت الإبليسي خالصة عن الغرض النفسي ما لم ينــزل المريد أولاً عن رعونة النفس وكردورة البشرية.

(١) رواه البخاري (٦/٢٥٠٠)، ومسلم (٣/١٣٢١)، وأبو داود (٢/٥٥٦)، والترمذي (٤/٤٢)، والنسائي (٤/٦٣)، بنحوه.

وعلامة المدَّعي في الوصول رجوعه إلى رعونة النفس وأغراضها، ولهذا قال أبو سليمان الداراني من رؤساء المشايخ: «لو وصلوا ما رجعوا، وإنما حُرِّموا الوصول لتضييعهم الأصول، فمن لم يتخلَّق لم يتحقَّق، وعلامة من صحَّ وصوله الخروج عن الطبع، والأدب مع الشرع، واتِّباعه حيث سلك، والشفاء الشافي والدواء الكافي لهذا الداء العضال العلم بشرط التوفيق، فإذا اجتمعا فلا حائل بينك وبين التحقيق، فافهم تُرشد إن شاء الله تعالى».

فتأمَّل يا أخي هذا الباب؛ فإنه لباب اللباب، وقد ذكرته لك بتمامه لتنشق عرف زهر أكمامه، وتعرف الحق من الباطل فتجتنبه ولا تماطل، فإن للحق صولة ودولة وله على النفوس جولة، والباطل يفور ويغور بمن قاربه وحام حوله، سيما كلام أهل البدع فإنه كسحابة صيف تنقشع، فكرر مطالعة هذا الباب، ولا تزغ عنه زوغان الثعلب، وتخلَّق به بعد التحقق تَغلب الأعداء ولن تُغلب.

ومن كلام سيدي أبي الحسن الشاذلي قدَّس الله سرَّه(١): «حصون القلب من الشر

---

(١) هو العالم بالله تعالى: سيدي أبو الحسن علي بن عبد الله بن عبد الجبَّار الشاذلي ﷺ، شيخ الطائفة العلية الشاذلية، وينتهي نسبه إلى سيدنا الحسن بن علي رضي الله عنهما، العَلَمْ المشهور، وشهرته بالولاية والصلاح تغني عن تعريفه، أُلفَ الكثير من الكتب في مناقبه، والتعريف بشيء من سيرته الزكية، ومن أجلّ تلك الكتب «**لطائف المنن**» للشيخ ابن عطاء ﷺ، و«**المفاخر**» للشيخ ابن عباد أثني عليه العلماء، وتعطير الأنفاس بمناقب أبي الحسن والمرسي أبي العباس للصعيدي الوفائي (بتحقيقنا)، وكان العز بن عبد السلام ﷺ يقول في كلامه: اسمعوا هذا الكلام الغريب القريب العهد بالله.
وكان العز بن عبد السلام ينكر على القوم حتى اجتمع به فصار واحدًا منهم، شَهِدَ له الشيخ أبو عبد الله بن النعمان بالقطبانية، وكان الشيخ ابن دقيق العيد يقول: ما رأيت أعرف بالله من الشيخ أبي الحسن الشاذلي.
ومن كلامه ﷺ: رأيت رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، ما حقيقة المتابعة؟ فقال: رؤية المتبوع عند كل شيءٍ، ومع كل شيءٍ، وفي كل شيءٍ، وقال: إذا عارض كشفك الكتاب والسنة فتمسك بالكتاب والسنة، ودعِ الكشف، وقل لنفسك: إن الله قد ضمن لي العصمة في الكتاب والسنة، و لم يضمنها لي في جانب الكشف والإلهام ولا المشاهدة.
مع أنهم أجمعوا على أنه لا ينبغي العمل بالكشف ولا الإلهام ولا المشاهدة، إلا بعد عرضه على الكتاب السنة، وقال: لا تشم رائحة الولاية وأنت غير زاهدٍ في الدنيا وأهلها، وقال: إنه يرد عليَّ الوارد فلا =

ربعة: ارتباط القلب مع الله، وبغض الدنيا، وألا تنظر بعينك إلى ما حرَّم الله، وألا تنتقل قدمك حيث لا ترجو ثواب الله».

وقال ﷺ: (مَنْ فارق المعاصي بظاهره ولزم حفظ جوارحه بمراعاة سره أتته الزوائد من ربه، ووكل به حارسًا يحرسه من عنده، وجمعه في سيره، وأخذ الله بيده خفضًا ورفعًا في جميع أموره). والزوائد زوائد العلم واليقين والمعرفة.

وقال ﷺ: (هل تدري ما علاج من انقطع عن المعاملات ولم يتحقق بحقائق المشاهدات؟ علاجه أربع: طرح النفس على الله طرحًا لا يصحبه الحول والقوة، والتسليم لأمر الله تسليمًا لا يصحبه الاختيار مع الله، هذان علاجان باطنان وظاهران ذم الجوارح

=

أقبله إلا بشاهدين عدلين، وهما الكتاب والسنة. وقال: قيل لي: يا عليُّ، ما على وجه الأرض مجلسٌ في الفقه أبهى من مجلس الشيخ عز الدين بن عبد السلام، وما على وجه الأرض مجلسٌ في علم الحديث أبهى من مجلس الشيخ عبد العظيم المنذري، وما على وجه الأرض مجلسٌ في الحقائق أبهى من مجلسك.

وقال: للقطب خمسة عشر كرامةً، فمن ادعاها أو شيء منها فليبرز: أن يُمَدَّ بمدد العصمة والخلافة والنيابة، ومدد حملة العرش العظيم، ويُكَشَف له عن حقيقة الذات وإحاطة الأسماء والصفات، ويُكرَم بكرامة الحُكَمْ، والفصل بين الوجودين، وانفصال الأول عن الأول، وما اتصل عنه، إلى منتهاه، وما ثبت فيه، وحكم ما قبل، وحكم من لا قبل له ولا بعد، وعلم البدء، وهو العلم المحيط بكل علمٍ وبكل معلومٍ بدا من السر الأول إلى منتهاه، ثم يعود إليه.

وقال: حقيقة القرب الغيبة عن القرب بالقرب؛ لعظم القرب.

وقال: التصوف تدريب النفس على العبودية، وردها لأحكام الربوبية.

وقال: الصوفي من يرى وجوده كالهباء في الهواء، غير موجودٍ ولا معدومٍ حسبما هو عليه في علم الله.

وقال: العلوم التي وقع الثناء عليها وإن جلَّت فهي ظلمةٌ في علوم ذوي التحقيق، وهم الذين غرقوا في تيار بحر الذات وغموض الصفات، فكانوا هناك بلا همٍّ، وهم الخاصة العليا، الذين شاركوا الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام في أحوالهم، فلهم فيها نصيبٌ على قدر إرثهم من موروثهم، قال النبي ﷺ: «**العلماء ورثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام**» رواه الترمذي (٥/٤٨)، أي يقومون مقامهم على سبيل العلم والحكمة، لا على سبيل التحقيق بالمقام، فإن مقامات الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام قد جلَّت أن يلمح حقائقها غيرهم.

وكلامه ﷺ في الحقائق وفي التمسك بالكتاب والسنة كثير جدًّا، راجعه في الكتب التي عرَّفت به، نفعنا الله به، آمين.

عن المخالفات، والقيام بحقوق الواجبات. ثم تقعد على بساط الذِّكر بالانقطاع إلى الله عن كل شيءٍ سواه بقوله: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾ [المزمل:٨]: أي انقطع إليه انقطاعًا).

وقال ﷺ: (أوصاني حبيبي: لا تنقل قدميك إلا حيث ترجو ثواب الله فيه، ولا تجلس إلا حيث تأمن غالبًا من معصية الله، ولا تصحب إلا من تستعين به على طاعة الله، ولا تصطفِ لنفسك إلا من تزداد به يقينًا وقليل ما هم).

وقال اليافعي رحمه الله في «نشر المحاسن» بعدما نقل عبارة الجنيد المتقدمة فيمن تكلموا بإسقاط الأعمال:

قلت: قوله: (تكلموا بإسقاط الأعمال) إن كان المراد سقوط التكاليف عنهم من الأوامر والنواهي بزعمهم فهذا زندقة، ومروق من الدين بالكلية، ولا يُعد صاحبه من المسلمين فضلاً عن أن يكون من الصوفية، وإن كان المراد مجرد النوافل بحيث اقتصروا على الفرائض وتركوا الفضائل، فهو نقصٌ عظيمٌ عند المحققين الأفاضل.

ومن المشهور أن الجنيد المذكور دخل عليه بعضهم وهو في سياق الموت محضور، فسلم عليه فأبطأ في ردِّ السلام وقال: اعذرني فإني كنت في وردي، وقيل: إنه ختم القرآن في حال نزعه وكان يوم جمعة، فقيل له: مثل هذه الساعة يا أبا القاسم؟ فقال: ومن أولى مني بذلك وقد آن أن تُطوى صحيفتي.

وقال أبو الخير الأقطع ﷺ: ما بلغ أحد إلى حالةٍ شريفةٍ إلا بملازمة الموافقة ومعانقة الأدب، وأداء الفرائض، وصحبة الصالحين.

وقال في مناقب الأبرار ومحاسن الأخيار: «وقال جعفر الخلدي: رأيت الجنيد في المنام بعد موته فقلت له: ما فعل الله بك؟ قال: طاحت تلك الإشارات، وغابت تلك العبارات، وفُنيت تلك العلوم، ونفدت تلك الرسوم، وما نفعنا إلا ركيعات كنا نركعها في الأسحار.

ثم قال: وقال يومًا لأصحابه: تدرون أين يذهب بكم وتدرون لِمَ خُلقتم وإلى ماذا

تصيرون؟ فاتقوا الله تعالى، واحفظوا ساعاتكم وأوقاتكم؛ فإنها زائلة عنكم غير راجعة إليكم، والحسرة في فوتها على الغفلة، فلو بذل أحدكم ما بذل لم يرد وقتًا، فأوصلوا أولادكم تجدوا منفعتها في دار الإقامة، ولا يشغلكم عن الله قليل الدنيا؛ فإن قليل الدنيا يشغل عن كثير الآخرة».

وقيل له: كيف الطريق إلى الله تعالى؟ فقال: اترك الدنيا وقد نلت، وخالف هواك وقد وصلت.

وقال: ما من أحدٍ طلب أمرًا بصدقٍ وجدَّ إلا أدركه، وإن لم يدرك الكل أدرك البعض.

وأنشد:

وإذا الأمـــــــور تنابحـــــــتْ   فالصِّـــدقُ أكـــرمها نتاجا
والصِّـــدقُ يُعْقَـــدُ فـــوقَ رَأْ   س خلـيفة بالصــدقِ تَاجا
والصِّـــدقُ يقـــدح زنـــده   فِـــي كـــلِّ نَاحِـيةٍ سِرَاجا

وقال أحمد بن الحواري ﷺ: من عمل بلا اتِّباع سنة فباطلٌ عمله.

وقال أبو حفص الحداد ﷺ: من لم يزن أفعاله وأقواله في كل وقتٍ بالكتاب والسُّنة، ولم يتهم خواطره فلا تعده من الرجال.

وقال أبو الحسن النوري ﷺ: مَنْ رأيته يدَّعي مع الله حالاً يخرجه عن حدِّ العلم الشرعي فلا تقربن منه.

وقال سيدي أبو المواهب الشاذلي ﷺ في كتاب «قوانين الإشراق»: «المهمل للفرائض طريدٌ، والقائم بأعبائها مريدٌ، والمتنفل عليها سالكٌ، والغاني عنها مع القيام بها مالكٌ، والباقي وصف مفيضها مدققٌ، والمصطلم بنوره في نوره محققٌ.

من أعانه على القيام بحقوق الواجبات فقد أتحف برفيع الدرجات، والإسلام استسلام، والإيمان أمان، والصلوات صلات، والصوم صون، والزكاة التزكية، والحج حجة، والنوافل

قربات بها تعلو الدرجات في الحياة وبعد الممات، إنما أمرك ونهاك لتسلم له أخراك»[١].

ومما يزيد هذه الطائفة ضلالاً ويُورثهم خبالاً، ويحملهم من الأوزار جبالاً، كونهم يتهجمون على تفسير السُّنة والكتاب بما هو خارجٌ عن دائرة الصواب، بل هو من وحي الشيطان الذي يُلقيه في قلوب أتباعه الذين قطعهم بسيف البعد لما وافقوه على انقطاعه بالرأي، يفسرون فيفشرون، وبغير علمٍ يتكلمون فيكلمون.

وفي الحديث: «**مَنْ قَالَ فِي القرآن برَأيِه فأصَابَ فَقَدْ أخطأ**»[٢].

وعنه ﷺ: «**مَنْ قَالَ فِي القرآن بغير عِلْمٍ فليتبوء مقعدَهُ مِنْ النَّارِ**»[٣].

وإذا سُئلوا عن معنى ظاهر اللفظ توقفوا في معناه، فكيف يدَّعون العثور على سرِّه ومغناه، والسبب الذي هوى بهم في هذه المهامة والمهالك عدم وقوفهم عند حدود السيد المالك، وجهلهم بما عليه الأمر من خطر المسالك، واشتغالهم بسفساف المقال دون الحال المنير للحوالك، نسأل الله تعالى أن يسلمنا وأحبابنا وإخواننا من ذلك.

وسيأتي زيادة بسط في الردِّ عليهم قريبًا في آخر الرسالة؛ لأنهم يقتحمون مناهل عزيزة المنال إلا لمقتف أثر صاحب الرسالة؛ إذ تفسير الكتاب والسُّنة يحتاج إلى علومٍ شتى وفيض من عين المنَّة، ومما استزلهم به الشيطان حتى أوقعهم في شبكة الخسران، ادعاؤهم أن الشيطان ليس له عليهم سبيل؛ إذ قلوبهم محروسة بشهود الجميل، ولو كان الادِّعاء صحيحًا كما قالوا لما زال قدمهم عن الشرع الشريف ومالوا، وغرهم بزخارفه وغدر، حتى لم يبقَ عندهم منه حذر، وهنا يتصرف فيهم كما يريد؛ لأنهم صاروا كالأرقاء له والعبيد، وكيف يركن من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان إلى أباطيل زخارف الشيطان بعد قول الله تعالى في كتابه القديم وخطابه العظيم: ﴿**إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ**

(١) انظر: قوانين حكم الإشراق (ص١٣٨) بتحقيقنا.

(٢) رواه أبو داود (٣/٣٢٠) بنحوه، والترمذي (٥/٢٠٠)، والطبراني في الأوسط (٥/٢٠٨)، وأبو يعلى في مسنده (٣/٩٠).

(٣) رواه الترمذي (٥/١٩٩)، والنسائي (٥/٣٠)، وأحمد في مسنده (١/٢٣٣).

عَدُواً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر:٦].

وقوله: **﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُواً مُّبِيناً﴾** [الإسراء:٥٣].

وقوله: **﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾** [يس:٦٠].

ولفرط عداوته لهذا النوع الإنساني لا يُولد مولود إلا ويمسَّه كما جاء في الحديث: «**مَا مِنْ بَنِي آدم مولود إلا يمسَّهُ الشَّيْطَان حِينَ يُولد فيستهل صَارِخًا مِنْ مَسِّ الشَّيْطَان غير مريم وابنها**»[1]. رواه البخاري عن أبي هريرة.

وفي رواية: «**كل بني آدم يمسَّهُ الشَّيطان يوم ولدته أمه إلا مريم وابنها**»[2]. رواه مسلم عن أبي هريرة.

وفي رواية: «**كل بني آدم يطعن الشيطان في جنبه حين يُولد غير عيسى بن مريم ذهب الشيطان يطعنه فطعن في الحجاب**»[3]. رواه البخاري عن أبي هريرة.

ومسه وطعنه إظهار للتسلط والعداوة إلا من عصمه الله تعالى منه، ومع هذا تخفى دسائسه على الكثير إلا من كشف له عنها العلي الكبير، فإنه يجري من ابن آدم مجرى الدم، وبهذا طم وسواسه وعم فأورث الغم، وهو حساسٌ لحاسٌ ففي الحديث: «**إِنَّ الشَّيطان حسَّاس لحاس فاحذروه على أنفسكم، مَنْ بَاتَ وفِي يَدِهِ ريح غمرٍ فأصَابه شيء فلا يلومنَّ إلا نفسه**»[4]. رواه الترمذي والحاكم عن أبي هريرة.

وإنه يلتقط القلب إذا غفل صاحبه عن الذِّكر، ففي الحديث:

«**إنَّ الشَّيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم، فإن ذكر الله تعالى خنس، وإن**

---

(١) رواه البخاري (١٦٥٥/٤)، وأبو يعلى في مسنده (٣٦٧/١٠)، وابن عدي (٤٠٠/٦).

(٢) رواه البخاري (١٦٥٥/٤)، ومسلم (١٨٣٨/٤)، وابن حبان (١٢٨/١٤).

(٣) رواه البيهقي في الكبرى (٢٥٧/٦)، والطبري (٢٤٠/٣)، وابن عدي في الكامل (٣٥٦/٦).

(٤) رواه الترمذي (٢٨٩/٤)، والحاكم في المستدرك (١٥٢/٤).

نسي الله التقم قلبه»[١]. رواه ابن أبي الدنيا والبيهقي عن أنس.

وإنه يبات على الخياشيم ففي الحديث: «**إذا استيقظ أحدكم من منامه فتوضَّأ فليستنثر ثلاث مرات، فإن الشيطان يبات على خياشيمه**»[٢]. رواه البخاري ومسلم والنسائي عن أبي هريرة.

وإنه يدخل مع التثاؤب ففي الحديث: «**إذا تثاءب أحدُكُمْ فليضع يده على فِيه؛ فإن الشيطان يدخل مع التثاؤب**»[٣]. رواه الشيخان وأحمد وأبو داود عن أبي سعيد.

وعنه ﷺ: «**إذا تثاءب أحدكم فليضع يده على فيه ولا يعوي؛ فإن الشيطان يضحك منه**»[٤]. رواه ابن ماجه عن أبي هريرة.

وإنه ذئب الإنسان لما في الحديث: «**إنَّ الشَّيطان ذئب الإنسان، كذئب الغنم يأخذ القاصية والناصية، فإياكم والشعاب وعليكم بالجماعة والعامة والمسجد**»[٥]. رواه أحمد عن معاذ.

وإنه يلبس الثوب إذا لم يُطوَ ففي الحديث: «**اطووا ثِيَابكم ترجع إليها أرواحها، فإن الشيطان إذا وجد ثوبًا مطويًّا لم يلبسه، وإذا وجده منشورًا لبسه**»[٦]. رواه الطيالسي عن جابر.

وفي رواية: «**الشياطين يستمتعون بثيابكم، فإذا نزع أحدكم ثوبه فليطوِه حتى**

---

(١) رواه أبو يعلى في مسنده (٢٧٨/٦)، والديلمي في الفردوس (٣٧٩/٢).

(٢) رواه البخاري (١١٩٩/٣)، والنسائي (٨٣/١)، والبيهقي في الكبرى (٤٩/١).

(٣) رواه أبو داود (٣٠٦/٤)، والترمذي (٨٦/٥)، وابن ماجه (٣١٠/١)، وأحمد (٢٤٢/٢).

(٤) رواه البخاري (١١٩٧/٣) بنحوه، وابن ماجه (٣١٠/١).

(٥) رواه أحمد (٢٣٢/٥)، والطبراني في الكبير (١٦٤/٢٠).

(٦) رواه الطبراني في الأوسط (٣١/٦).

ترجع إليها أنفاسها، فإن الشيطان لا يلبس ثوبًا مطويًا»[1]. رواه ابن عساكر عن جابر.

وما من حركةٍ أو سكونٍ عن حظٍّ إلا وللشيطان مدخل فيهما، وله لعنه الله تعالى مشاركة في الأموال والأولاد، كما قال الله تعالى، وفي المأكل والمشرب والمنكح وعند النوم واليقظة، وترصد لنا عند سائر الطاعات ليفسدها علينا، كل ذلك عن أمر الله تعالى في قوله: ﴿**وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ**﴾ [الإسراء:٦٤].

فكيف من يكون بهذه المثابة من العداوة يركن إلى زخارفه ووساوسه، ويؤمن شره؛ لأنه ساع إلى هلاك دين العبد وإماتة قلبه حتى يوقعه في الكفر، فإذا كفر قال له:

﴿**إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الحشر:١٦].

ومن لم يؤمن بكلام الله تعالى وكلام رسوله ويتخذه عدوًّا ويركن إليه فهو جاهلٌ غبيٌّ، ومع جهله وغباوته حيث لم يمتثل أمر ربه كافر، فإن العارف ولو بلغ من درجات الولاية أقصاها لا يأمن مكر الله تعالى من أن يسلط عليه الشيطان فيغويه ويضله عن سواء السبيل.

قال سيدي عبد الوهاب الشعراني قدَّس الله سرَّه في منته الصغرى: «ومما منَّ الله تعالى عليَّ كثرة حذري من إبليس كلما ترقيت في المقامات؛ لعلمي أنه بالمرصاد سواء كنت مستقيمًا أو أعوجًا، فهو يلازم المستقيم ليترقب له وقتًا يغويه فيه من غفلةٍ أو سهوٍ أو تأويلٍ أو تزيينٍ.

وأما الأعوج فهو من جملة حزبه، فعلم أنه لا يفارق أحدًا من مستقيمٍ أو أعوجٍ، ولكن الله تعالى يحفظ الأكابر من العمل بما يوسوس لهم به، فهو يوسوس لهم وهم لا يعلمون بذلك إما عصمةً وإما حفظًا.

قال الله تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ**﴾ [الحج:٥٢]».

---

(١) رواه الديلمي في الفردوس (٢/ ٣٨٠).

وسمعت سيدي عليًّا الخواص[١] رحمه الله تعالى يقول:

وقال: وكان يعامل الناس على حسب ما في قلوبهم، لا على حسب ما في وجوههم.

قال: وله كلامٌ نفيسٌ، رقمنا غالبه في كتابنا المسمى بـــ «**الجواهر والدرر**»، كل جوابٍ منه يعجز عنه فحول العلماء، حتى تعجب من كتب عليه من العلماء: كسيدي شهاب الدين الفتوحي الحنبلي ﷺ، وسيدي شهاب الدين بن الشبلي ﷺ، وسيدي ناصر الدين اللقاني المالكي ﷺ، والشيخ شهاب الدين الرافعي ﷺ.

وقال الشيخ شهاب الدين الفتوحي ﷺ: لي سبعون سنةً أخدم العلم، فما أظن قطُّ أنه خطر على بالي لا السؤال ولا الجواب من هذا الكتاب: يعني «**الجواهر والدرر**» اهـــ.

ونقل الشيخ الشعراني من أقواله الكثير، وإليك قبسٌ منها:

قال: لا يسمى عالمًا عندنا إلا من علمه غير مستفاد من نقلٍ أو صدرٍ، بأن يكون خضريَّ المقام، وأما غير هذا فإنما هو حاكٍ لعلم غيره فقط. فله أجر من حَمَلَ العلم حتى أدَّاه، لا أجر العالم، والله لا يضيع أجر المحسنين.

وقال: من أراد أن يعرف مرتبته من العلم يقينًا لا شكَّ فيه فليردَّ كل قولٍ حفظه إلى قائله، وينظر بعد ذلك إلى علمه، فما وجد معه فهو علمه، وأظن ألا يبقى معه إلا شيءٌ يسيرٌ لا يُسمَّى به عالمًا.

وقال: لا يصير الرجل عندنا معدودًا من أهل الطريق إلا إن كان عالمًا بالشريعة المطهَّرة: مجملها ومبيِّنها، ناسخها ومنسوخها، خاصِّها وعامِّها، ومن جهِلَ حكمًا واحدًا منها سقط عن درجة الرجال.

فقلت له: إن غالب مسلكي هذا الزمان ساقطون عن درجة الرجال. فقال: نعم؛ إن هؤلاء يرشـــدون الـــناس إلى بعض أمور دينهم، وأما المسلِّك فهو لو انفـــرد فـــي جَميع الوجـــود لكفى الناس كلهم من العلم، في سائر ما يطلبونه.

---

(١) هو الولي الكامل العارف بالله تعالى سيدي عليٌّ الخوَّاص البرلسي، شيخ المصنِّف رضي الله عنهما، وقد ترجمه في «الطبقات» قائلاً: كان ﷺ أميًّا لا يكتب ولا يقرأ، وكان يتكلم على معاني القرآن العظيم والسنة المشرفة كلامًا نفيسًا، تحيَّر فيه العلماء، وكان محل كشفه اللوح المحفوظ عن المحو والإثبات، فكان إذا قال قولاً لا بدَّ أن يقع على الصفة التي قالها، وكنت أرسِل له الناس يشاورونه عن أحوالهم، فما كان قطُّ يحوجهم إلى الكلام، بل كان يخبر الشخص بواقعته التي أتى لأجلها قبل أن يتكلم، فيقول: طلِّق، مثلاً، أو شارك، أو فارق، أو اصبر، أو سافر، أو لا تسافر، فيتحير الشخص، ويقول: من أعلم هذا بأمري اهـــ.

كلما قرب العبد من حضرة الله تعالى كان إبليس أشد ملازمةً له؛ لعلمه بكثرة ضلال الناس إذا ضلّت أئمتهم حين خرجوا من حضرة الله تعالى، وأن الجالسين في حضرة الله تعالى ليس له عليهم سبيل، فهو واقفٌ على باب الحضرة ينتظر من يخرج منهم وهو غافلٌ، فيركبه كما يركب الإنسان حمارته، ويتصرف فيه بما يشاء حسب الإرادة الإلهية، فإن حصل للعبد حضور مع الله تعالى نزل إبليس لوقته أسرع من لمح البصر؛ خوفًا من أن يحترق. **واعلم** أن حضرة الله تعالى حيث أطلقت في لسان القوم، فالمراد بها شهود العبد أنه بين يدي الله تعالى، وأنه تعالىٰ ناظر إليه، فما دام العبد مستصحبًا لهذا الشهود فإنه في الحضرة، فإذا احتجب عنه هذا المشهد خرج في أسرع من لمح البصر، والناس في ذلك متفاوتون بحسب القسمة، فمنهم من لا يدخل الحضرة كما ذكرنا إلا في صلاته، ومنهم من يدخلها في غير صلاته نحو درجة، ومنهم من يدخلها في النهار درجتين، وهكذا وأكملهم من يمن الله تعالى عليه بهذا الشهود ليلاً ونهارًا إلا في أوقات يسامح الله تعالى فيها العبد. ومن هنا قال العارفون: إن مراقبة الله تعالى مع الأنفاس ليس مِن مقدور البشر.

وكان **معروف الكرخي**(١) يقول:

---

(١) قال ابن الأطعاني: هو ابن فيروز، وقيل: ابن الفيرزان، وقيل: معروف بن علي الكرخي– كرخ بغداد على الصحيح– وهو من جُلّة المشايخ، وقدمائهم، والمشهورين بالزهد والورع والفتوة مجاب الدعوة يستسقى بقبره. يقول البغداديون: قبر معروف ترياق مجرب، وقبره هناك مشهور، ومعروف ظاهر يتردد الخلق إلى زيارته، فكم من صاحب ملكه بشيء، ومعروف معروف. قال الأستاذ أبو القاسم القشيري رحمه الله في رسالته – في ترجمة معروف: وهو من موالي علي بن موسى الرضا رضي الله عنهما مات سنة مائتين، وقيل:حدى ومائتين، وكان أستاذ سري السقطي. وقد قال له يوماً، فإذا كانت لك إلى الله حاجة فأقسم عليه بي.

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله يقول:

كان معروف أبواه نصرانيين فسلّموا معروفاً إلى مؤدبهم وهو صبي، وكان المؤدب يقول له:

قل ثالث ثلاثة، ويقول معروف: بل هو الواحد، فضربه المعلم يوماً ضرباً مبرحاً، فهرب معروف، وكان أبواه يقولان: ليته يرجع إلينا على أي دين شاء فنوافقه عليه، ثم إنه أسلم على يدي علي بن موسى الرضا، ورجع إلى منزله، ودق الباب فقيل: من بالباب؟ فقال: معروف، فقالوا: على أي دين أنت؟ فقال: على الدين الحنفي، فأسلم أبواه.

قال سري السقطي: رأيت معروفاً الكرخي في المنام كأنه تحت العرش والله تعالى يقول لملائكته: من هذا ؟. فقالوا: أنت أعلم يا رب، فقال: هذا معروف الكرخي، سكر من حبي فلا يفيق إلا بلقائي.

=

«لي منذ ثلاثين سنة في حضرة الله تعالى ما خرجت منها».

وكذلك سيدي إبراهيم المتبولي رضي الله عنه [١] لكنه قال: «لي سبع عشرة سنة في حضرة الله تعالى ما خرجت».

ومرادهما ما عدا الأوقات التي سامح الخلق فيها، وإلى هذه الإشارة بقوله ﷺ: «**لي وقتٍ لا يسعني فيه غير ربي**»[٢]، فنكر الوقت، ويصدق بالطويل والقصير.

وقد كان سهل بن عبد الله التستري[١] يقول:

=

وقال: إذا أراد الله بعبد شراً ابتلاه بالخذلان، وأسكنه بين الأغنياء، فإذا نظر إليهم استعظم غناهم.

وقال: قلوب الطاهرين تشرق بالتقوى وتزهر بالبر، وقلوب الفجار تظلم بالفجور، وتعمى بسوء النية، وإذا أراد الله بعبد خيراً فتح عليه باب العمل، وأغلق عنه باب الفترة والكسل.

وقال: ما أكثر الصالحين، وأقل الصادقين في الصالحين.

وقال له رجل: أوصني، فقال: توكل على الله حتى يكون هو معلمَك ومؤنسَك وموضعَ شكواك، فإن الناس لا ينفعونك ولا يضرونك.

وقال: علامة مقت الله للعبد أن يراه مشتغلاً بما لا يعنيه من أمر نفسه، وطلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب، وانتظار الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور، وارتجاء رحمة من لا يطاع حمق وجهل.

وقيل له: ما علامة الأولياء؟ فقال: ثلاثة: همومهم الله، وشغلهم فيه، وفرارهم إليه، ثم قال: ليس للعارف نعمة، وهو في كل نعمة.

وقال: التصوف الأخذ بالحقائق، والكلام في الدقائق، والإياس مما في أيدي الخلائق. والله أعلم.

وانظر في ترجمته: طبقات الصوفية للسلمي (ص٨٣، ٩٠)، الرسالة القشيرية (١٢)، حلية الأولياء (٨/ ٣٦٠، ٣٦٨)، صفة الصفوة (٢/٧٩، ٨٣)، تاريخ بغداد (١٣/١٩٩)، مرآة الجنان (١/٤٦٠)، طبقات الحنابلة (١/٣٨٠)، نفحات الأنس (٥)، اللمع (١٨٥)، وفيات الأعيان (٢/١٣٦)، الأنساب (٧٨)، التعرف (١١)، الطبقات الكبرى للشعراني (١/٨٤)، طبقات ابن الملقن (٥٨)، ومعروف الكرخي لابن الجوزي، وكتابنا الجنيد سيد الطائفتين.

(١) كان من أصحاب الدوائر الكبرى في الولاية، ولم يكن له شيخ إلا النبي ﷺ ، وانظر: أخباره ومناقبه العظيمة في الطبقات الكبرى (٢/٧٧)، والأخلاق المتبولية للمصنف.

(٢) ذكره العجلوني في كشف الخفا (٢/٢٢٦).

«لي منذ ثلاثين سنة أكلم الله تعالى والناس يظنون أني أكلمهم».

فإذا كان هذا حال بعض أفراد من خواص أمته ﷺ فكيف بصاحب المقام الأكبر وسيد حضرة الله تعالى على الإطلاق.

وقد نقل الجلال السيوطي رحمه الله تعالى في الخصائص أن رسول الله ﷺ كان مأمورًا بشهود الحق تعالى مع الخلق حال المخاطبة، فلا يحجبه الحق عن الخلق ولا عكسه.

فتأمَّل ما ذكرته لك فإنه من باب المعرفة، و لم أرَ أحدًا من إخواننا تخلَّق بالحذر من إبليس كلما ترقَّى في المقامات إلا النادر، فإن أحدهم بمجرد ما يصير اسمه سيدي الشيخ يظن أنه إبليس فارقه، وما بقي له عليه سلطنة.

بل سمعت بعضهم يقول: نحن لا نعرف إبليس، وما ثم إلا الله تعالى، فيُقال لهذا بتقدير صدقه أنه لا يشهد إلا الله تعالى، فهل زال إبليس من الوجود أم هو باقٍ وأنت حجبت عن أحواله لنقصك؟ فلا يسعه إلا أن يقول: هو موجودٌ، وإلا كفر بالقرآن، فيُقال له: لو حققت النظر لوجدته لعنه الله يرقى مع أصحاب المقامات ولا ينقطع، فبعد أن كان يوسوس لهم بالمعاصي الظاهرة صار يوسوس لهم بالمعاصي الخفية.

وقوله: (فهل زال إبليس من الوجود) ملخص من عبارة سيدي محيي الدين قدَّس الله سرَّه في فتوحاته، فإنه قال في الباب التاسع والستين وثلاثمائة:

«اجتمعت روحي بهارون الطَّيْلا في بعض الوقائع، فقلت له: يا نبي الله كيف قلت: ولا تشمت بي الأعداء؟ ومن الأعداء حتى تشهدهم والواحد منا يصل إلى مقامٍ لم يشهد فيه إلا الله تعالى؟ فقال لي السيد هارون: صحيح ما قلت في مشهدكم، ولكن إذا لم يشهد أحدكم إلا الله تعالى فهل زال العلم في نفس الأمر كما هو مشهدكم، أم العالم باقٍ وحجبتهم أنتم عن شهوده لعظيم ما يتجلَّى لقولبكم؟ فقلت له: بل العالم باقٍ في نفس

=

(١) هو سهل بن عبد الله التستري أبو محمد صاحب كرامات، لقي ذا النون وكان له اجتهاد ورياضات، سكن البصرة زمانًا، وكان سبب سلوكه خاله محمد بن سوار، مات سنة ثلاث وثمانين وقيل ثلاث وسبعين ومائتين بتستر. انظر: طبقات الأولياء (ص٢٣٢).

الأمر لم يزل، وإنما حُجبنا عن شهوده. فقال: قد نقص علمكم بالله في ذلك المشهد بقدر ما نقص في شهودكم العالم، فإنه كله آيات الله. فأفادني عليه السلام علمًا لم يكن عندي».

فانظر لإذعان هذا الشيخ الكبير الوارث للمقام المحمدي الخطير، وكن مقتديًا به في الإنصاف والاعتراف والاتصاف بكماله الموجب لك من بحر الاغتراف، ولا تجنح للتأويلات الفاسدة والآراء الكاسدة، وكن هينًا لينًا منقادًا للحق، عوادًا إذا نبهت للصدق، وإذا نبهك إنسان على نقصٍ في مقامك أو عقص في شعور مقامك، فلا تتقاعس عن الإجابة، واقبل منه نصحه واقبل بذلة وكآبة، وقل الحق ولو على نفسك، وتنبَّه من سنة غفلتك في يومك وأمسك، وعن شهود مجالي جمال غيره فامسك، واعرف حق من ساقه الله إليك لينبهك على ما فيك، واعلم أنه من جملة النعم عليك.

والذي يظهر من حال الأستاذ المتقدم المقدم، والمقدم غيره لتناول الشراب الحلال الأقدم، إن هذا التنبيه الصادر من هذا السيد النبيه كان في مبادئ عثور الأستاذ على سر الوحدة المطلقة التي لصاحبها في ميادين القرب مطلقة، فإن هذا المقام له أخذ عن الإحساس وربما أوقع صاحبه في الالتباس، ويعبر عنه بوحلة الطريق الناشئة من الجمع بدون تفريقٍ، وفيه يصدر الشطح من الشطاح الغياب، وتنكر عليهم الصحاة ذلك ويعيبهم العياب، ويعدُّونه أهل الكمال نقصًا؛ لأنه أبعد من اتصف به وأقصى، وأغلب ما يطرأ السكر على أهل مقام الجمع الأول، وشبهة هذا قوية لكن على الفرق الثاني بعد جمع الجمع، سيما إن لم يكن إمام يأخذ بيد السيار في هذه المهامة والموحش من القفار، وأما من وجد الإمام خلصه بإذن الله تعالى من هذه الأوهام.

ونقل الشيخ إسماعيل بن سودكين في كتابه الذي سمَّاه «**لواقح الأسرار ولوامح الأنوار**»، وهذا الكتاب جمعه من كلام شيخه سيدي محيي الدين قدَّس الله سرَّه قال:

(وسمعته رضي الله عنه يقول: منازل المخاطبات متنوعة على الولي، فتارة يخاطب من حال يحيى عليه السلام، وتارة يخاطب من حال الآخر ومن حال الآخر، ويأتية التعريف عند التنـــزل عليه بما هو وارثه من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في ذلك التنـــزل، فمنه ما يدوم شهرًا وشهرين ويومًا ويومين، وأكثر وأقل، حتى أن الولي ليجد طعمًا حسيًّا في فمه وحلقه،

ويدوم ذلك الطعم ما دام الولي في ذلك التنـــزل، فإذا انقطع علم أن ذلك الوجه الذي كان ناظرًا إليه قد مضى، ويبقى ينظر وجهًا آخر من اسمٍ آخر.

وتتنوع تلك الطعوم بتنوع التنـــزلات، فلكل منـــزلة مطعم يخصه وهو علامة، ولنا ميزان في الطعم الذي يجده صاحب التنـــزل، وذلك أنه إذا تناول الأغذية ثم غلب طعمها على الطعم الذي أعطاه التنـــزل فليعلم أن ذلك الذي كان يجده خياليًّا لا حقيقيًّا، وإن كان يدوم له مع تناوله المطعومات على اختلافها، ويحكم عليها بالظهور فليعلم أنه حقيقي، وذلك أن ما كان من جناب الحق فهو يحكم على ما في الكون ولا يحكم عليه الكون.

وورود التنـــزل على ضربين: ذوقي وهو ما يتحقق به المكاشف تحققًا ذوقيًّا، ومنه ما يرد على طريق الأخبار، ومثال هذا مثال من يطلع علمًا على ما في كتابٍ ما، فليس هذا بذوّاق إنما هو حصول علم، والفرق بين تنـــزل النبي والولي أن الولي لا يتنـــزل عليه إلا من جهة العلو، والنبي يتنـــزل عليه من جميع الجهات، ولهذا حفظ النبي بالرصد دون الولي، وذلك أن إبليس لعنه الله تعالى لما قال: ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم، وعن أيمانهم وعن شمائلهم، جعل الله تعالى الرصد على الجهات الأربع وهم الملائكة محيطون بقلب النبي ﷺ، فلا يجد إبليس طريقًا إلى قلبه.

قال الله تعالى: ﴿**إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً**﴾ [الجن:٢٧].

وأما جهة العلو والسفل فإن إبليس لعنه الله تعالى لا سبيل له إليهما أصلاً، فامتنع إبليس من قلوب الأنبياء جملةً وهي العصمة، وأتى إلى قلوب الأولياء من الجهات الأربع، إلا أن الله تعالى يعرف أولياءه به، فإنه لعنه الله تعالى ما يأتي الولي بمعصيةٍ كما يأتي غيره، وإنما يأتيه بعلومٍ محققةٍ ويوهمه أنه الملك، ويقصد الملعون أن الولي يأخذ عنه ذلك العلم ليصير له نسبة بالأخذ عنه، فإذا تمَّ له ذلك أدخل عليه حينئذٍ الآفة في إلقائه، ويقنع أيضًا بأن الولي يأخذ عنه علمًا ما.

ومن حفظ الله تعالى للولي أنه سبحانه يظهر له علامات يعرف بها إبليس، فيأخذ العم

منه ويعلمه أنه عرفه وأن الله تعالى أراده بذلك العلم على يد اللعين لتتميم الإرادة ونفاذ المشيئة، فينقصم ظهره بذلك.

قال ﷺ: وكان الله تعالى قد جعل لي علامة لا بدّ أن تقوم فيه، ولا سبيل له أن يخرج عنها، ثم إن الله تعالى ملك لهذا اللعين عالم الخيال، فهو ينظر إلى ما تتعلق به المقاصد والهمم، ثم يعبر إلى خزانة الخيال فيقيم صورة ذلك المطلوب تجاه القلب.

فمن لم يحفظه الله تعالى تغير، واعتقد أن الأمر محققٌ في بابه، ويحتاج السالك أن يقطع الحجاب الخيالي، وحينئذٍ يصل إلى الحقيقة، ولهذا احتاج السالك إلى الشيخ لمعرفة الشيخ بالعوام.

ثم قال شيخنا ﷺ: وذهب بعض أصحابنا إلى أن السالكين إذا ارتقوا بنفوسهم وهممهم إلى السموات والكرسي والعرش، إنهم قد خرجوا عن المواطن التي لإبليس الذي هو مقعر فلك القمر، وأن كل ما يشاهدون في تلك المواطن فهو حقٌّ؛ لأنه خارجٌ عن مواطن إبليس، وقد وقع القائلون بهذا في الغلط، وإنما كان هذا يصح أن لو كانوا بأجسامهم فوق السماء لا بنفوسهم فقط.

وإبليس لعنه الله تعالى عالم بروحانيات الأفلاك، وما تعطيه من الآثار عندما تتنـــزل الآثار وتصعد في الرقائق، فيعلم بتلك العلامات وبآثار الورحانيات في أي موطن هذا السالك، فتظهر له من عالم الخيال صورة ذلك الموطن ومثاله، فيقع اللبس إلا لمن حفظه الله تعالى وأيَّده ونصره والسلام.

قال: وسمعته ﷺ يقول ما معناه أن أبا حامد الغزالي ﷺ قال: إذا صار السالك في السماء الدنيا أمن من خواطر الشيطان وعُصم منه.

قال شيخنا ﷺ: وها هنا تحقيق ينبغي أن يتفطن له، وذلك أن هذا القول إنما يثبت إذا صار الجسد فوق السماء الدنيا ومات الإنسان وانتقلت نفسه، وأما إذا كان في عالم الكشف وكوشف بالسموات فإنه فيها بروحانيته فقط وخياله متصلٌ، وللشيطان موازين يعلم بها أين مقام العبد في ذلك المشهد، فيظهر له من مناسبات المقام ما يدخل عليه الوهم

والشبه، فإن كان عند السالك ضعف أخذ عنه وتحقق بالجهل، ونال الشيطان منه غرضه في ذلك الوقت، وإن كان السالك عارفًا أو سلك على يد شيخٍ محققٍ، فإن تمّ سلوكًا يثبت به الشيطان ويستوفيه، ثم يأخذه منه فيصير ذلك المشهد الشيطاني مشهدًا ملكيًّا ثابتًا لا يقدر الشيطان أن يذوقه، فيذهب خاسرًا خاسئًا، فيجتهد في التحيل، ويدقق في الحيلة في أمرٍ آخر يقيمه له، فيفعل السالك ذلك الفعل أبدًا.

وللسالك علامات يعرف بها إلقاء الشيطان من إلقاء الملك من الإلقاء الإلهي، فمن العلامات أن يظهر السالك أمرًا من الأمور يدفع به الكشف، ويغيره من حضرةٍ إلى حضرةٍ، فإن تغير الكشف فهو من نتائج مقام السالك، وإن لم يتغير فهو إلقاء شيطاني.

ومن السالكين من يطرد الشيطان بنفسه عند تلبيسه عليه وهو ضعفٌ منهم، ومنهم من يأخذ من العدد ما أتى به، ويقلب عين ذلك الشبه فيرده إبريزًا خالصًا، والله أعلم).

وقال في كتابه «**روح القدس**»:

«فلا شيء أنكى على إبليس من ابن آدم في جميع أحواله في صلاته من سجوده؛ لأنها خطيئته، فكثرة السجود وطوله تحزن الشيطان، وليس الإنسان بمعصوم في صلاته إلا في سجوده، فإذا سجد تذكر الشيطان معصيته، فحزن فاشتغل عنك بنفسه.

ولهذا قال ﷺ: «**إذا سجد ابن آدم اعتزل الشيطان يبكي**»[1].

فالعبد في سجوده معصوم من الشيطان وليس بمعصوم من النفس، فخواطر السجود كلها إما ربَّانية أو ملكية أو نفسية، وليس للشيطان عليه سبيل، وإذا رفع من سجوده غابت تلك الصفة عن إبليس فزال حزنه واشتغل بك.

ولعل وليي ﷺ يقول: والنفس أيضًا تزول في السجود والملك يزول ولا يبقى إلا الحق، فإنه تعالى يقول: ﴿**وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ**﴾ [العلق:١٩]، فقد صحَّ القرب في السجود، وفني الساجد بالموجد عن الموجود.

---

(١) رواه مسلم (٨٧/١)، وابن ماجه (٣٣٤/١)، وأحمد (٤٤٣/٢).

فأقول له: نعم يا وليي، ما نظرت وبحالك ومقامك قضيت، ونحن إنما نتكلم بما تعطيه الحقائق وكيف ارتبطت الرقائق.

ولو كان الأمر على ما قاله وليي لكان كل إنسانٍ في سجوده بالله عارفًا ومعه واقفًا، فانيًا عن الإحساس بعيدًا عن الالتماس، ولا يصلح منه دعاء ولا ثناء ولا تضرع ولا بكاء، فإن التضرع والدعاء والنداء على رأس العبد بالحجاب والمشاهدة للبهت من غير اكتسابٍ، فإن وجد وليي مقام البهت في سجوده، فتلك حالة لا تطرد حكمًا، فإن غيره في سجوده يقول: رب اغفر لي مغفرة غرمًا، فهذا مع الملك حتمًا.

وآخر في سجوده يتحدث مع شريكه في مكانه حربًا وسلمًا، فهذا مع نفسه إما وإما وإما».

وقال الجيلي قدَّس الله سرَّه [1] في إنسانه الكامل الباب التاسع والخمسون في النفس

---

(١) هو العالم بالله تعالى الوارث المحمدي سيدي قطب الدين عبد الكريم بن إبراهيم بن عبد الكريم الجيلي أو الجيلاني؛ نسبةٌ إلى قرية جيل، وهي تقع في الجزء الغربي من بلاد فارس، وهو سبط السلطان المحمدي سيدي عبد القادر الجيلاني قُدِّس سرُّه، سلك الطريق على يد الولى الكامل المقرَّب سيدي إسماعيل الجبرتي قُدِّس سرُّه، وكان الشيخ ﷺ عالمًا بعلوم الشريعة والطريقة والحقيقة، إلا أنه اشتهر عنه بالكتابة في علم الحقيقة، وكان كثير التعظيم والمحبة للشيخ الأكبر قُدِّس سرُّه.

ومن كراماته العظيمة التي كانت تقع له أثناء السلوك: أن رسول الله ﷺ كان يأتيه في اليقظة في صورة شيخه سيدي إسماعيل، فيُكَلم الشيخ ويُبَاسطه، والشيخ يُكلِّمه ويُباسطه، والشيخ لا يعلم أنه مع رسول الله ﷺ يتكلَّم، فإن علم بعد ذلك حَصلَ له قبضٌ من هذا المشهد؛ حياءً من السيد الأعظم ﷺ.

وله قُدِّس سرُّه في علوم القوم مؤلفاتٌ كثيرةٌ تنبئ عن جزءٍ من علمه، وعظمته، وكمال معرفته، ووراثته، ومنها كتابه الأكرم الأفخم المسمى: بـ «الناموس الأعظم والقاموس الأقدم في معرفة قدر النبي ﷺ»، وهو في أربعٍ وأربعين جزءًا، معظم ما نسب إليه من مؤلفاتٍ إنما هو عبارةٌ عن جزءٍ معينٍ من هذا الكتاب العظيم، كـ«الكمالات الإلهية في الصفات المحمدية»، و«لسان القدر بنسيم السحر»، و«قاب قوسين»، و«مراتب الوجود»، وما زال أغلب ذلك الكتاب مفقودًا حتى الآن، ولم يكمل جمعه فيما نعلم أحدٌ، ومنها كتاب «الإنسان الكامل»، وهو أشهرها، و«قطب العجائب وفلك الغرائب»، و«المملكة الربانية المودعة في النشأة الإنسانية»، وغير ذلك، نفعنا الله بعلومهم في الدارين، آمين.

بما متحد إبليس ومن تبعه من الشياطين أهل التلبيس، ثم قال بعد كلامٍ طويلٍ:

واعلم أن إبليس له في الوجود تسعة وتسعون مظهرًا على عدد أسماء الله الحسنى، وله تنوعات في تلك المظاهر لا يُحصى عددها، ويطول علينا استيعاب شرح مظاهر جميعها، فنكتفِ منها بسبعة مظاهر هي أمهات جميع المظاهر، كما أن السبعة النفسية من أسماء الله تعالى أمهات جميع أسماء الله الحسنى، ثم ذكر المظاهر الست وقال: المظهر السابع: المعارف الإلهية يظهر فيها على الصديقين والأولياء والعارفين إلا من حفظه الله تعالى، وأما المقرَّبون فما له إليهم من سبيلٍ، فأول ما يظهر عليهم به في الحقيقة الإلهية فيقول لهم: أليس أن الله تعالى حقيقة الوجود جميعه وأنتم من جملة الوجود والحق حقيقتكم؟ فيقولون: نعم. فيقول: لِمَ تتعبون أنفسكم بهذه الأعمال التي يعملها هؤلاء المقلدون؟ فيتركونها. فإذا

=

وكان شديد التمسُّك بالشرع الشريف، مؤيِّدًا علومه بالكتاب والسنة، وفي ذلك قال في مقدمة كتابه «الإنسان الكامل»: (ثم أَلتَمسُ من الناظر في هذا الكتاب بعد أن أُعلِمَهُ أني ما وضعت شيئًا في هذا الكتاب إلا وهو مؤيَّدٌ بكتاب الله أو سنة رسوله ﷺ أنه إذا لاح له شيءٌ في كلامي بخلاف الكتاب والسنة فليعلم أن ذلك من حيث مفهومه، لا من حيث مرادي الذي وضعت الكلام لأجله، فليتوقف عن العمل به مع التسليم، إلى أن يفتح الله تعالى عليه بمعرفته، ويحصل له شاهدٌ من كتاب الله أو سنة نبيه ﷺ، وفائدة التسليم هنا وترك الإنكار ألا يُحرم الوصول إلى معرفة ذلك، فإن من أنكر شيئًا من علمنا هذا حُرِم الوصول إليه ما دام منكرًا، ولا سبيل إلى غير ذلك، بل ويخشى عليه حرمان الوصول إليه بالإنكار أول وهلةٍ، ولا طريق له إلا الإيمان والتسليم) اهـ.

قلت: انظر رحمك الله في قول الشيخ: (فليتوقف عن العمل به): أي إذا لم تستطع أنت أن تقم الشاهد من الكتاب أو السنة فأمرك الشيخ بترك العمل، ولم يأمر الشيخ بالعمل إلا بعد التأييد بالشرع، مع العلم أن تلك المخالفة المتوهمة هي من حيث فهمك، لا من حيث حقيقة قول الشيخ، وإنما أوجب الشيخ ترك العمل لأن نظر الشيخ أوسع، ومعاملته مع الله أدقُّ، ومن أين يعي الجاهل مثل تلك المعاملة؟! ليت شعري! كيف يتهم أمثال هذا السيد من أكابر القوم رضي الله عن جميعهم بمخالفتهم لكتابٍ أو سنَّةٍ، والله إن لم يكن هؤلاء هم أهل القرآن المتلبسون بالسنة فما اقتدى برسول الله أحدٌ، كان الله لأوليائه، ما أصبرهم على جهل من جَهِلَ عليهم! اللَّهُمَّ فهمنا عنك؛ فإنا لا نفهم عنك إلا بك، وارزقنا اللَّهُمَّ الإيمان الكامل بعلوم هؤلاء السادة، واحفظ ذلك علينا إلى أن نلقاك.

تركوا الأعمال الصالحة قال: افعلوا ما شئتم فإن الله تعالى حقيقتكم، فأنتم هو، وهو لا يُسأل عما يفعل، فيزنون ويسرقون ويشربون الخمر، حتى يزول بهم ذلك إلى أن يخلعوا رتبة الإيمان: أي عقدته من أعناقهم بالتزندق والإلحاد.

فمنهم: مَن يقول بالاتحاد، ومنهم: مَن يدَّعي في ذلك الإفراد، ثم إذا طُولبوا بالقصاص وسُئلوا عن منكراتهم التي فعلوا، يقول لهم: أنكروا ولا تمكنوا من أنفسكم، فإنكم ما فعلتم شيئًا وما الفاعل إلا الله، وأنتم كما أنتم في اعتقاد الناس، واليمين على نية المستحلف، فيحلفون أنهم لم يصنعوا شيئًا.

وقد يُناجيهم في لباس الحق فيقول لأحدهم: إني أنا الله وقد أبحت لك المحرمات فاصنع ما شئت، أو فافعل كذا وكذا من المحظورات فلا إثم عليك، فيفعله وكل هذا لا يكون غلطًا إلا إذا كان إبليس هو الظاهر عليهم، وإلا فالحق سبحانه بينه وبين عباده من الخصوصيات والأسرار ما هو أعظم من ذلك، ولمواجيد الحق علامات عند أهله غير منكورة، وإنما تلتبس الأشياء على من لا معرفة له بها مع عدم العلم بالأصول، وإلا فمثل هذا لا يكاد يخفى على من له معرفة بالأصول.

ألا ترى إلى حكاية سيدي عبد القادر لما قيل له وهو في البادية: يا عبد القادر، إني أنا الله وقد أبحت لك المحرمات فاصنع ما شئت، قال: كذبت إنك شيطان.

فلما سُئل عن ذلك وقيل له: بما علمت أنه شيطان؟ فقال: بقوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [الأعراف:٢٨]، فلما أمرني هذا اللعين علمت أنه شيطان يريد أن يغويني.

على أن نفس مثل هذا قد يجري لعباد الله مع الحق، كما جرى لأهل بدر وغيرهم، وهذا مقام لا أنكره، أخذ الوقت من بدايتي طرفًا منه، وكنت محقًّا فنقلني الحق منه ببركة سيدي وشيخي أستاذ الدنيا، وشرف الدين، سيد الأولياء المحققين: أبي المعروف إسماعيل

ابن إبراهيم الجبرتي[1]، فقد اعتنى بي وأنا في تلك الحالة بعناية ربَّانيةٍ مؤيدة بنفحات رحمانية، إلى أن نظر الحق بعينه عبده فجعلني ممن عنده، فنعم السيد الفاضل، ونعم الشيخ الكامل، ثم شرع في مدح أستاذه بقصيدةٍ عظيمةٍ).

وقد سألت بعض هؤلاء الزنادقة: كيف جاز علي مشهدكم الذي تنفون به وجود الأغيار، والمظاهر الثابتة صورها في أعين الأخيار، وادعاؤكم أن الظاهر الحق ولا سواه في سائر الأطوار، ونفيكم الخليقة بالكلية أن يكن به، فلم يرد جوابًا. فقلت له: هذا من عدم المعرفة بما هو الأمر عليه، وعدم السلوك على من يوصل إليه.

وانظر في قول سيدي عبد الكريم الجيلي: «وكنت محقًّا فنقلني الله ببركة سيدي وشيخي» تعلم منه أن هذا المقام ولو كان صاحبه محقًّا، بأن كانت مواجيد الحق عنده معلومة أو خصوصيات الحق له في التعريف والتعرف مفهومة، لم يكن هذا المقام مقام كمال يقف السيار لديه، أو يعول الطيار في سلوكه عليه، فكيف بمن لم يدرِ اليمين من الشمال، ولا الفرق بين مظهري الجلال والجمال، ووقع في هذه الورطة وسقط في تيار

(١) هو سيدي الشيخ الصالح الولي العارف، والقطب الغارف، المتحقق بالأسرار والمعارف، الأصيل شيخ الشيوخ أبو المعروف: إسماعيل بن إبراهيم الجبرتي الزبيدي.
كان ﷺ قرشيًا هاشميًا عقيليًّا، خلف سبعين شيخًا متوجًا إلى عقيل بن أبي طالب ﷺ.
ولد بزبيد في شعبان سنة ٧٢٢ هـ.
وولده أبوه بالجبرت، وكان أبوه من الأولياء الأكابر المكنين في التصرف في البرزخ.
وتوفي الشيخ ﷺ وهو يقرأ سورة يس أول وقت العشاء، ليلة الأربعاء لتسع ليالٍ خلون من شهر رجب الفرد سنة ستٍ وثمانمائة، وشهد جنازته جميع الطوائف من الشيوخ والفقهاء والقضاة والعلماء والوزراء وخاصة الناس وعامتهم، ولم يبق في البلد إلا من منعه مانع، وحضر خلائق كثيرون من أهل البادية وصلوا عليه في الصحراء عند قبره لكثرة من بجنازته، وكان له مشهد عظيم ومحضر مبارك كريم، ودفن بظاهر زبيد في أول يوم الأربعاء ﷺ.
وقد عدَّ الشيخ محمد بن أبي بكر الأشكل ٣١٠ كرامة له، وحكى ذلك مع ذكر المبشرات الخاصة بالشيخ الجبرتي ﷺ، وذلك في كتابه: «الكرامات الجبرتية» أتم الله لنا تحقيقه. وهو من أنفع وأكبر الكتب في نوعه.

هذه الغلطة، وصار شيخه إبليس اللعين، وهو يظن أنه ممن يرشد السالك ويعين، وكيف يرشد الغير من ضل في السير، حتى نفى الخليقة الثابتة بالكتاب، وادَّعى معرفة وحدة الوجود وسرها المستطاب.

قال شيخنا سيدي الشيخ عبد الغني حفظ الله وجوده وأدام شهوده في رسالة خمرة الحان ورنة الألحان في شرح مقدمة الشيخ رسلان:

«فإن قلت: قول الشيخ ﷺ: «لا أنت» معناه التحقق بعدم الوجود. قلت: والأمر كذلك لأن هذه رتبة الكاملين الذين ينظرون بعينين لا بعينٍ واحدة، فإن من تحقق بعدم وجوده مع الله تعالى فقط فهو ناقص المعرفة، ومن تحقق بوجوده مع الله تعالى فقط فهو أنقص منه، والكامل في المعرفة من جمع بين المقامين، ووقف في الحقيقة البرزخية، وذلك لأنه لا بدَّ من حقٍّ وخلقٍ؛ إذ لولا الحق ما عرف الخلق، ولولا الخلق ما عرف الحق، ومن أنكر واحدًا منهما فهو جاهلٌ، ومع جهله كافر.

والكامل متحقق بعدم وجوده مع الله تعالى، إعطاء للربوبية حقها، ومتحقق بوجوده مع الله تعالى إعطاء للعبودية حقها، فيعد وجدوه ذنبًا في تحققه الأول، ويستغفر منه في تحققه الثاني، ويلزم من استغفاره منه عوده إليه وهكذا إلخ».

وأنشد في أول قصيدة أودعها كتابه المُسمَّى بـــ «**الوجود الحق والشهود الصدق**» قوله:

كُـــنْ عَارِفًـــا بوحـــدة الوجود ... وقاطعًـــــا بكـــــثرة الموجـــــود
ومـــيز الحـــادث مـــن قـــديم ... وخلـــص الشـــاهد مـــن مفقود

وأنشد بعض العارفين:

لاَ بُـــدَّ مِـــن عين عبد وهي ثابتة ... حـــتى تصـــح محاكاة من الحاكي
في حـــبٍّ نفل سماع العبد كان به ... وفي الفـــرائض تعكـــيس الدراك
الـــدرك نفلاً على استعداد صاحبه ... والـــدرك بالفرض تعميم لإدراك
هذا فمن معضلات الفن أن فهموا ... إيـــاك إيـــاك من أشراك إشراك

وقال الشعراني ﷺ في «لواقح الأنوار»: (من كمال العرفان شهود عبد ورب، وكل عارفٍ نفى شهود العبد في وقتٍ ما فليس بعارفٍ، وإنما هو في ذلك الوقت صاحب حال، وصاحب الحال سكران لا تحقيق عنده).

وهذا المقام في الإصلاح يُسمَّى الفرق الثاني، فإنه شهود حق وخلق عبودية وربوبية في آنٍ، فيعطي العبودية حقها من الخضوع والخشوع والافتقار والانكسار، قيل: أوحى الله تعالى إلى شعيب الطَّيْلاِ: هب من عنقك الخضوع، ومن قلبك الخشوع، ومن عينيك الدموع، وادعني تجدني قريبًا.

ويعطى الربوبية حقها من شهود عزها وغناها وقوتها وقدرتها، وهذا المقام حال أهل الكمال، ودونه مقام أهل جمع الجمع، وهو الاستهلاك في الله بالكلية عن ذوقٍ ووجدانٍ، لا دعوى وشقشقة لسان، ودونه مقام الجمع وهو شهود حق من غير خلقٍ، وصاحبه سكران لا يقتدي به.

قال سيدي محيي الدين قدَّس الله سرَّه في فتوحاته: (قال الحلاج: وإن لم يكن من أهل الاحتجاج بسم الله منك بمنزلة كن منه).

ولم يجعله من أهل الاحتجاج: أي ممن يحتج بكلامه؛ لسكره وغلبة مقام الجمع عليه، فثبت بما قدمناه أن الشيطان لم يزل لنا بالمرصاد، وأنه يرانا هو وقبيله من حيث لا نراه في صورته التي هو عليها، وكثيرًا ما يراه العارفون كسهل بن عبد الله التستري ﷺ لما سأله: هل أنا شيء؟ واستدلَّ عليه بآية: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦]، ثم تنبه سهل لآخر الآية وهي: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾، فقال له: التقييد من صفتك لا من صفته.

وفي الحديث: «**إنَّ الشَّيطان عرض لي فشد عليَّ ليقطع عليَّ الصلاة، فأمكنني الله منه فذعته، ولقد هممت أن أوثقه إلى سارية حتى تصبحوا فتنظروا إليه، فذكرت قول سليمان: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَّ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾** [ص:٣٥].

فردَّه الله خاسئًا»[١]. رواه البخاري عن أبي هريرة.

فانظر طبعه في قطع صلاته ﷺ مع علمه وتحققه بعصمته منه، ومشاهدته الوصل من بين يديه ومن خلفه، وقوله: فتنظروا إليه لتشكله في غير صورته.

وقال الشعراني ﷺ في رسالة له جعلها في حال مشايخ زمانه وفقرائه: «احذر من دعواك سلوك طريق الفقراء وأنت تجد في نفسك كراهية من لا يعظمك ولا يناديك بألفاظ السيادة والمشيخة والصلاح والإسلام، فالمسلم الكامل في هذا الزمان أعز من الكبريت الأحمر، ولا يكون المسلم كاملاً حتى يسلم لسانه وسمعه وبصره ويده وفرجه وقلبه مما حرَّم الله تعالى مرارًا فتأمل بذلك، فإذا كان هذا في رتبة الإسلام فكيف تسلم له رتبة الإيمان فضلاً عن دعوى الولاية، وكيف يليق بمن لم تحصل له رتبة الإسلام أن يكون داعيًا لله تعالى، محبًّا أن ينازعه في الكمال والاسم، فإن الولي اسمٌ من أسماء الله.

ولعمري إن إبليس أكثر تواضعًا من هؤلاء المدَّعيين، وأعرف بطريق الله منهم، فإني اجتمعت به وقال لي: كيف تزعمون أنكم أولياء الله وتحبون أن يكون لكم من الكمال مثل ما له، وتحبون أن يعظمكم الخلق ويمدحونكم، والله إني أكره أن يعظمني الخلق في أمرٍ من الأمور، أو ينسبوا إلَيَّ فعلاً أو قولاً، وأحب أن تُنسب إلَيَّ جميع النقائص والعيوب التي في الوجود، وأن يحقروني إلى الطرف الأقصى؛ ليتميز الحق بالكمال المطلق وأتميز بالنقص المطلق؛ لأن نقصهم لي ردَّ إلَيَّ أساسي، وتعظيمهم لي خروج عن صفات سيدي.

فتأمَّل أدبه فأين أنت منه؛ إذ تكاد تضيق عليك الدنيا بما رحبت إذا لم يعظمك الناس ولم يعتقدوا فيك. فاعلم ذلك ولا تنسَ نفسك، فإن الإنسان في نفسه بصيرًا والله يتولى هداك».

فما حجب عن شهوده إلا من لم يطلق من قيوده، واستولى بدسائسه عليه، ومن جملتها قوله بعدم وصولها إليه، وما علم أن ذلك من نزغاته الشيطانية ونزعاته الظاهرة في مهاوي الأباطيل النفسانية، يظن أنه ترقَّى في مدارج معارج التدريج ترقي الأهلة، وأن

---

(١) رواه البخاري (١/٤٠٥)، وأبو عوانة في مسنده (١/٤٦٧).

جموعــه بلغت جموع السلامة لا جموع القلة، والحال أنه أسير لهواه وشيطانه؛ لقيام الدليل عنى فساد ما يدعيه وبطلانه.

أخــبرني أخونـــا في الله الشـــيخ مصطفى بن عمرو الحلواني ختم الله له بالحسنى بجاه صاحب المقام الأسنى: «إنه رأى في منامه شخصًا قبيح المنظر والشكل، رث الهيئة، جالسًا عند قدمه، فقال لي قائلٌ: أتدري من هذا؟ قلت: لا. قال: هذا الشيطان، ومرادك يذهب عنك؟ قلت: نعم. قال: اقرأ آية الكرسي ثلاث مرات، والإخلاص ثلاث مرات، فشرعت في ذلـــك، فعندما وصلت إلى نصف آية الكرسي من المرة الثانية استيقظت فوجدت الذي كنـــت أراه في المـــنام على هيئته ما تغير، فأخذت أتمم الثانية حتى أكملت القراءة، قال: فكنت كلما قرأت يصغر حتى فني ولم يبقَ له أثر».

ورأيـــت في بـــدء سلوكي على يد شيخنا الشيخ عبد اللطيف رحمه الله تعالى، أني في مكانٍ متَّسعٍ فيه عرائش عنب كبيرة وخلق كثير، وكأني مشغول في الذِّكر غير ملتفتٍ لما هم فيه، ورأيت شخصًا ذميمًا قصيرًا على رأسه طرطور، وفي يده ثلاث جواهر فوضعهن مـــا بين تلك العرائش، ونادى في أولئك الأقوام: من وجد منكم تلك الجواهر أعطيه كذا وكذا دينارًا.

فابتدر أولئك الأقوام يبحثون في تلك العرائش فلم يجدوا شيئًا، فرفعت طرفي فرأيتهم فأخذهم وطلبت منه الجعل فأبى، فرأيت في حجره دنانير فأخذت منها وانصرفت، فتبعني فالتفت إليه وصرت أقول: الله الله، وهو يدور ويصغر حتى فني.

فانصــــرفت إلى قصــــرٍ عظــيم البناء فتبعني أيضًا فقلت له: قد أتيت إلى هنا، ثم إني توجهت إليه بهمةٍ وعزمة وصرت أقول: الله الله، وهو يصغر ويذوب مع الدوران حتى لم يبقَ له أثر، ثم زدت في الذِّكر حتى تحققت انعدامه.

ونزلت من القصر فرأيت سلمًا يقابل السلم الذي نزلت عنه، ورأيت على أول درجة مـــنه أشرف الخلق ﷺ، فتبعته فصار كلما علا درجة صعدت خلفه حتى أتينا متسع السلم فغاب عني هناك.

وفسَّـــر لي الشيخ رحمه الله تعالى الجواهر بتوحيد الأفعال والأسماء والصفات والدنانير بحقائق عرفانية، وذوبانه بالذكر قال: هو تصاغره بظهور عظمة المذكور، ثم السلم الأول هو السير بالهوى، والثاني بالاتباع للقدم المحمدي.

ولا أمان منه لعنه الله إلا بعد حلول دار الأمان، وتذكرت في اتِّباعه لي على ما أخذته منه حكاية نقلها سيدي محيي الدين ﷺ في كتابه «**روح القدس في مناصحة النفس**» قال فيه حكايةً:

«جـــاء رجلٌ لسيدنا أبي مدين رضي الله عنه وأرضاه فقال له: يا سيدي، إن الشيطان يؤذيني فعسى أن تدفعه عني، فقال له الشيخ: قد شكا لي إبليس منك قبلك. قال: وما قال لك؟ قال: قال لي: تعلم يا شيخ أن الدنيا خلقها لي ربي الله تعالى، وجعلها حبالي وشركي وملكنـــيها، وجاء فلان فتعدَّى عليَّ وأخذ منها، فعدوت وراءه أطلب حقي منه، والله ما قصـــدت مـــنهم إنسانًا ولا طلبت منهم أحدًا، ولا برحت من مكاني أحفظ على بستاني ومـــالي، فمن أخذ منه شيئًا تبعته أطلب حقي، وقد عرفت أن فلانًا يشكوني إليك فسبقته وقـــد أخبرتك بالقصة، وأنا لا أترك منه حقي وأسلبه مما أقدر عليه من دينه، أو يرد إلَيَّ متاعي، كما فعل الزهَّاد والموفقون.

ولهـــذا قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ**﴾ [الحجر:٤٢]، فما لي عليهم حجة ولا حق، فإنهم تركوا مالي وهذا تعدَّى ومن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل مـــا اعـــتدى عليكم من المظالم، فقال الرجل: أنا. فقال له الشيخ: رد إليه دنياه يرد إليك آخرتك».

وقـــال الشـــعراني ﷺ في منـــنه: ومما منَّ الله به عليَّ إضافتي كل فعلٍ مذمومٍ فعله الإخـــوان معـــي إلى إبليس ببادئ الرأي، ولذلك قل غضبي عليهم، فإن إبليس هو الذي وســـوس للخلق حتى فعلوا الفواحش، فهو أصل والعبد فرع له، وإرسال سوء الظن على الأصل أولى من إرساله على الفرع.

وهـــذا خلـــق ما رأيت له ذائقًا، وغالب الخلق يضيفون الفواحش إلى المؤمنين ببادئ الرأي، ولا يكادون يتذكرون إبليس إلا بعد تأمُّل وتفكر فيقعون في ازدراء بعضهم بسبب

ذلـــك، وهو حرامٌ بخلاف ما إذا ازدروا إبليس لا يقعون في حرامٍ، فعلم أن الكامل لا يقع في إضـــافة المذمـــوم إلى المؤمن إلا بعد إضافته إلى إبليس، ولذلك قلَّ ازدراؤه للمسلمين، وكان للقبيح عنده وجوه من المعاذير.

وسمعـــت ســـيدي عليًا الخواص رحمه الله تعالى يقول: «إضافة المذمومات إلى إبليس أولى مـــن إضـــافته إلى الحـــق تعـــالى بحكم التقدير؛ لأن ذلك تحصيل الحاصل، وأحكام التكالـــيف إنما هي دائرة على رقاب المكلفين، فمنهم من آمن كالمؤمنين، ومنهم من كفر كإبليس».

وسمعته ﷺ مرة أخرى يقول: «من وقف مع إضافة المذمومات إلى الله تعالى بحكم أنه قدرها على عباده قبل أن يخلقوا ترقَّى من ذلك إلى أعلا طبقات سوء الأدب مع الله تعالى، وأقام الحجة على ربه فهلك من حيث لا يشعر، وذلك لأنه لا يكاد يندم على ذنبٍ يفعله أبدًا فاعلم ذلك».

وقـــد أوردنـــا لك ما يشفي عليل النفوس، ويطفئ غليل قلب مقيَّد محبوس، رزقنا الله وإيَّـــاك الفهم الموافق لمراد الملك القدوس، فإنه لا نجم بعد ظهور الشموس، ولا عطر بعد عـــروس، فالقِ عصا التسيار فقد طلع النهار، وأنشد العفيف التلمساني قدَّس الله سرَّه ما تليت المثاني:

وهَلْ بعد ضوء الشمس يبدو لك الدُّجا وهل بعدها يبقى على الأفق من نجم

ولما ادَّعوا الأمن من الشيطان وأنهم لا يشهدون إلا الرحمن، ألقاهم في مهامه الافتتان من حيث لا يشعرون؛ لأنه خيل لهم أنهم منه في أمانٍ، وزيَّن لهم النظر في الوجوه الحسان، التي تلقي الناظر إليها في الإثم والعدوان، وصاروا يستدلون على جواز النظر بقول بعض العارفين مواليًا: «كل الجمال جمال الله ما فيه شكٌّ».

وهذا لا دليل لهم فيه؛ لأن المعنى كل الجمال الذي لا يشابهه ولا يماثله جمال هو جمال الله، وأيضًا فإن كل جمالٍ في الكون فمسندٌ وظاهرٌ عن جمال الله من حيث تجلِّي اسمه الجميل، فنظرنا من هذا الوجه للأشياء الجميلة محمود، لكن الشارع حجر علينا ولم يطلق

لنا جواز النظر في كل ما كان جميلاً، كالنظر في وجه الأمرد الجميل والمرأة الأجنبية الجميلة، فصار نظرنا إلى ما نهى الشارع عنه لا يجوز إلا أن أمنت الفتنة وتحقق إلا من فيها، سيما في مثل الأمرد فإنه مظنون، خصوصًا مع من هو مثلي أسير شهوته، وقد أنشد شيخنا الشيخ عبد الغني حفظه الله تعالى من قصيدة:

ولا يـــكُ بـــالجلود لـــك افتتان فمـــا تلـــك الجلـــود هي الملاح
ولا يخفـــى عليـــك لطـــيف سر لأســـتار القلـــوب بـــه افتضاح
ومـــا الفـــاني بمقصـــودٍ ولكـــن وشـــى مـــنه على الباقي وشاح

وقلت من قصيدة:

صورة الحسن بها الحسن التها والـــذي عـــنى لها جاز اجتبا
إن خلـــف الحســـن سر ذاقه مـــن عـــلى منـــبره قد خطبا
أنت كالجلمود إن حب الجلود عـــلى عقلـــك جهـــلاً غلبا
والـــذي القـــيد لـــه قاد إلى صـــفة التقيـــيد هـــذا حجبا
لا تقـــيد مطلقًـــا في مظهـــر شـــرع من تهوى لذا قد ندبا

فأباحوا لأنفسهم النظر والخلوة، ولم يروا فعلاً قبيحًا؛ لأنهم لا يشهدون إلا المليحا، كل هذا من ادِّعائهم المعرفة وهم عنها بمعزلٍ، فإنهم فارقوا أهلها في أول قدم وفي أول منـــزل.

واعلم أن الشريعة المحمدية هي العروة الوثقي التي من تمسَّك بها فقد تسامى وترقَّى، ومن وضع ميزانها من يده فقد مكر الله به، فإن كنت ناصحًا نفسك أيها المريد من رقدتك انتبه، وحصن بيت قلبك بجنود الوقوف مع الحدود إن كنت صادقًا في دعواك الشهود، واجلس على البساط وإياك والانبساط، فإن زلة المقرب بألف زلة، وترك حفل الانبساط شغلاً بالمشهود أشرف حلة.

قال سيدي محيي الدين قدَّس الله سرَّه في شرح اليوسفية: «ولهذا إذا رأينا من يدَّعي في هذه الأمة مقام الدعاء إلى الله على بصيرةٍ، ويخل بأدبٍ من آداب الشريعة، ولو ظهر

عليه من خرق العوائد ما يبهر العقول، ويقول: إن ذلك أدب يخصه لا نلتفت إليه، وليس بشيخٍ ولا محقٍّ، فإنه لا يؤمن على أسرار الله تعالى إلا من يحفظ عليه آداب الشريعة، ولكن شرطه أن يبقى معه عقل التكليف، فإن طرأ عليه ما يخرجه عن عقل التكليف: أي كالمجاذيب وأرباب الأحوال فيسلم له حاله، ولا يقتدي به وهو سعيدٌ، وهو في الوقت الذي سلب عنه عقل التكليف بمنـــزلة الشيخ عندما يموت، فكما تُقبض روحه على ما كان عليه كذلك يُؤخذ عقل هذا الموله على ما كان عليه، فتبقى سعادته سعادة الميت، ولا تدبير لنفسه الناطقة في هيكله؛ لفقد الإفهام، فيبقى مثل سائر الحيوانات يدبر روحه الحيواني ولا يعترض، فإن الله ما كلفه كما أنه لم يكلف الموتى وإن كانوا سعداء.

فافهم ما ذكرناه لك تسعد، فإن هذه الحالة جهلها أكثر أهل الطريق فكيف عامة الفقهاء، فإذا عرفوا ما قلناه لم يقدروا على إنكاره، وإنما يحجبهم عن ذلك ما يرونه من حركاته الطبيعية من أكلٍ وشربٍ ونكاحٍ وشبه ذلك، فيقولون: كما أنه ينكح ويأكل ويشرب فليصل، وتحجبهم الصورة الظاهرة الإنسانية وما يعلمون أنه حيوان في صورة إنسان، وأن نفسه الناطقة انقلبت إلى البرزخ انقلاب الموتى، وإن كان لها التفات إلى هذا الهيكل فمن أحل بلوغ الأجل المُسمَّى الذي للروح الحيواني في كل حيوانٍ يموت، فإن الموت إنما هو للحيوان لا للإنسان إلا من حيث كونه حيوانًا. فافهم فتعتقد في مجاذيب أهل الله، ولا تقتدِ بهم بخلاف عقلائهم»[1].

وقال في فتوحاته: من أراد أن يحفظه الله من غوائل المكر فلا يضع ميزان الشرع من يده، فمن وضعه من يده مكر الله به، قال: ومن أخفى المكر ما يقع من المؤولين لا سيما من يعتقد كل مجتهدٍ مصيبًا.

وقال في الباب الثامن ومائتين: «منها: من أراد أن يحفظه الله من التزين فليقف عند ظاهر الكتاب والسُّنة، ولا يزيد على الظاهر شيئًا إلا بدليلٍ، فإن التأويل قد يكون من التزين، فما أعطاه الظاهر جرى عليه بشرطه المذكور وما تشابه منه، وكل علمه إلى الله تعالى وآمن به، ومثل هذا يكون متبعًا للشريعة، ليس للتزين عليه سبيل، وهو صاحب علم صحيح».

(١) وانظر: شرح روحانية الكردي، وهي الأجوبة العربية على الأسئلة اليوسفية أيضًا (تحت قيد الطبع بتحقيقنا).

وقال ﷺ في كتاب «التدبيرات الإلهية في إصلاح المملكة الإنسانية» بعد بسط مقدمة في الوسط وأنه محل الاعتدال:

«فنقول: الإنسان لا يخلو أن يكون واحدًا من ثلاثة بالشرع، وهو أن يكون إما باطنيًّا محضًا، وهو القائل بتجريد التوحيد عندنا حالاً أو فعلاً، وهذا يؤدي إلى تعطيل أحكام الشرائع وقلب أعيانها، وكل ما يؤدي إلى هدم قاعدة من قواعد الدين فهو مذمومٌ باطلٌ، عصمنا الله وإيَّاكم من ذلك.

وإما ظاهريًّا محضًا بحيث يؤديه إلى التجسيم والتشبيه، فهو مثل ذلك ملحق بالذم شرعًا.

وإما جاريًا مع الشريعة على فهم اللسان حيثما مشى الشارع مشى، وحيثما وقف قدمًا بقدم، وهذا هو الوسط، وبهذا تصح محبة الله تعالى له، قال تعالى: ﴿**فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ**﴾ [آل عمران:٣١]، فباتِّباع الشارع واقتفاء أثره صحَّت محبة الله للعبد، وغُفرت الذنوب، وحصلت السعادة الدائمة».

ولنذكر لك مدحه لهذا الكتاب فتسعى في تحصيله، فإنه جمع بين القشر واللباب، فقد قال في خطبته:

«**أما بعد**.. حقق الله سرك بحقائق الوصال، وجعلك من الساجدين بالغدو والآصال، فإنني بنيت هذا الكتاب الصغير الحجم، اللطيف الجرم، العظيم الفائدة، الكثير العلم، المستخرج من العلم اللدني وألقاب العداني، والمُسمَّى في الإمام المبين الذي لا يدخله ريب ولا تخمين، بالتدبيرات الإلهية في إصلاح المملكة الإنسانية، وهو يشتمل على مقدمة وتمهيد وأحد وعشرين بابًا من دقائق التوحيد في الملك الذي لا يبيد، على التدبير الحكمي والنظم الإلهي، وجاء غريبًا في شأنه ممزوجًا رمزه ببيانه، يقرؤه الخاص والعام ممن كان في الحضيض الأوهد ومستوى الجلال والإكرام.

قال تعالى: ﴿**قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ**﴾ [الأعراف:١٦٠] ففيه للخواص إشارة لائمة، وللعوام طريقة واضحة، وهو لُباب التصوف، وسبيل التعرَّف لحضرة التشرف والتعطف، يلمح به الواصل والسالك، ويأخذ حظه منه المملوك والمالك، يعرب عن حقيقة

لإنسان وعلو منصبه على سائر الحيوان، وأنه مختصر من العالم المحيط، مركب من كثيفٍ وبسيطٍ، لم يبقَ في الإمكان شيء إلا أودع فيه في أول مبانيه، حتى برز على غاية الكمال، وظهر في البرازخ بين الجلال والجمال، فليس في الوجود بخل، ولا في القدرة نقصان، صح ذلك عند ذوي العقول الراجحة بالدليل والبرهان.

ولهذا قال بعض الأئمة: وليس أبدع من هذا العالم في الإمكان، والله يؤيدنا بالعصمة ولطيف الحكمة، إنه فياض النعمة واسع الرحمة».

ولو أردنا أن نسرد عباراته البديعة في مؤلفاته الرفيعة، التي تدعو للقيام بناموس الشريعة، وترك ما خالفها من الأمور الفظيعة، الموجبة للطرد والقطيعة، لرأيت ما يؤذن بكمال الاتِّباع من هذا الإمام المرشد على بصيرة من أمه من الأتباع، ومع كونه بنصرة الشريعة المحمدية صادح لم يخل في زمانه ولا بعده من قادحٍ ومادحٍ، لعزة مراقي كلامه ودقة أذواقه وأفهامه، وضربه قفا الأوهام بباتِر حسامه، ونشره أعلام أعلامه على نحارير وقته وأعلامه.

فمن كشف له عما كشف أو رشف مما رشف، سلم لذوقه ووجد أنه والبعض استسلم لوجود إذعانه، وأنكر الجم الغفير لعدم وجود التحقق وفقدانه، وبعضهم قصد ردع العوام والجاهل بالاصطلاح خوف افتتانه، فإن رموزه يعسر حلها إلا على من شرب صرف دنانه، وكان من أنصار مشربه العالي وأعوانه، ولهذا أنكر عليه عرفًا الأسرار وشرفًا الأسرار من أهل زمانه، وجاء من بعد فمنهم من اعترف وبكأسه اغترف في سره وإعلانه، ومنهم من سهاه وقتًا وأثنى عليه آخر بأنه سيد أقرانه، وهذا حال الأخفياء الأتقياء الأصفياء الأبرياء والضنائن المضنون بهم، والحسان المقصورات في خيام الصون؛ لأنهم عرائس المملكة الإلهية، ونفائس نتائج ثمرات الكون، وهو الذي أقرت أساطين الحكماء وسلاطين العلماء بالعجز عن مدارك ألغازه، وفتح أقفال كنوزه، ومعرفة حقيقة ذلك من مجازه، فكيف يروم فهمه من لم يفرق بين الضرب والضرب والأرب والأرب، ولا حل إشكال الإشكال ولا استطعم من هذه المطاعم، ولا ذاق هذا المطعم الناعم، ولا سلك في مسالك الطريقة، بل هلك في مهالك الحقيقة، وقطع أحبال الوصلة، فانقطع

وتفرق شمل قربه فما اجتمع. نسأل الله تعالى لنا السلامة ولشيطاننا كي نسلم منه إسلامه.

ومن أثنى على هذا الإمام الموصوف بأنه خاتم الولاية الخاصة المحمدية وبدرها التمام شيخ الشيوخ أبو مدين الغوث الأفخر، وسمّاه ﷺ بالكبريت الأحمر والشيخ الأكبر، ولما اجتمع به الإمام السهروردي وتفرقا ولم يتحدثا سُئل الشيخ عنه: كيف وجدته؟ فقال: مملوءً بالسُّنة. وسُئل هو عن الشيخ فقال: وجدته بحرًا من الحقائق.

وشهد له بالقطبانية العز بن عبد السلام سلطان العلماء حين سأله تلميذه عن القطب فدله على الشيخ، فسأله عن إقرار تلميذه لما مثل الزنديق به. فقال: هذا مجلس الخاصة، وذاك مجلس الفقهاء، والحكاية مشهورة.

وقد رد القاضي زكريا على صاحب الروض قوله في باب الردة: من شك في كفر اليهود والنصارى وطائفة ابن العربي فهو مرتدٌّ بأحسن رد.

وقال الشيخ أحمد بن حجر رحمه الله تعالى في آخر شرح الهمزية عند قوله:

والكـــرامات منهم معجزات حازهَـــا مِـــن نِوالك الأولِياء

«واعلم أن من الكفر الصراح ما حُكي عن بعض الكرامية أن الولي غير النبي قد يبلغ درجة النبوة، وأن الولي قد يبلغ حالة يسقط عنه فيها التكليف.

قال الشيخ الغزالي: «وقتل واحد من هؤلاء خير من قتل مائة كافر؛ لأن ضرر ذلك في الدين أشد».

وليس من أولئك العارفان العالمان المحققان الوليان المحيوي محيي الدين بن العربي، وسراج الدين عمر بن الفارض، قدَّس الله سرهما واتباعهما، خلافًا لمن زل فيهما قدمه وطغى قلبه، إلا أن يكون أزاد بما قاله الذب عن اعتقاد ظواهر عباراتهم المتبادرة عند من لا يحيط باصطلاحهم).

وألَّف السيوطي رحمه الله تعالى رسالة سمَّاها تنبيه الغبي في تبرئة ابن العربي، وألَّف سيدي علي بن ميمون رسالة في مدحه والثناء عليه والحط على المنكرين.

وقال العلاَّمة المحقق جلال الدين الدّواني رحمه الله تعالى في آخر راسلته التي جعلها في

صحة إيمان فرعون: «وأما من يقول بكفر الشيخ محيي الدين بن العربي من الملحدين فجهله ينادي عليه بالحاد، حيث تكلم على من لم يصل إلى كنه كلامه أساطين العلماء ونحارير الفضلاء، وعجزت أفكارهم عن فهم أسراره، والعجب أن تكلم بما لا يعلم اصطلاحهم، ومن لم يعرف شيئًا أنكره».

وقد شرح هذه الرسالة على القارئ وسمَّاها: «**قرة العيون فيمن يدَّعي إيمان فرعون**»، وأول كلام الشيخ الأكبر وردَّ على الدواني، ونقل فيها فتوى للحافظ بن حجر العسقلاني قال في آخرها:

أما الكلام في حضرة الشيخ فنقول: هو بحرٌ مواجٌ، لا ساحل له، ولا يُسمع لموجه غطيط، بل كلامه بكر صهباء في لجة عمياء، وأنشد الحاتمي الذي لا نعت يضبطه ولا مَقام يعنيه لدى الكون:

مَنْ قَالَ إن لَهُ نعتًا فليس له　　عَلم به علمه باد ومكنون

وقال السيد عبد القادر بن العيدروس في النور السافر عن أخبار القرن العاشر:

قلت: وحكى الشيخ الإمام العلاَّمة بحرق أنه سمع الشيخ أبا بكر العيدروس يقول: لا أذكر أن والدي ضربني ولا انتهرني إلا مرة واحدة، بسبب أنه رأى في يدي جزءًا من كتاب الفتوحات المكية لابن العربي فغضب غضبًا شديدًا فهجرها من يومئذ.

قال: وكان والدي ينهى عن مطالعة كتاب الفتوحات والفصوص لابن العربي، ويأمر بحسن الظن به وباعتقاد أن من أكابر الأولياء العلماء بالله العارفين، ويقول: إن كتبه اشتملت على حقائق لا يدركها إلا أرباب النهايات، وتضر بأرباب البدايات).

وقال الشيخ بحرق: وأنا على هذه العقيدة وأدركت عليه جماعة من المشايخ المقتدى بهم قلت: ووجدت بخط صاحب الترجمة الشيخ حسين الحضرمي الفقيه الصوفي ﷺ أن الإمام ولي الله تعالى محيي الدين النووي لما رأى كلامه وطالعه قال: الكلام كلام صوفي.

ثم قال الشيخ حسين: وهو كما قاله هذا الإمام، إن كلامه كلام الصوفية، وإنما هو بسط العبارة في موضع الإشارة، وما يجهله من ينكر على الصوفية.

ووجدت بخطه أيضًا ما صورته هذه الأبيات، وتصلح في الشيخ محيي الدين قدَّس الله سرَّه ﷺ وهي:

دَعـــوه لا تلومـــوه دعوه فقـــد علم الذي لم تعلموه
رأى علم الهدى فسما إليه وطالـــب مطلبًا لم تطلبوه
وأجـــاب دعائـــه لما دعاه وقـــام بحقـــه وأضعتموه
بنفسي افتدى ممنوح قرب وطـــاعم مطعمٍ لم تطعموه

وقد سُئل ابن كمال باشا في أمر الشيخ قدَّس الله سرَّه فأجاب:

«بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لمن جعل من عبادة العلماء المصلحين وورثة الأنبياء والمرسلين، والصلاة والسلام على سيِّدنا محمد المبعوث لإصلاح الضَّالين والمضلين، وعلى آله وأصحابه المحبِّين لإجراء الشرع المبين، **وبعد**...

أيُّها الناس اعلموا أن الشيخ الأعظم المقتدى الأكرم، قطب العارفين وإمام الموحدين، محمد بن علي بن العربي الطائي الأندلسي، مجتهد كامل ومرشد فاضل، له مناقب عجيبة وخوارق عادية، وبلاغات كثيرة مقبولة عند العلماء والفضلاء، فمن أنكر عليه فقد أخطأ، وإن أصرَّ على إنكاره فقد ضلَّ، يجب على السلطان تأديبه، وعن هذا الاعتقاد تحويله؛ إذ السلطان مأمور بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وله مصنفات كثيرة منها: فصوص حكمية، وفتوحات مكية، وبعض مسائلها معلوم اللفظ والمعنى، وموافق للأمر الإلهي والشرع النبوي، وبعضها خفي عن إدراك أهل الظاهر دون أهل الكشف والباطن، فمن لم يطلع على المعنى المرام يجب عليه السكوت في هذا المقام؛ لقوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً**﴾ [الإسراء:٣٦]، والله الهادي إلى الصواب وإليه المرجع والمآب».

وسُئل العلاَّمة مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي صاحب القاموس ﷺ بما هو صورته: ما تقول السادة العلماء شد الله بهم أزر الدين، ولَمَّ بهم شعث المسلمين في الشيخ

محيي الدين بن العربي، وكتبه المنسوبة إليه كالفتوحات والفصوص، هل يحل قرائتها وأقراؤها؟ وهل هي من الكتب المسموعة المقرؤه أم لا؟ أفتونا جوابًا شافيًا لتحوزوا جزيل الثواب من الكريم الوهّاب.

فأجاب ﷺ: اللهم أنطقنا بما فيه رضاك الذي اعتقده في حال المسئول عنه، وأدين الله تعالى به أنه كان ﷺ شيخ الطريقة حالاً وعلمًا، وإمام الحقيقة حقيقةً ورسمًا، ومحيي رسوم العارفين فعلاً واسمًا، مفردًا إذا تغلغل فكر المرء في طرفٍ من علمه غرقت فيه، خواطره عباب لا تدركه الدلاء، وسحاب تتفاصر عنه الأنواء، كانت دعواته تخرق السبع الطبا،ق وتفرق بركاته فتملأ الآفاق، وإني أصفه وهو يقينًا فوق ما وصفته، وناطق بما كتبته، وغالب ظني أني ما أنصفته، وفيه أقول:

ومَا عَلَيَّ إذَا مَا قُلت معتقدي   دع الجهول يظن الجهل عدوانًا
والله بـــالله تـــالله العظم ومن   أقامـــه حجـــة للديـــن برهانًا
إن الذي قلت بعض من مناقبه   ما زدت إلا لعلّي زِدت نقصانًا

وأما كتبه ومصنفاته فالبحار الزواخر التي جواهرها لكثرتها لا يُعرف لها أول من آخر، ما وضع الواضعون مثلها، وإنما خصَّ الله بمعرفة قدرها أهلها، ومن خواص كتبه أنه من واظب على مطالعتها والنظر فيها انشرح صدره لفك المعضلات وحل المشكلات، وهذا الشأن لا يكون إلا لمن خصَّه الله تعالى بالعلوم اللدنية الربَّانية، ووقفت على إجازة كتبها للملك المعظم.

فقال في آخرها: فأجزت له أن يروي عني مصنفاتي، ومن جملتها كذا وكذا، حتى عدَّ نيفًا وأربعمائة مصنف، منها التفسير الكبير الذي بلغ فيه إلى تفسير سورة الكهف عند قوله: ﴿**وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً**﴾ [الكهف:٦٥]، فاستأثره الله تعالى وتوفى ولم يكمل هذا التفسير، كتابٌ عظيمٌ كل سفرٍ منه بحرٌ لا ساحل له، ولا غرو فإنه صاحب الولاية العظمى والصديقية الكبرى فيما نعتقده وندين الله تعالى به.

وثم طائفة في العمى يعظمون عليه النكير، وربما بلغ بهم الجهل إلى حدِّ التكفير، وذلك لقصور أفهامهم عن إدراك مقاصد أقواله وأفعاله ومعانيها، ولم تنل أيديهم لقصرها

اقتطاف مجانيها، مفرد على نحت القوافي من معادنها، وما علي إذا لم تفهم البقر، هذا الذي نعلم ونعتقد وندين الله تعالى في حقِّه، والله سبحانه وتعالى أعلم».

وقد أشبع صاحب القاموس القول في الردِّ على المنكرين، وذكر مقالات المعتقدين شيخنا الشيخ عبد الغني قدَّس الله سرَّه آمين في كتابه الردَّ المتين على منتقض العارف محيي الدين[1]: «فمن سرح طرفه في رياض سطوره التي تصد من افترى، وشرح حرفه الذي من فهمه رد الجهول الذي اجترا، علم أنه جمع فأوعى، وأن كل الصيد في جوف الفرا».

وقد امتدح الشيخ بقصيدةٍ فريدةٍ مطلعها:

خذا حيث هبَّت نسمة البان والرند وعوجًا على تلك المعالم من نجد
وبَثا غَرامًا يَا خليلي كلما طفته دموع العين يزداد بالوقد
وزورا ضريحًا من أتَاه فإنه ببهجة محيي الدين في جنَّةِ الخُلْد

وهي قصيدة يحق لها أن تُكتب بماء العيون على طرس القلوب بقلم السر المصون، وما وضعها الشيخ حتى جاءته الإشارة على يد أحد تلامذته الأبرار، وذلك أنه رأى الشيخ الأكبر قدَّس الله سرَّه في الأسرار ينشد جناب الشيخ هذين البيتين وهما:

أيا ربة الألحان ديري كؤوسنا على مَنْ لهم في الحبِّ أوفر منصب
وحبي أناسًا قد شغفنا بحبِّهم لهم منحة مِنا وود مقرب

وزاره مرة ومعه بعض تلامذته، ثم إنه التزم الضريح سويعة والتفت إليهم وأنشد:

لا تلمني إذا التزمت ضريحًا لحبيبي فَإنني مشتاقٌ
عانقت روحه لروحي سرًّا فبدا في ترابنا الاعتناق

وألف شيخنا المشار إليه أسبغ الله نعمه عليه رسالة سمَّاها: «السر المختبي في ضريح ابن العربي».

ولقد رأيته ﷺ في مبشرة أنه عندي في الخلوة الكائنة في البادراية وهناك أناسٌ،

---

(١) هذه الرسالة مع رسائل أخرى في نفس الموضوع لدينا نعدها بفضل الله وعونه للتحقيق.

ووجدت في نفسي بمشاهدته سرورًا، ووجهه يتهلل بهجةً ويتلألأ نورًا، وإذا برجلٍ دخل علينا وصار يفرق دنانير، ولم يعطِ بعض من حضر، فآثره الشيخ بنصيبه فاقتديت به، ورميت له بما دفع لي ذلك الرجل، وما شعر الرجل بما رميته له، فقال له الشيخ: خذ ما رمى به السيد مصطفى، فأخذه ورأى بعض من لم يحسن فينا اعتقاده، ولا صفا لنا وداده، أنه عند مرقده السامي.

قال: فلما نزلت ودخلت المقام رأيت الشيخ جالسًا على الصفة التي تلي المرقد.

قال: فتقدمت إليه فإذا هو أنت، ثم رجعت فرأيته الشيخ، ثم تقدمت فرأيته أنت، وهكذا مرارًا والشيخ يبتسم، ولما بلغ أخونا الشيخ مصطفى بن عمر وأنه وقع له ما وقع قال: عساه أن يعتقد، ولقد انتفعت بمطالعة كتبه كثيرًا، ورأيت لها مددًا غزيرًا، فله على مشيخةٍ بهذا الاعتبار وتربية سحبها هطلة بفيضٍ مدرارٍ، وبهذا سمي والد الأبناء الروحانيين في كل عصرٍ وحينٍ.

واتفق لي في المنام في مسجده ليلات كثيرة، وكانت بجلوسي في عتباته والتماسي من بركاته منيرة، ورأيته غير هذه المرة وأنا على شكٍّ منها، فلهذا عدلت عنها وأخبرت صديقنا المرحوم الأكرم الشيخ إبراهيم بن الأكرم فقلت له: إني أجد إذا دخلت باب مسجد الشيخ كأني أُلبست ثوبًا باطنيًّا غير الذي كنت لابسه، وإذا خرجت رأيت كأنه نُزع عني، فقال رحمه الله تعالى: إني أدركت هذا الأمر وما كنت أظن أنه يقع لغيري، ومن طالع كتابي الأسرار والمشاهد والتجليات التي تحير المشاهد، وغيرها من كتبه الدالة على علو مقامه كالشواهد، علم أن مقامه لا ينال إلا عن فيض أقدسي لا بمجاهدة مجاهد.

قال سيدي أحمد القشاشي ﷺ في آخر رسالة وحدة الوجود بعد أن تعرض لذكر الشيخ:

فلو استقصى إنسان وتتبع مناقبه التي تُذكر بالسياق والتقريب في مصنفاته وفتوحاته، وما يُذكر فيها من غرائب أموره ومعايناته وحكاياته، وذكر مقاماته في أثناء كلامه من التجليات والهيئات لكان مجلدات.

فمن جملتها قوله في الفتوحات في باب الحب بعدما ذكر ممن ذاب من الحب وصار

ماء بين يدي شيخه، يقول: «كان حُبه طبيعيًّا لم يكن إلهيًّا، لذلك ذاب، وإلا لو كان إلهيًّا لثبت وما ذاب، ثم قال: والله ثم والله لقد أعطاني الله من هذه المحبة أو من هذا الحب والشدة ما لو وضع جزء يسير منه على السموات والأرض لذابتا، ولكن الله تعالى قوّاني عليها».

فانظر يا أخي في هذه الحالة وكيف يسع القول.

وقال في فتوحاته: «وهذا الكتاب مع طوله وكثرة أبوابه وفصوله ما استوفينا فيه خاطرًا واحدًا من خواطرنا في الطريق، وهي عشرون مجلدًا بتجزئته».

وقال: لقد أعطى الله للإنسان الكامل ألفًا ومائتين من القوة بحيث لو سلط قوة واحدة منها على الكونين لأعدمهما، وأمثال ذلك كثير في كتبه نفعنا الله به وبأمثاله من الأولياء فافهم، والأدب مع أولياء الله فالزم، فإن الله سبحانه وتعالى قال: « **مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ** »[(١)(٢)].

(١) رواه البخاري (٢٣٨٤/٥)، وابن حبان (٥٨/٢).

(٢) رواه البخاري (٦٥٠٢/١).

فائدة جليلة في شرح هذا الحديث: قلت: هو حديث عمدة في الإسلام، وقيل فيه: إن الإيمان به من أصعب ما جاء به الشرع لأنه يقتضي الإيمان بمن هو مثلك في الصفات البشرية باعتباره محلى بصفات الحق تبارك وتعالى، فيسمع بسمعه ويبصر ببصره، وها أنا أذكر لك طرفًا من أقوال أهل العلم الثقات في هذا الباب الذي فيه تصريح بمكانة الأولياء الذين ابتلوا بمعاداتهم والإنكار عليهم.

قال الشيخ عبد الوهاب الشعراني: اعلم أن طريق القوم مشيَّدةٌ بالكتاب والسنة، وأنها مبنيَّةٌ على سلوك أخلاق الأنبياء والأصفياء، وأنها لا تكون مذمومةً إلا إذا خالفت صريح القرآن أو السنة أو الإجماع لا غير، وأمَّا إذا لم تخالف فغاية الأمر أنه فهمٌ أوتيه رجلٌ مسلمٌ، فمن شاء فليعمل به، ومن شاء تركه.

ونظير الفهم في ذلك الأفعال وما بقى الإنكار في ذلك إلا سوء الظن بهم، وحملهم على الرياء، وذلك لا يجوز شرعًا، ثم أن العبد إذا دخل طريق القوم وتبحَّر فيها أعطاه الله تعالى هناك قوة الاستنباط نظير الأحكام الظاهرة على حدٍّ سواء، فيستنبط في الطريق واجبات ومندوبات وآدابًا ومحرَّمات ومكروهات نظير ما فعله المجتهدون، وليس إيجاب مجتهدٍ باجتهاده شيئًا لم تصرِّح الشَّريعة بوجوبه أولى من إيجاب وليِّ الله تعالى حكمًا في الطريق لم تصرِّح الشَّريعة بوجوبه.

وإيضاح ذلك أنهم كلهم عدولٌ في الشرع اختارهم الله تعالى لدينهم، فمن دقَّق النظر علم أنه لا يخرج

ولقد كتب بعض المحبين بيتين وعلقهما على بابه الرفيع وأشار فيهما إلى أنهما من هدى خير شفيع فقال:

إذَا ضَاقَتْ بكَ الأيَّام ذرعًا فلـذ بجانب قَبر الحاتمي
فهـذا البابُ يُقْصَدُ للأمَانِي وَهَـذا الهَدي من هَدي النَّبي

=

قال رحمه الله تعالى: ولا أرى عالمًا مُنصفًا إذا نظر وتأمل في أحواله وأعماله يحكم لنفسه أنها بريئةٌ من هذه الآفات، ولو سلَّم أن العالم بريء من هذه الآفات المذكورة وأن لعلمه فضلاً فعلمه يورثه خشيةً من الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر:٢٨]، لا جرأة على الله تعالى، وأمنا منه، وكبرًا على عباده، وعجبًا عليهم، فلهذا صار الأنبياء عليهم السلام متواضعين خاشعين لم يكن فيهم كبرٌ ولا عُجْبٌ، فحقُّ العبد ألا يتكبَّر على أحد، فإن نظر إلى جاهلٍ يقول: هذا عصى الله تعالى بجهلٍ، وأنا عصيته بعلمٍ، فهذا أعذر منِّي، وإن نظر إلى عالمٍ يقول: هذا عَلِم ما لم أعلم فكيف أكون مثله، وإن نظر إلى أكبر منه سنًا يقول: إنه أطاع الله قبلي، وإن نظر إلى صغير يقول: إني عصيت الله تعالى قبله، وإن نظر إلى ما يساويه سنًّا يقول: إني أعلمُ بحالي ولا أعلم حاله، والمعلوم أولى بالتحقير من المجهول، وإن نظر إلى مبتدعٍ أو كافرٍ يقول: ما يُدريني لعله يُختم له بالإسلام، ويختم لي بما هو عليه الآن، وإن نظر إلى كلبٍ أو خنـزيرٍ أو حيَّة أو عقربٍ أو نحوها يقول: هذا لم يعصِ الله تعالى، فلا عتاب ولا عقاب عليه، وأنا عصيته فأنا مستحقٌّ لهما، فيكون مصروف الهم إلى نفسه، مشغول القلب بعيبه؛ لخوف العاقبة عن عيب غيره، فإن قلتَ: فكيف أبغضُ المبتدع والفاسق في الله وقد أمرت به، وكيف أنهاهُما عن المنكر مع رؤية نفسي دونهما؟

قلتُ: تبغض وتنهي لمولاك؛ إذ أمرك بهما لا لنفسك، وأنت فيهما ترى نفسك ناجيًا وصاحبك هالكًا؛ بل يكون خوفك بما علم الله تعالى من خفايا ذنوبك أكثر من خوفك عليهما مع الجهل بالخاتمة، فتكون كغلامٍ مَلكَ أمره بمراقبة ولده والغضَب عليه، وَضربه مهما أساء، فيغضب عليه، ويضربه عند الإساءة امتثالاً لأمر مولاه، وتقربًا له به بلا تكبُّرٍ عليه؛ بل هو متواضعٌ له يرى قدره عند مولاه فوق قدر نفسه، فكذلك عليك أن تنظر إلى المبتدع والفاسق، وتقول: ربما كان قدره عند الله تعالى أعظم؛ لما سبق لهما من حسن العاقبة في الأزل، ولما سبق لي من سوء العاقبة وأنا غافلٌ عنه، فتغضب وتنهي لحكم الأمر محبةً لمولاك إذا جرى ما يكرهه مع التواضع لمن يجوز أن يكون أقرب منك عنده في الآخرة انتهى.

فالحاصل: الإنكَار على أولياء الله تعالى لا يكون إلا من سوء النيَّة، وخبث الطويَّة، كما قيل:

كـلُّ امـرِئٍ يُشـبهُه فعلُـه وينضـحُ الكُـوزُ بمـا فـيهِ

وقلت مخمسًا لها سابقًا:

لمن قد طاب سر أصلاً وفرعًا ... وللآداب فِي الأسرار فارعًا
ودم بـــالذل في الأبوابِ قرعًا ... إذا ضَـــاقَتْ بِكَ الأيامُ ذرعًا
فَلُذْ بجناب قبر الخاتمي
فتى في حضرة الحضرات داني ... وعن رؤيا جمال الغير فاني
فَـــيمم بابـــه تَجـــد التهاني ... فهذا الباب يُقصد للأماني
وهذا الهدي من هدي النبي

وقولنا: (وعن رؤيا) جعله الحريري من لحن الخواص، وناقشه ابن بري فذكر أن أصل الرؤيا أن تكون في المنام، إلا أن العرب قد استعملتها في اليقظة.

وأنشد قول الراعي يصف ضيفًا طرقه ليلاً:

رفعت بها شتوية عصفت لها ... صَـــبا تَزدهيها مَرة وتغيمها
فكـــبر للـــرؤيا وهش فؤاده ... وبشر نفسًا كان قبل يلومها

قـــال: وعـــلى هذا فسر في التنـــزيل، وعليه جملة المفسرين وهو قوله: ﴿**وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ**﴾ [الإسراء:٦٠]، يعني ما رآه ليلة المعراج، فكان نظرًا في اليقظة دون المنام، كذا في بحر العوام فيما أصاب فيه من العوام، وشطرتهما فقلت:

إذَا ضَـــاقَتْ بِـــكَ الأَيَّـــامُ ذرعًا ... فـــيمم مـــرقد الـــنبي الذكـــي
وإنْ نَابَـــتْكَ نائـــبة اللـــيالي ... فلـــذ بجـــناب قـــبر الخـــاتمي
فهـــذا الـــبابُ يُقْصَـــدُ للأمـــان ... وقاصـــده يـــنال رضـــا العـــلي
وهَـــذَا الفـــيضُ مِنْ فَيْضِ التجلّي ... وهـــذا الهـــدي مـــن هدي النبي

وقلت مادحًا على جنابه لما انتشقت عبير أكوابه، وتراميت في أعتابه مترجيًا شرب شرابه:

لا تختشـــــي طَـــرْدًا وبُعْـــدًا ... إن جـــزت فِـــي أكـــنافِ سعدا
ووقفـــــتُ فِـــــي ذَاكَ الـــربا ... وشممـــــت أزهـــــارًا ونـــــدا

وشَربت مِنْ صهبائه ... صرفًا وما جاوزت حدا
وسكرت مِنْ حُسْنِ الَّذي ... سكنوا به ما خنت عهدا
وأقمت فِي عتباتِهِم ... إذ لم تجد من ذاك بدا
قَوْمٌ محب جمالهم ... مَا زال في الأبوابِ عبدا
بالسفحِ من قاسون قد ... نزلوا فطاب هناك وردا
ولقدْ سَمَتْ أنوارهم ... شمس الظهيرة فيه وقدا
شم ولذ بجناهم ... إن رمت للتحقيق تهدي
واقصد لمحيي الدين من ... قد نال تقريبًا وودا
ورقا لأعلى ذروة ... وسما افتخارًا بل ومجدا
الحاتمي الخاتمي ... مَنْ سَادَ آباءًا وجدا
وببابه قف برهةً ... تُعْطَى مُنَاك ولن تردا
وأجرى بِه ماء العيون ... وخددن بالدمعِ خدا
شهم أسود الغاب تَأ ... تي حية فتنال رفدا
وتجيء للأعتاب صا ... غرة وفيها تبدُ وجدا
ولكتبِه فَادرِسْ لعل ... تزيل عنك صدًّا وصدا
والقلبُ طهره بما ... ءِ علومه كي تلقَ رشدا
لا تعد عن هذا وكُنْ ... في حبٍّ محيي الدين فردا
واحذرْ تَكُنْ مِنْ أَهْلِ الإنـ ... ـكار الذي يردي فتردا
كالزادلية بل فذق ... شهد المعارف وانح قندا
وانهج مناهجهم وشد ... وشاح عزم منك شدا
واعرف مقام محمد الـ ... ـعربي واغرف منه جهدا
أشرف على حاناته ... أشرف بشرب الرَّاح قصدا
فعليه ما فاح الشَّذا ... أزكى سلام الله يهدا

وعلى جميع القائلين بقوله قبلاً وبعدا
ثم الصلاة مع السلام على الذي للنور أبدا
والآل والأصحاب ما سعد الذي قد أمَّ سعدا
أو ما بشير صائح لا تختشي طردًا وبُعْدا
أو مصطفى البكري أملي وجد قلب ذاق فقدا

وقال الشعراني ﷺ في كتابه المُسمَّى بالجوهر المصون والسر المرقوم فيما تنتجه الخلوة من الأسرار والعلوم[١]:

«ومنها: أي من علوم الخلوة أن يفتح عليه: أي على المختلي بما شاء الله من نواطق الأولياء، كما وقع لأخي الشيخ أبي العباس الحريثي، والشيخ عمر البجاري، ففتح على الأول بناطقة الشيخ عبد القادر الجيلي، وفتح على الثاني بناطقة سيدي أبي الحسن الشاذلي، وسيدي علي بن وفا، ولم يكن يعهد منهما قبل الخلوة شيء من ذلك، وكانت خلوة أخي أبي العباس أربعين يومًا، وخلوة الشيخ عمر البجاري سبعة أيام كما أخبرني بذلك.

وأكمل من بلغني أنه أعطى نواطق غالب الصوفية الشيخ محيي الدين بن العربي ﷺ، وكانت خلوته ثلاثة أيام بلياليها في قبرٍ مندرسٍ، ثم خرج بهذه العلوم التي انتشرت عنه في أقطار الأرض، وكان والده موقعًا عند بعض ملوك المغرب، ولم يكن يعهد منه علم واحد مما أبداه في كتبه قبل تلك الخلوة، كما ذكر الشيخ عز الدين بن جماعة والشيخ مجد الدين الفيروزابادي صاحب القاموس ﷺ».

ونقل عنه تلميذه الشيخ إسماعيل بن سودكين ﷺ أنه قال:

«ولقد كانت خلوتي من الفجر، وكان فتحي قبل طلوع الشمس، ثم بعد الفتح جاءني الترتيب في الإبكار وغيرها من المعاني، ولزمت مكاني أربعة عشر شهرًا، وحصل لي بذلك الأسرار التي ألفتها جميعًا بعد الفتح، وكان فتحي جذبة في تلك اللحظة. والمنة لله تعالى».

---

(١) تحت قيد الطبع هو وختصره إرشاد الطالبين إلى مقامات العلماء العاملين، (بتحقيقنا).

وقال في رسالة «الأنوار فيما يمنح به صاحب الخلوة من الأسرار»: «وقد أدخلت: أي الخلوة مريدًا لنا بذكر سهل بن عبد الله الذي أعطاه خاله، وهو محمد بن سوار وهو: «الله معي، الله ناظرٌ إلَيَّ، الله شاهدٌ عليَّ»، ففتح له في أربعة أيام، وأما أنا ففتح لي في ربع ليلة. وأدخلت شخصًا بنيةٍ عليةٍ بذكر: «سبحان الله العظيم وبحمده» فرفع من ليلته».

والفيروزابادي بكسر الفاء، وقال ابن خلكان بفتحها وسكون التحتية، وضم الراء وسكون الواو، وفتح الزاي والموحدة آخره زاي معجمة نسبة إلى فيروزباد بلدة بفارس، وقيل هي مدينة جور، كذا قيل.

فعلم مما قاله الشعراني ﷺ وحكاه الشيخ قدَّس الله سرَّه أن للخلوة أثرًا في الفتوح على السالك ينشأ عن إذن السيد المالك، ولهذا اتخذها السادة الخلوتية قبورًا لما رأوا بها بسطًا وحبورًا، وجعلوا لها شروطًا وآدابًا تُفتح لمن أمَّها في كل خيرٍ بابًا، ولقد ذكرت بعض تلك الشروط والآداب في رسالةٍ سميتها: «هدية الأحباب فيما للخلوة من الشروط والآداب».

وسمعت أناسًا ينكرون على خلوتية الشام بعض أمور يفعلونها في الخلوة التي يجعلونها في ثلاثة أيام في كل عامٍ؛ لعدم معرفتهم باصطلاح أولئك الأقوام، ومداركهم التي تدق على الأفهام، فألفت بسبب ذلك رسالة سميتها: «بلوغ المرام في خلوة خلوتية الشام».

وكنت يومًا في الخلوة التي هي داخل مسجد الأستاذ الأكبر والملاذ الأفخر، فجرى بيننا وبين صديقنا الشيخ إبراهيم المرحوم ذكر تضمين: «وكل إناءٍ بالذي فيه ينضح أو يرشح»، فأنشدني بعض تضامين فيه، فأنشدته مرتجلاً.

وفِي عِشْقِ ذَاتِ الخالِ لامت عصابة ... يظنون أني لست بالروحِ أسمحُ
يقيسون حَالِي فِي الغرَامِ بحَالهم ... وكل إناءٍ بالذي فيه ينضحُ

ثم أنشدني رحمه الله تعالى لنفسه مرتجلاً:

ولما بَدَا ريان مِنْ خمرةِ الصبا ... وعنبر ذاك الخال بالخدِّ ينفحُ
فأخجلته فارفض ورد بخدِّه ... وكل إناءٍ بالذي فيه يرشحُ

ثم أنشدته أيضًا:

وذات جـبينٍ يخجل البدر نوره ... وقد لقد ألبان إذ بان يفضحُ
بدت فاهتدى مَنْ ضَلَّ في ليل شعرها ... بنور محياها الذي ليس يشرحُ
ومذ أقبلت للجسمِ مني انحلت ... وأضحت بسهم الجفن للقلبِ تجرحُ
وقالت وقد مَالَتْ عواطفها التي ... لقد عطفت حربًا وللسلمِ أجنحُ
أتسلو جمَالِي قلت روحي ومهجتي ... فقالت أتسخو قلت بالكل أسمحُ
تظن سلوا من فؤادي لحسنها ... ومَا ذَاكَ إلا أنها فيه تمرحُ
وما علمت أني لها لست ساليًا ... وأني بعشقي ذاتها عفت أمزحُ
ولكنها قاست غرامي بحبِّها ... وكل إناءٍ بالذي فيه ينضحُ

وأنشدته في تلك الحالة، وجعلته في المنكرين على سيدي محيي الدين من أهل البطالة؛ لأنا في حانة قربه أنعم بتلك الحانة وهاتيك الحالة:

وفي حُبِّ محيي الدين قومٌ تولَّعوا ... وفي حبِّه حَازُوا وجَازُوا وأَفْلَحُوا
وقومٌ من الإنكارِ حَادُوا عَن الهدى ... ومَالُوا ومَا نَالوا المنا بالَّذي نحوا
وكل فريقٍ قد رأى نعت نفسه ... وكل إناءٍ بالذي فيه يرشحُ

وقلت في مدحه سابقًا:

قُومُوا بِوَجْدِي أَيُّهَا الطَّلبُ ... إنِّي عَن المحبوبِ لاَ أَرْغَبُ
وَاسْتَنْشقُوا عزف نَسِيمٍ سرى ... مِنْ حَاجِرٍ فَهُو الشذَا الطَّيبُ
ثمَّ اسمعوا ألحان ذَاكَ الربَا ... فَهُو السَّمَاعُ الرَّائقُ الأَطْيَبُ
ثمَّ اشْطَحُوا فالسحبُ قَدْ أَقْشعت ... وَالشَّمْسُ لاَحَتْ وَالطلاَ يَسكبُ
وَالكَأْسُ قَدْ طَافَتْ بِهِ سَادَة ... مِن نورِهِمْ نجم السوي يغربُ
قَوْمٌ يودُّ البدر أَنْ لَوْ سَعَى ... لبَابِهم كيمَا لهم ينسبُ
وَكُلّمَا قَدْ عَزَّ أَوْ مَا سَمَا ... يرجى عليهم فِي الوَرى يحسبُ
فَيَا أهيل الحبِّ هيمُوا بِهِمْ ... سُكْرًا إِذَا لاَحَ السنا وأطربُوا

ثمَّ انهَبُوا الأَوْقَاتَ فِي ذِكْرهم ... مِنْ قبل مَا العُمْر بِهَا ينهبُ
وَبِاسمهم أَهْلُ الهَوَى زَمزمُوا ... مَا دَامَ عـذَّال الجـوا غيبُ
أواه مَا أَحْلَى لَيَالٍ بِهَا الأَم ... حْبَابُ لِلْمَعبود قَدْ قربُوا
بِاللهِ يَا أَهْلَ الحِمَا عطفة ... بمَنْ يَرَى تَعْذِيبكم يعذبُ
وَيَا رَفِيْقِي إِنْ تَكُنْ رَافِقًا ... بِطَامِعٍ مَا مِثله أشعبُ
فَقُلْ لِضَوْءِ الصبحِ لاَ تَنْجَلِي ... وَلِلدجَا أَذْيَالـه يسحبُ
وَلِلنجُومِ السَّاهِرَات اثْبتِي ... وَقُلْ لهم إِيَّاكُمْ تَغْرُبُوا
فَإِنَّ وَقْتِي طَابَ بِالمنحنى ... وَهَانَ مَا قَدْ كَانَ يَسْتَصعبُ
وَقَدْ صَفَا لِي العَيْشُ مِنْ بَعْد مَا ... قَدْ كَانَ بالأَكْدَارِ يَسْتَصحبُ
وَدَارَتْ الأَفْرَاحُ مَا بَيْنَنَا ... فَأَيْنَ مِنْ قُرْبِ اللقَا يخطبُ
وَأَيْنَ من فِي السُّكْرِ كلمَاتهم ... مملُوؤة فِيْهَا لقد غيبوا
وَأَيْنَ مَنْ يَرْجُو اللقا باذلاً ... لِلروحِ كيمَا لِلخبَا يقربُ
وَأَيْنَ مَنْ أَفْنُوا بِهِ عنهم ... وَأَيْنَ مَنْ فِي الحُبِّ لَمْ يُحجبُوا
وَأَيْنَ أَهْلُ الصدقِ فِي سيرهم ... قَوْمٌ عَنِ الأحبَاب لَنْ يغربُوا
قَوْمٌ سَنَا نُورهم فِي الدُّجَى ... يَغْنى عَنِ البدرِ الَّذِي يغربُ
فَهُمْ نجُومٌ لِلَّذِي يَهْتَدِي ... وَهُمْ مَلاَذٌ لِلَّذِي يرهبُ
وَإِن مِنْهُم محيي دين الورَى ... من قَدْ عَلاَ الشَّرق بِهِ المغربُ
الكَامِلُ البَحْرُ الهمَامُ الَّذِي ... مَا مِثله لِلفضلِ مستوجبُ
الحَاتِميُّ الأَصْلُ بِلْ خَاتم لِلأَ ... وْلِيَاءِ من للعلاَ يجذبُ
ومن رقَا أوج المعَالِي إِلى ... أَنْ نَالَ أعلى رتبةٍ تطلبُ
فكم لَنَا أبدى معانٍ لهَا ... أَهْلُ المزَايَا قط لَمْ يعربُوا
وَكَمْ لَهُ كتبٌ سَمَا شأْوُهَا ... تَاه بِهَا المسلوبُ والمسلبُ
مِنْهَا الفتوحات الَّتِي مثلها الـ ... كتاب طول الدَّهر لا تكتبُ

وكُــلُّ مَــا أَبْــدَاهُ مِــن بَحْرِهِ فَهُــو العجيبُ المفحمُ الأعجبُ
أَلفَاظــهُ الــدُّر الــثمان الَّــتي كــل الــوَرَى فِــي نيلهَا تَرْغَبُ
فَــيَا حَبِيْــبًا حُــبه مَذْهَــبِي وَقَــدْ كَفَــانِي شَــرَفًا يُحسبُ
كُــنْ لِــي إِذَا مَــا لزمة أنشبت أَظفَارهَــا إِنِّــي لَكُــمْ أُنســبُ
وَإِنَّــنِي عَــبْدٌ لَكُــمْ أرتجِــي بِكَاســكُمْ مِــنْ خَمْرِكمْ أَشْرَبُ
عَلَــيْكَ يَــا سُــلْطَان أَهْلِ الولاَ سَــلاَم صَــب دمعــه يسكبُ
مَا اهتزَّت الأَغْصَان أَوْ حرك الــ وجــد لمــن حبــيكم أشــربُوا
وَصَــلِّ يَــا رَب وَسَــلِّمْ عَلَــى خَــيْر حَبِيــب لِلعُــلاَ يَذهــبُ
وَالآَل والأصــحاب أهْــل التُّقى مَــا غَــابَ نجمٌ أَوْ بَدَا كوكبُ
أَوْ مصــطفى قَدْ صَاحَ مِنْ سُكْرِهِ قُومُــوا بِوَجْــدِي أَيُّهَــا الطلبُ

والحاصل أن مقام الشيخ قدَّس الله سرَّه عالي المنار، غالي المقدار، لا يدرك المجد له قرارًا، ولا يشق المكد له غبارًا، وما جعلني أن أعرفك بما لمحت لك من عظيم شأنه إلاَّ أن هذه الفرقة الفارقة التي لم يظهر لها من بوراقه بارقة، تحتج ببعض أقواله الوثيقة التي هي عند أهل الحق راجعة للشريعة المُسمَّاة بالحقيقة، وتستند إلى رموزه الغامضة التي في مذاقهم حامضة، وهي حجةٌ ومحجةٌ لكن عند من عرف تأويلها، وكيف إلى الشريعة الغراء يكون تحويلها(١).

---

(١) قال الشيخ الكردي الموصلي في كتابه الانتصار للأولياء الأخيار في ترجمته:

كان من المترقعين عن بعض ملوك المغرب، ثم إنه طرقه طارق من عند الله تعالى، فخرج بالبراري على وجهه إلى أن نزل في قبرٍ فمكث فيه مدة، ثم خرج من القبر يتكلَّم بهذه العلوم التي نُقلت عنه، ولم يزل سائحًا في الأرض يقيم في كل بلدٍ بحسب الإذن، ثم يرحل منها ويخلف ما ألَّفه من الكتب فيها، وكان آخر إقامته بالشام، ومات بها سنة ثمان وثلاثين وستمائة.

وكان ﷺ متقيِّدًا بالكتاب والسُنَّة، ويقول: كل من رمى ميزان الشريعة من يده فقد هلك، وهذا اعتقاد الجماعة إلى قيام الساعة.

وقد اتفق له ﷺ أنه أنشد مرة قوله:

يَـــا مَـــنْ يَـــرَانِي وَلاَ أَرَاهُ ... كَـــمْ ذَا أَرَاهُ وَلاَ يَـــرَانِي

قال: فأنكر على بعض الفقراء الشطر الثاني فأنشدته:

يَـــا مَـــنْ يَـــرَانِي مجرمًا ... وَلاَ أَرَاهُ آخِـــــذًا

كَـــمْ ذَا أَرَاهُ مُـــنْعِمًا ... وَلاَ يَـــرَانِي لاَئِـــذًا

ومن وقف على شرح الأسرار والمشاهد[١] وترجمان الأشواق علم أن له ﷺ اصطلاحًا خاصًّا يدركه أهل الأذواق، لا من قنع بظاهر ما في بطون الأوراق، فإن الواقف مع ظاهر

=

ابن تيمية، و لم يصنف قط شيئًا في الردِّ على الشيخ محيي الدين مع شهرة كلامه في الشام، وقراءة كتبه في الجامع الأموي وغيره.

بل كان يقول: ليس الرد على الصوفية مذهبي لعلو مراقيهم.

وكذلك كان يقول الشيخ تاج الدين: وأطال المخزومي في الثناء على الشيخ محيي الدين، ثم قال: فمن نقل عن الشيخ تقي الدين السبكي، أو عن الشيخ سراج الدين البلقيني أنهما بقيا على إنكارهما على الشيخ محيي الدين إلى أن ماتا.

فهو مخطئ، وقال: ولما بلغ شيخنا السراج البلقيني أن الشيخ بدر الدين السبكي شيخ الإسلام بالشام ردَّ على الشيخ موضعًا من كتاب «الفصوص» أرسل إليه كتابًا من جملته:

يا قاضي القضاة الحذر ثم الحذر من الإنكار على أولياء الله تعالى، وإن كنت ولابد رادًّا فرد كلام من رد على الشيخ وإلا فدع انتهى.

وسئل العماد بن كثير عمن يخطي الشيخ محيي الدين قال: أخشى أن يكون من يخطئه هو المخطئ، وقد أنكر قومٌ على الشيخ فوقعوا في المهالك، وكذلك سئل الشيخ أن بدر الدين بن جماعة عن الشيخ محيي الدين، فقال: ما لكم ولرجل قد أجمع الناس على جلالته.

فالحاصل أنه قد أجمع المحققون من أهل الله تعالى على جلالته في سائر العلوم كما يشهد لذلك كتبه، وما أنكر عليه إلا لدقة فهم كلامه لا غير، فأنكروا على من يطالع كلامه من غير سلوك طريق الرياضة، خوفًا من حصول شبهة في معتقده يموت عليها، ولا يهتدي لتأويلها على مراد الشيخ ﷺ وقدِّس سره، وأفاض علينا من بركاته.

(١) من شروح المشاهد: شرح تلميذه الشيخ ابن سويدكين، وشرح الزين المناوي، وشرح الست عجم بنت النفيس، وهو من أعجب ما رأينا وحققنا، طبع دار الكتب العلمية بيروت.

كلامـــه يظـــن بـــه لحنًا، واللحن في أفهامه حيث لم يدرِ حقيقة مرامه؛ لغيبته عنه، برقاد إدراكـــه ومـــنامه، فالخطـــأ في الإعراب الموجب للإغراب، لا في عبارة المصنف عند غير المعنف.

وأنشدوا:

وَكَمْ مِنْ عَائِب قَوْلاً صَحِيْحًا وَآفَـــته مِـــن الفهمِ السَّقِيمِ

وعبارات هذا الإمامِ ينشد فيها المستهام:

لحنُهَا مُعرَبٌ وَأَعْجَب مِنْ ذَا أَنَّ إِعْـــرَاب غَيْرِهَا مَلْحُونُ

وقد أنشد سيدي عمر بن الفارض ﷺ قوله:

أَهـــوَاهُ مهفهفًـــا ثَقِيْلَ الردفِ كَالـــبدرِ يجل حسنه عَنْ وَصْفِ
مَا أَحْسَن واو صدغه حينَ بَدَتْ يَا رَبّ عَسَى تكون واو العطفِ

وإذا لم نحول هذا الكلام عن ظاهره كان مشكلاً، وربما أوهم نقصًا في مقام الشيخ؛ لأنا إن حملناه على الغزل الذي أهل لغير الله لم يناسب حال الشيخ، وإن أبقيناه على ظاهره لم يتم لنا حمله على مراد الشيخ ﷺ، فلهذا احتجنا إلى تأويله، وحمل كلامه على محامل تناسبه.

وقد شرح معنى (الردف) سيدي محيي الدين قدَّس الله سرَّه عند قوله في ترجمان الأشواق:

بـــردف مهولٍ كَدعصِ النقَا ترجَـــرجُ مِـــثل سِـــنام الفنيق

فقال في شرحه يشير إلى ما أردفه من النعم المعنوية وغير المعنوية على عباده:

وقوله: (مهول) لمن فكر في ذلك عظم عليه، وهاله ما أردفه سبحانه من جسيم مننه التي لا طاقة للعبيد على القيام بشكرها، وشبهها بكثيب الرمل؛ لارتكام بعضها على بعضٍ وتعدُّدها وكثرتها، وتميز بعضها من بعضٍ، كما تنفصل دقيقة الرمل من الرمل: أي لا تمتزج فتختلط فلا تُعرف.

ثم شبه حركتها في قلوب العارفين بمثل سنام الجمل العظيم في الرفعة والسمن، فإنه

دهن كله، والدهن ممد الأنوار للبقاء، فكذلك هذه العلوم إذا قامت بقلوب من قامت بها أورثتها البقاء السرمدي في النعيم الأبدي).

فقوله: (أهواه): أي أصبوا إليه.

قال في المصباح المنير: «والهوى مقصور مصدر هويته، من باب تعب إذا أحببته وعلقت به، ثم أطلق على ميل النفس وانحرافها نحو الشيء، ثم استعمل في ميل مذموم، فيُقال: اتبع هواه، وهو من أهل الأهواء».

وقوله: (مهفهفًا) نصب على الحال: أي حالة كونه مهفهفًا.

ومعناه لغةً: خميص البطن دقيق الخصر.

قال في المصباح: «جارية هيفاء بالمد: أي خميصة البطن دقيقة الخصر، ويُقال أيضًا: مهففة ومهفهفة».

ومراد الشيخ ﷺ الإشارة إلى مقام الصمدانية، فإن الصمد هو الذي يصمد إليه في الحوائج.

وقيل: هو الذي لا جوف له.

وخميص البطن: هو الذي ضمر بطنه من الجوع حتى يُقال: إنه لا جوف له.

ودقة الخصر تشير إلى انمشاق القوام، فإن دقته تؤذن بطول قامة صاحبه، وهذا الوصف يشير إلى القيومية، وهو القائم على كل نفسٍ بما كسبت.

والمعنى: أهواه حال كونه متجليًا بالصمدانية والقيومية.

وقوله: (ثقيل الردف) حال ثانية من أهواه: أي عظيم الإنعام.

وسمعت شيخنا المرحوم يقول: أشار بثقل الردف إلى مقام الكونية: أي المرتبة المنسوبة إلى كلمة الحضرة وهي (كُن)، فإنها ثقيلة الموارد، عظيمة المشاهد، مترادفة الإنعام على الدوام.

قال سيدي عبد الكريم الجيلي ﷺ في كتاب المناظر الإلهية منظر كن فيكون:

«أول ما يتَّصف العبد بالتكوين في عالم الغيب، فيكون الأشياء في الملكوت، ولا يستطيع تكوينها في الملك، فمثله مثل من يستطيع تصوير الخيالات في عقله، ولا يقدر عليها في محسوسه، فإذا استقام رجله في هذا المنظر ثم اتَّصف حسًّا بصفتي القدرة والإرادة يتحلَّى الله عليه بتجلي إلهي، يكسبه نفوذ الأمر في عالم الأكوان جميعًا الغيبية والشهادية، فحينئذٍ يقول للشيء: كُنْ فيكون غيبًا وشهادةً: أي بسبب ذاك التجلّي الإلهى.

والناس في هذا المقام متفاوتون، فمنهم من يظهر أثر أمره على الفور، ومنهم من يتأخر ظهور أثر أمره لسرٍّ يريده الله تعالى، والأمر نافذٌ بقدرة الله تعالى وإرادته.

آفة هذا المنظر هو ادِّعاء العبد ما ليس له؛ لأن مقام التكوين للرب تعالى ومقام الكون للعبد، فإذا قال للشيء: كن فكان، فقد ادَّعى مقام الربوبية وليست له، وكل مدعٍ ما ليس له فهو كذابٌ، وتحت هذه الكلمات إشارات يعرف أهلها ما هي والسلام».

وقوله: (كالبدر): أي في كمال ظهوره وجمال نوره؛ إذ البدر هو القمر ليلة كماله.

قال في المختار: «وسُمِّي البدر بدرًا لمبادرته الشمس في الطلوع في ليلةٍ يعجلها المغيب، وقيل: سُمِّي به لتمامه».

وتشبيهه هنا به يشير إلى ما في الحديث الشريف: «**إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاةٍ قبل طلوع الشمس وصلاةٍ قبل غروبها فافعلوا**»(١). رواه الشيخان وأحمد وأبو داود والترمذي

---

(١) رواه البخاري (٧٤٣٤)، (٧٤٣٥)، (٧٤٣٦)، (٥٥٤)، (٥٧٣)، ومسلم (٤٣٩/١)، وأبو داود في السنن (٤٧٢٩)، والترمذي (٢٥٥١)، والنسائي في الكبرى (١٧٦/١)، والإمام أحمد في المسند (٣٦٠/٤، ٣٦٢، ٣٦٥)، وفي السنة (٣٧، ٣٨، ١٨٣)، وابن ماجه (١٧٧)، والحميدي في مسنده (٧٩٩)، وابن أبي عاصم في السنة (٤٤٦-٤٥٠)، والطبري في تفسيره (٢٣٣/١٦)، وابن خزيمة في التوحيد (ص١٦٧، ١٦٩)، والآجري في كتابي الشريعة (٢٥٨، ٢٥٩)، والبيهقي في الاعتقاد (٥٠)، وذكره المصنف في مختصره لاعتقاد البيهقي -بتحقيقنا- والسنن الكبرى (٤٦٤/١)، والخطيب في تاريخ بغداد (٤٦٦/١١)، والبغوي في معالم التنـــزيل (٢٣٢/٤)، والطبراني في المعجم الكبير (٢٩٦/٢-

والنسائي وابن ماجه.

وقوله: (يجل) قال في المختار: (جلَّ فلان يجل بالكسر جلاله: أي عظم قدره فهو جليلٌ).

وقوله: (حسنه): أي جماله، واستعار الحسن للجمال إذ هو تعالى لا يُوصف بالحسن، وإنما يُوصف بالجمال، كما أشار إلى ذلك في التائية فقال:

سَقَتنِي حميَا الحُبِّ راحة مقلتي ... وكأسي محيا من عن الحسنِ جلَّتِ

وسُئلت: لِمَ نزَّه محبوبته عن الوصف الحسن؟ فأجبت السائل مرتجلاً:

وَمَا الحُسْنُ إلاَّ بعض أثر جمالها ... فكيفَ إذًا بالحسنِ زينب تُوصفُ

وقوله: (عن وصفي): أي لأن الوصف يستدعي معرفة الموصوف، والحق يطالب الواصف بالوصف التام، وقد أقر بالعجز عنه سيد الأنام في قوله: «**سبحانك ما عرفناك حق معرفتك، يا معروف عجز الواصفون عن صفتك**»(١).

وقال الصدِّيق الأكبر ﷺ: «**العجز عن درك الإدراك إدراك**»(٢).

=

٢٩٧)، والمعجم الأوسط (٢/١٩٤)، (٨/٩٠)، والدراقطني في الرؤية (١٠٦)، وكذلك في (١٣٧)، (١٤٩)، (١٥٥)، (١٦٣)، (١٦٥)، بتحقيقنا. قلت: وألفاظ هذا الحديث وطرقه كثيرةٌ.

(١) ذكره المناوي في فيض القدير (٢/٤١٠).

(٢) فدلَّ على أن ثَمَّة أمر يُعجز عن إدراكه، ومن هنا قيل شعر:

يَمُوت ولَيسَ لَهُ حَاصِل ... سَوَى عِلمَهُ أَنَّهُ مَا عَلِمَ

وقيل أيضًا:

قَدْ تَحَيرتُ فِيكَ فَخذ بِيَدِي ... يَا دَلِيلاً لِمَنْ تَحَيرَ فِيكَ

وإن التوحيد هي الوحدة الحقيقية التي لا يُزاد عليها شيء لا من حيث الظهور، ولا من حيث البطون؛ لأنه تعالى من حيث إطلاقه المنزه عن الإطلاق، والتقييد، والتشبيه والتنزيه غير الظهور والبطون، وأفراد العالم كلها مع أنه ليس بخارج منها، ولا داخل، ولا مُتصل، ولا منفصل ظاهرًا وباطنًا؛ إذ لا يجوز أن يكون معه شيء زائد؛ لأن ذاته غنية عن العالمين، وقال ﷺ: «كان الله ولا شيء معه»، فالآن

=

فلذا قال: يجل حسنه عن وصفي؛ اقتداءً بمرشده الأعظم وحبيبه الأكرم ﷺ، ولأن العبد أيضًا عاجز عن وصف ذاته على ما هي عليه، فكيف وصف الحق يمكن أن يصل إليه مع أنه الجانب الأعز الأحمى الغالب، الذي تقدس أن يحظى بسرِّه كل طالب، وأنشدوا:

فديتك حدثني عَن الجانبِ الَّذِي تقــدَّس أَنْ يحظَى بِهِ كُل طَالِبٍ

وقوله: (ما أحسن): أي ما أجمل، و(ما) تعجبية، والمعنى شيء عظيم حسن واو صدغه.

وقوله: (واو صدغه) يضرب بها المثل، فيُقال: أحسن من واو الأصداغ، كما قيل في الواو التي بين النفي والدعاء في قول القائل: (لا وأصلح الله الأمير) بأنها أحسن منها.

قال في المختار: (الصدغ: ما بين العين والأذن، وسُمِّي أيضًا المتدلي عليها صدغًا، يُقال: صدغ معقرب).

والمراد هنا بالصدغ الوجه.

قال سيدي محيي الدين قدَّس الله سرَّه عند شرح قوله:

ومَتى رمت جنَاهَا أرسلت عطف صدغيها عليها عقرب

يقول: (متى رمت) الاستفادة منها لتحصيل صفة تشرف النفس بسببها منعك من ذلك صفة وجهية تحرقك سبحاتها، فلا تصل إلى ذلك أبدًا.

فتارة يقولون: عقرب الصدغ وآونة واوه، ووجه الشبه بين العقرب والصدغ الالتواء، فإن العقرب لا يزال ملتويًا وكذلك الشعر المتدلي، والواو لها وصف الالتواء، فإنها إذا

=

كما كان؛ لأن كان وجودية لا زمانية ففيه معنى الدوام والثبوت، فمن هذه الحيثية لا يصح أن يحكم عليها بنفي ولا إثبات، ولهذا من أعطاه العلم بالمراتب والتميز بينها السكوت أعلى عالم بالله ومراتب تجلياته ممن يقول: بالعجز ويعترف به لعدم تميزه بين المراتب في عين علمه بها فيقول: العجز عن درك الإدراك إدراك.

نويت: أي عكست لم تتغير وبقيت على حالها، ولها وصف العطف، وقد ظهر في صورهما، فتعطف الأول على الآخر، والظاهر على الباطن، وبالعكس.

وهذا النعت نعت كلمة الحضرة، وهي (كن).

فالصدغ: الوجه، وهو يُراد به الذات، وواوه كن: أي لأنها التي كان بها عطف الخليقة على الحقيقة، فيُقال: حق وخلق، فالمعطوف حادث والمعطوف عليه قديم.

وقوله: (حين بدت): أي ظهرت لعيان الحوادث بإظهارها أعيانهم بعد أن لم تكن في مرتبة الشهادة، وإنما كانت أعيانها ثابتة في العلم، فبرز بها صورة ما في العلم مفصلاً.

وأصل كن: كون، فحُذفت الواو لالتقاء الساكنين، فهي برزخٌ بين كاف الكنـزية ونون النشأة الكونية، وحقيقة هذا البرزخ هو النور المحمدي، فإنه البرزخ الكامل والسر الجامع الشامل، فهو واو برزخ وجه الظهور الرافع للبراقع والستور.

وقد أشار إلى هذه البرزخية ولم يكن في قوله: «**أنا من الله والمؤمنون مني**»(١)، ويؤيده: «**أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر**»(٢).

فعن (كون) بضم الكاف ظهر (كون) بفتحها، فالواو قلب (كن)، والقلب غيب، والغيب لا يظهر، وإذا ظهر فللبصائر لا الأبصار.

وواو وجه الظهور منقسم إلى جلالي وجمالي، وقد ترجى أن تكون واو العطف فقال:

---

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفا (١/٢٣٧).

(٢) روى عبد الرزاق في المصنف (١٨) عن معمر عن ابن المنكدر عن جابر قال: سألت رسول الله ﷺ عن أول شيءٍ خلقه الله تعالى؟ فقال: هو نور نبيك يا جابر خلقه الله، ثم خلق فيه كل خير، وخلق بعده كل شيء... الحديث، وانظر: الجزء المفقود من الجزء الأول من مصنف عبد الرزاق (ص٦٣)، وتلقيح الفهوم للشيخ الأكبر (تحت الطبع بتحقيقنا)، وشرف المصطفى للخركوشي (١/٧٠٣)، وكشف الخفاء للعجلوني (١/٣١١)، والمواهب اللدنية (١/٧١)، ومواكب ربيع في مولد الشفيع للحلواني (ص٢٧، ٣٣).

«يا رب عسى تكون واو العطف»: أي الاستعطاف والرحمة أو العطف، فتعطف الجلال على الجمال فيشهدهما المكاشف معًا وهذا مشهد الكمال.

والواو لها في الأعداد مرتبة الست، فهي جوف الجهات الست، وآية الجهات: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة:١١٥].

وكلمة الحضرة لها الظهور في الجهات وغيرها؛ لأن كل شيءٍ ظهر بها ولها من حيث البسط وحذف المكرر مرتبة، والسبعة إذا رقيناها مرتبة صارت سبعين، وهي عدد (كن)، وتشير بعد الترقِّي إلى ما في الحديث الشريف وهو: «**إنَّ لله سبعين حجابًا من نورٍ وظلمةٍ، لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**»(١).

وعلى هذا يكون المعنى ما أحسن واو حجبه المسدلة حين ظهرت، يا رب عسى أن تكون حجب إبقاء وإنعام لا حجب بُعد وانتقام(٢).

---

(١) روى عبد الرزاق في المصنف (١٨) عن معمر عن ابن المنكدر عن جابر قال: سألت رسول الله ﷺ عن أول شيءٍ خلقه الله تعالى؟ فقال: هو نور نبيك يا جابر خلقه الله، ثم خلق فيه كل خير، وخلق بعده كل شيء... الحديث، وانظر: الجزء المفقود من الجزء الأول من مصنف عبد الرزاق (ص٦٣)، وتلقيح الفهوم للشيخ الأكبر (تحت الطبع بتحقيقنا)، وشرف المصطفى للخركوشي (٧٠٣/١)، وكشف الخفاء للعجلوني (٣١١/١)، والمواهب اللدنية (٧١/١)، ومواكب ربيع في مولد الشفيع للحلواني (ص٢٧، ٣٣).

(٢) قال الشيخ العطار: فغاية وصول العارفين عند التجليات الإلهية إلى هذه الحجب النورية، وهي متفاوتة بحسب تفاوت العارفين، فغاية التجلِّي المعبر عنه بالذاتي أنه يكون بالحجاب النوري الذي لا أعظم منه، وذلك بالنسبة إلى الكواكب هو الشمس، ولا يزال الأمر بالتجلِّي يتنازل حتى يكون كالقمر كالدراري إلى بارقة من البوارق، وإليه الإشارة بقوله تعالى حكايةً عن إبراهيم: ﴿فلمَّا رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦] الآيات، فإن بعض العارفين عبَّر عن ظاهر الآيات إلى ما ذكرناه، وحينئذٍ فجميع أنظار التجليات الإلهية مرجعها إلى هذا التجلِّي الشمسي الذاتي، فهو نهاية الكشف بالتجلِّي، فصاحبه من كان بحقيقة هو الصورة الجامعة للجمعية الكمالية الإلهية، بحيث يكون بذلك طبق الجمعية المذكورة، فصورته صورة الحق، كما ورد: «إن الله خلق آدم على صورته».
ولا يكون كذلك إلا إذا وسع بقلبه الحق بجميع أسمائه وصفاته الكمالية من غير أن يغلب عليه حكم =

قال سيدي محيي الدين قدَّس الله سرَّه: «فما احتجب إلا رحمة بنا لبقاء أعياننا، فإنه في بقاء عين الكون ظهور الحضرة الإلهية وأسماؤها الحسنى، وهو جمال الكون، فلو ذهب لم تعلم، فبالرسوم والجسوم انتشرت العلوم، وتميزت الفهوم، وظهر الاسم الحي القيوم، فسبحان من أرسل رحمته عامة على خلقه وكونه لشهود صفته عينه»(١).

=

اسم من الأسماء، أو يكون بحقيقته تميز اسم عن اسمٍ آخر، إلا تميزًا لا يدرك لمنافاة التميز الجمعية، فإنه يقتضي التفصيل والتعدد.

فشمس الذات عبارة عن تجليها الذاتي الذي لا يغلب فيه حكم اسم اسمًا آخر، فإن ذلك يقتضي حجب العارف باسم عن اسم، فمن أجل عدم الحجب بل وشدة الظهور وكمال الأنوار ومنتهاها عبَّر عن هذا التجلِّي المذكور بالشمس، وقد سبق أن هذا التجلِّي يكون في مقام التمكين في التلوين الذي تستوي فيه الأسماء، ولا يحجب بعضها بعضًا؛ للاشتمال والجمعية بخلاف التجلِّي الأسمائي الذي يكون باسمٍ دون اسمٍ، ويغلب فيه حكم كل اسم غيره من الأسماء، فإنه وإن ملأ قلب العارف نورًا إلا أنه للحجبٍ فيه لا يُسمَّى ذلك شمسًا، فالحاصل مطلع شمس الذات، هو من ماثل بصورة جمعية صورة الجمعية الكمالية الإلهية، وانظر: كشف الأسرار شرح الصلاة الأكبرية (ص١٨٩) بتحقيقنا.

(١) فائدة: قالت الست عجم في شرح قول الشيخ ابن العربي في المشاهد: [(قوله: ثم قال لي: أتعرف بكم حجبتك؟ قلت: لا، قال: بسبعين ستارة، قال: فإن رفعتها لم ترني، وإن لم ترفعها لم ترني)].

(ش) أقول: إنه يعني بذلك الخطاب بعد رفع الستور عند اتصاف الشاهد بالعزة، وعند اتصافه فنيت الستور وبقي اسمها، ولهذا كان الشاهد غير عارف بعد تلك الحجب لكن ظهور هذا لنفسه بظهور المعهود بالحجاب، وحصول المماثلة بين الشاهد، والمشهود في الصورة وانتقال الاتصاف، وكمال الشاهد أوجب له عدم المعرفة بتعدد هذه الحجب، فحين ظهور الصورة له حصل له العلم بالعدد المذكور بحصول الخطاب بين الصورتين، فإنه متى عدمت المعرفة بشيء ما لا يوجد حتى يحصل للعارف عنها خطاب، والخطاب لا يكون إلا مع الثنوية، فحصول الثنوية في هذا المقام إرادة التعريف بالعلم المتخلف الذي أوجبه الكمال، فسرى الخطاب بين الشاهد والمشهود في هذا المقام لوجود.

قوله: (أتعرف بكم حجبتك) وهذا القول تأييد فناء الحجب وبقاء الاسم على المحجوب وزيد الظهور بأن الشاهد هناك يتصف بأوصاف الربوبية، ومن جملتها العزة.

وقوله: (بسبعين ستارة) إذ السبعون عدد معظم عند العرب وأيضاً بدليل الحديث، وهو قوله: «إن لله سبعين حجاباً من نور لو كشفت عن وجهه لأحرقت أنوار وجهه ما قابلته» فلما كان المنذرون يعظمون هذا العدد المذكور، ورد على لسان المرسل سبعون حجاباً تخويفاً وترهيباً ولم يتجاوز السبعين كثرة، ولا تنازل عنها إلى سبعة لأن السبعة والسبعين تنطوي في أسماء التعظيم التي هي تسعة وتسعون، فلو أتى بسبعة لكان في سعة الأسماء المذكورة أكثر منها، وهو السبعون، ولو تجاوزها بأسمائها إلى ما

=

ولما كانت الجهات الأربع فيها مدخل للشيطان والفوقية والتحتية، لا مدخل له فيها، ترجى أن تكون واو وجه الحفظ الإلهي شاملة له من جميع جهاته؛ ليخلص من الشيطان في سائر توجهاته، فيكون سماوي القلب والجسم، ومن عبيد الاختصاص الذين قال فيهم: ﴿إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠].

هذا ما ظهر لي، ولا أقول أنه المراد لا محالة؛ لأن تضييق الواسع جهلٌ وضلالةٌ، و لم يحضرني شرح هذين البيتين لشيخنا الشيخ عبد الغني، أحسن الله إليه، ولو حضر لاقتصرت عليه، وكذلك ينبغي تأويل كلما أوهم حلولاً واتحادًا، أو اتصالاً وانفصالاً في كلامهم.

=

فالحجاب، والمحجوب، والمخاطب أعني الشاهد عند نفسه واحد مدرك بإدراك واحد أيضاً، فلا مانع لنظره من أجل أن لا حجاب في أحديته لأنه لا متجزئ هناك ولا جثة ثانية تمنع إدراكه، لأنه في حال فنائه بريء عن الثنوية، فلا حجاب له على الإطلاق، وإنما خوطب بهذه الحجب من وجهين:

أحدهما: إنه اتصف بالعزة في حال فنائه في الهوية فضربت هذه الستور على وجهه لتسميته بالمحتجب.

والثاني: إنه في حال الكمال حاز صفتي التقييد والإطلاق، ففي حال الإطلاق لا حجاب ولا محجوب ولا خطاب، وفي حال التقييد هو مسمى بالكثرة والاسم فعّال موجود بوجود التجزئ، فلا يبعد أن العارف يخاطب بمثل هذا الخطاب في حال التقييد آن ظهور الاسم عليه، ولهذا بدأ بقوله: (إن رفعتها رأيتني) فصح أنه في حال التقييد لأنه أنا فيه وأنا في الإطلاق، ولما أخذ في الإطلاق، قيل له: (وإن لم ترفعها رأيتني) وذلك له قبل الدخول في الإطلاق وحتى يصدق الحجاب

(ص) قوله: (ثم قال لي: إياك والاحتراق).

(ش) أقول: معناه إياك والاحتراق تنـــزيل على الحديث النبوي، وهو قوله ﷺ: «إن الله تعالى سبعين حجاباً من نور لو كشفت عن وجهه...»، فلما ذكر بقوله أولاً إن رفعتها رأيتني حذره في هذا القول من الاحتراق لأنه عند رفع هذه الحجب لا يستطيع المقيد مقابلة الجلال المحجوبة، فتحذيره من الاحتراق عند المقابلة هو تمكين القوة وهذا التمكين من الاقتسام، لأنه في حال ضرب الحجب يعود كلا المتخاطبين محجوبين بهذا الشاهد عن الشهود والمشهود عن الشاهد، وكلاهما مقتسمان بالحجب، وهذا الاقتسام عين التمكين لكن المحجوب حقيقة تفضل على المحتجب عنه بخصوص الاسم، فعند ضرب هذه الحجب نبه المحجوب الشاهد على الاحتراق عند رفع هذه الحجب لئلا يخصص نفسه عليه لعلمه أنه فانٍ في هويته، والحقيقة له، لكن الكمال أوجب له الظهور في التقييد، فعند وجود هذا التقييد وجدت الحجب للمقيدين، فلما آن رفعها أراد الله تنبيه هذا الشاهد على أنه يمكن له الاحتراق عند المقابلة التي موجبها الاقتسام. وانظر: شرح المشاهد القدسية (ص١٣٤) بتحقيقنا.

قال سيدي محيي الدين قدَّس الله سرَّه في الباب (٢٥٢):

«ومن أعظم دليل على نفي الحلول والاتحاد الذي يتوهمه بعضهم أن تعلم عقلاً أن القمر ليس فيه من نور الشمس شيء، وأن الشمس ما انتقلت إليه بذاتها وإنما كان القمر مجلاها، فكذلك العبد ليس فيه شيء من خالقه ولا حلَّ فيه»(١).

(١) **قلت**: مسألة الحلول والاتحاد ووحدة الوجود قد كثر فيها الكلام من العالم والجاهل، فكثر الكلام، وتخبطت الآراء، وتنازعت، وبمجرد إطلاق لفظ وحدة الوجود يتوهم الجاهل القول بالحلول والاتحاد، ونسبها ظلمًا وعدوانًا الكثير من الجهلة قديمًا إلى سيدنا الشيخ الأكبر وأكابر الأولياء: كالشيخ سيدي عبد الكريم الجيلي، والشيخ القوني، والشيخ ابن سبعين، والشيخ ابن الفارض، وغيرهم رضي الله عن جميعهم، وتبعهم على ذلك أتباعهم من المتأخرين، وإن شئت قلت: أعوانهم في تلك الجهالة، وكان مدخلهم إلى هذه النسبة وتلك الاعتراضات وتَجرؤهم على ما يجهلونه من علوم الأولياء نظرهم إلى علوم القوم باعتبار أنها علومٌ فلسفيةٌ، مصدرها الفكر والعقل، وكأنهم لم يسمعوا قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:٢٨٢]، ولا قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف:٦٥]، ولا قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف:١٠٨]، ولا قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّۦنَ﴾ [آل عمران:٧٩]، ولا قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ﴾ [السجدة:٢٤]، ولا ما روي عن أبي جحيفة قال: سألت عليًّا ﷺ: هل عندك عن النبي ﷺ شيءٌ سوى القرآن؟ فقال: (لا والذي خلق الحبة وبرأ النسمة إلا أن يؤتي الله عبدًا فهمًا في القرآن وما في هذه الصحيفة)، قلت: وما في هذه الصحيفة؟ الحديث، ولا ما روي في البخاري: حدثنا إسماعيل قال: حدثني أخي عن ابن أبي ذئب عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة قال: (حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين، فأما أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم)، ولم يبلغهم مما ورد في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ مما يقرر اختصاص الحق سبحانه لمن شاء من عباده بما شاء من عطاياه، سواء كان المُعطَى محسوسًا أم معنويًا كالعلم بالله والفهم في كتابه، فراحوا ينكرون كل ما يجهلونه، وكأنهم أحاطوا بما عند الله، أو تحكموا على الله في ألا يعطي أحدًا من خلقه إلا بعد أن يستأذنهم، ولا يُفهِمُ أحدًا في كتابه إلا بما فَهِمُوه هم بفهمهم السقيم لا غير، فسبُّوا ولعنوا أولياء الله، ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور:١٥]، وجعلوا يستشهدون بأقوال أهل الكفر المستشرقين الذين ما أرادوا بالإسلام والمسلمين خيرًا قطُّ على أئمة الهدى المسلمين، فينسبون العلم اللدني الوارد ذكره في كتاب الله وفي سنة رسول الله تارةً إلى المسيحية، وتارةً إلى الفلسفة اليونانية، وأخرى إلى الاستنباطات العقلية تبعًا لهؤلاء المستشرقين، الذين =

وقد شرحنا قوله في الرسالة الغوثية التي تُنسب إليه:

«الاتحاد حال، فمن آمن بالاتحاد الذاتي قبل وقوع الحال فقد كفر، ومن أراد التعبير عن هذا الاتحاد بعد الوصول إليه فقد أشرك» في الرسالة التي سميناها: «جمع الموارد من كل شاردٍ».

وقال في كتاب الجلالة: «وأن تسمع الاتحاد من أهل الله تعالى، أو تجده في مصنفاتهم، فلا تفهم منه ما فهمت من الاتحاد الذي قلنا فيه أنه من الموجودين؛ إذ ليس مرادهم من الاتحاد إلا شهود الوجود الحق الواحد المطلق، الذي الكل به موجود، فيتحد به الكل من حيث كون كل شيءٍ موجدًا به معدومًا بنفسه، لا من حيث أن له وجودًا خاصًّا اتحد به، فإنه محال».

قال الشيخ يوسف بن عبد الله العجمي الكوراني في شرحه لأبيات الشيخ عبد الله الهروي، التي في آخر منازل السائرين بعدما ذكر عبارة الشيخ.

=

أول المـــنكرين لها وأشد الناس اعتراضًا عليها، فإذن تلك العقائد المعترض عليها ليس لها وجودٌ إلا في عقل المنكر، فإنه اعترض على ما فهمه هو، لا على حقيقة المراد باللفظ.

فإذن الخلاف ليس في المعاني، وإنما هو خلافٌ نشأ عن استخدام تلك الألفاظ، ودليلي في ذلك ما ذكرته لك من أقوال هؤلاء الأئمة، فخذ تلك القواعد واحكم عليهم بمقتضى قولهم تجدهم جميعًا أقرب الخلق إلى الله وإلى رسوله ﷺ وأعرفهم بالله ورسوله ﷺ.

فإن قلت: فكيف العمل في تلك الأقوال الكثيرة المشحونة باستخدام تلك الألفاظ الموهمة؟!

أقـــول لك: بعد ما تقدم ذكره من القول إن لم تستطع قبول تلك الأقوال و لم تفهم المعنى الموافق للشـــرع الـــذي هـــو يقينًا مراد القائل فتأولها بما يوافق الشرع، فإن الكتب الفقهية والشرعية مليئةٌ بالتعارض والترجيحات وتأويل الأقوال والأدلة المتعارضة، فقس على ذلك والله هو الموفّق.

واعلم يا أخي أني لم أذكر لك جميع كلام القوم في نفي الحلول والاتحاد ووحدة الوجود المتوهمة وإنمـــا ذكرت لك طرفًا منه، فإنهم نبَّهوا عليه كثيرًا فاختر يا أخي لنفسك، ﴿وَمَـا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان:٣٠]، ووالله لا ينسب القول بالحلول أو غيره من القبائح إلى القوم بعدما ذكرناه من كلامه إلا معاندٌ مكابرٌ، فحمل كلامهم على مرادهم لا غير، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، والسلام.

ومجمله أن قولهم: (الكل به موجود) يحتمل معنيين:

الأول: إن الوجود واحدٌ وهو الحق تعالى فقط، وذلك الوجود هو الوجود الذي ظهر في كل شيءٍ، وتعين بتعينه، فأضيف ذلك الوجود إلى ذلك الشيء باعتبار أن تعين ذلك الوجود يكون فيه، وليس لذلك الشيء غير ذلك الوجود الإضافي وجود، فهو موجود بالوجود القديم الإلهي، وهذا المعنى هو الذي فهمه الملاحدة الجديدة الذين نسبوا أنفسهم إلى التوحيد، وجعلوا كلام الشيوخ محمولاً على ذلك المعنى الفاسد الكاسد.

والمعنى الثاني: إن الواصل إلى مقام الجمع ثم إلى جمع الجمع والبقاء يشاهدان الأشياء لا وجود لها في ذواتها إلا وجودًا مجازيًّا عكسيًّا سرابيًّا، ظهر من انعكاس النور القديم على الماهيات الإمكانية، وتعيَّنت بتعيناتها في العين، ويشاهد أن هذا الوجود العكسي المتعين بتعيناتها الكونية قائم بنور القديم، ويشاهد النور متجليًّا دائمًا، فإنه لو احتجب لحظة كما كان محتجبًا قبل الأكوان لانعدمت الوجودات العكسية كلها، فيعبر المشاهد عن شهود عدمية الأشياء في ذواتها، وقيام وجودها العكسي بالوجود القديم، وشهود بقاء ذلك الوجود به حينئذٍ بالاتحاد؛ لأن للأشياء وجودًا في نفسها، وبالإضافة إليها متحدًا بالحق سبحانه.

فهذا المعنى الثاني هو الصحيح ومحمل الكلام المذكور.

ثم قال: وقد تمسَّك كثيرٌ من الملاحدة الجديدة في زماننا هذا بكلامهم: أي كلام العرفاء في ترويج مذهبهم الباطل، وإضلال أصحاب القلوب الصافية والأبالهة بالتمثيلات الوهمية، وحكاية كلام العرفاء أن فلانًا قال كذا، وأن فلانًا قال كذا وكذا، وجب التنبيه على مرادهم من أمثال هذه الكلمات العرفانية التي ليست مما تدل العبارة عليها، بل هذه من قسم الإشارات كما ذُكر في كتاب «التعرف».

وعلوم المشاهدات والمكاشفات هي التي تختص بعلم الإشارة، وهو العلم الذي تفرَّدت به الصوفية بعد جمعها سائر العلوم، وإنما قيل علم الإشارة لأن مشاهدات القلوب ومكاشفات الأسرار لا يمكن العبارة أن تعبر عنها على التحقيق، بل تعلم بالمنازلات

والمواجيد، ولا يعرفها إلا من نازل تلك الأحوال وتلك المقامات.

وقال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ من علم الهيئة المكنون ما لا يعلمه إلا أهل المعرفة بالله**»(١)، فإذا نطقوا به لم ينكره إلا أهل الغرة بالله.

وعن عبد الرحمن بن زيد قال: سألت رسول الله ﷺ عن علم الباطن فقال: سألت جبريل عن علم الباطن فقال: سألت الله جلَّ ثناؤه عن علم الباطن فقال: «**هو سِرٌّ من سري أجعله في قلب عبدي، لا يقف عليه أحدٌ من خلقي**»(٢).

ثم قال: وقال بعض المتكلمين لأبي العباس ابن عطاء: ما بالكم أيها الصوفية اشتققتم ألفاظًا، أغربتم على السامعين، وخرجتم عن اللسان، هل هذا إلا طلبًا للتمويه أو سترًا لعوار المذهب؟

فقال أبو العباس: ما فعلنا ذلك إلا لغيرتنا عليه لعزته علينا؛ كي لا يشير بها غير أهل طريقتنا.

وأنشدونا:

إِذَا أَهْلُ العِبَارَةِ سَائلُونَا ... أَجبنَاهُمْ بِأَعْلَامِ الإشارَة
نشيرُ بِهَا فنجعلهَا غمُوضًا ... تقصرُ عَنْهُ تَرْجَمَة العبَارَة
ونَشْهَدهَا وتشهدنَا سرُورًا ... لَهُ فِي كُلِّ جَارِحَةٍ إشارة
نَرَى الأقوَال فِي الأحوَالِ أسر ... كأسر العَارِفين ذَوِي الجسَارَة

فإذا ثبت أن كلام العارفين من علم الباطن كله إشارة، فلا يكون المفهوم من منطوق العبارة مقصودًا، ولا شك أن ما فهمته الملاحدة الجديدة في زماننا ومن كان بهم اقتداؤه منطوق العبارة الموضوعة في اللغة العربية، كما أنهم فهموا من قوله: إن الحق اتحاد وجود القائل بوجود الحق، وكذا من قولهم كل شيءٍ موجود به أن وجود الأشياء هو وجود

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) لم أقف عليه.

الحـــق، فوجـــود الأشياء عندهم هو وجود الحق المُضاف إليهم فزاغوا وتزندقوا، فإن هذا مذهـــب لا يحكـــم العقل السليم بإمكانه فضلاً عن تحققه وثبوته، فإنا نشاهد في الأشياء العوارض التي لا يمكن قيامها بالحق من التوالد والتناسل، والتألم والتلذذ، والسقم والصحة، والموت والحياة، والضعف والقوة.

وهم يقولون: إن الوجود هو وجود الحق والتعينات سرابيه، فليس شيء في الوجود إلا الحق.

ثم أطـــال في الـــردِّ علـــيهم وتزييف أقوالهم، لا سيما في رسالته التي سمَّاها: «اقتصاد الاعتقاد في ردِّ مذهب الإلحاد».

وكـــان ســـيدي علي وفا ﷺ [1]يقول: المراد بالاتحاد حيث جاء في كلام القوم: فناء

---

(١) هو العالم بالله الولي الكامل والوارث المحمدي المخصوص في وراثته سيدي سيدي عليٌّ ﷺ: فهو الوارث الكامل والعالم المحقق، ودائمًا ما يوصف بأنه لسان الزمان، ومكتوبٌ على مقامه المنيف الكائن بالمشهد الشريف ما نصُّه: هذا مقام روح أرواح اللطائف المحمدية، لسان حضرة الجلال بمرتبة التكميل بعد الكمال ...، ولد ﷺ سنة تسعٍ وخمسين وسبعمائة، بالقاهرة، ومات أبوه وهو طفلٌ.
قال عنه الشيخ الشعراني في «الطبقات»: كان في غاية الظُّرف والجمال، لم يُر في مصر أجمل منه وجهًا ولا ثيابًا، وله قُدِّس سرُّه نظمٌ شائعٌ وموشحاتٌ سبك فيها أسرار أهل الطريق، وله كلامٌ عالٍ اهـــ.
ونقل من كلامه ووصاياه الكثير، وله مؤلفاتٌ كثيرةٌ: كـــ«الوصايا»، و«المسامع الربانية»، و«الكوثر المترع في الأبحر الأربع»، و«خصوصية الاصطفا لأهل الوفا»، وغير ذلك.
كان قدِّس سرُّه يقول فيما بينه وبين والده سيدي محمد:
يا أصحابنا الربانيين السلام علينا وعليكم ورحمة الله وبركاته، أنا لمولانا ولده في مدارك أهل الولادة، وأنا عبده في مدارك أهل السيادة، وأنا هو، وهو إياي في المدارك المجردة عن حكم الزيادة، المطلقة من مراتب القيود والعادة، فمن شهدني مولاي فأنا له نورٌ، ومن احتجب بي عن مولاي فأنا عليه ظلمةٌ، وقد نصحت وبيَّنت،: ﴿ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾[الإسراء:٩٦] أيها المنتصح فافهم اهـــ.
ويطلق عليهم أكابر أهل الولاية اسم (السلسلة الوفائية)، وذلك لمعنًى قائمٍ بهم؛ فاعلم.
قال الشيخ الشعراني: طالعت كثيرًا وقليلاً من كلام الأولياء فما رأيت أكثر علمًا ولا أرقى مشهدًا من كلامه اهـــ.

مراد العبد في مراد الحق، كما يُقال: اتحد فلان وفلان إذا عمل كل منهما بمراد صاحبه(١)، ثم أنشد:

وَعِلْمُكَ أنَّ كل الأمرِ أَمْرِي ... هُـوَ المعنى الُمسمَّى بِاتِّحَادِ

وقد ردَّ على القائلين بالاتحاد والحلول سيدي محمد البكري، أحد الفحول في رسالته: «تأييد المنَّة في تأييد السُّنة»، ولقد قلت سابقًا قصيدة وأشرت في آخرها إلى نفي الاتحاد والحلول وأمثالهما ومطلعها:

طـف حـان قـوم بالصبابة باهوا ... وقَـدْ اهتَدُوا لَكِن بِهِ قَدْ تَاهُوا
مـذ وحَّـدُوا مَا ألحَدُوا بَلْ أفردوا ... وَتَفَـرَّدُوا فِـي حُـبِّهِ وهواه
وَبِـهِ لقَـدْ غَـابُوا فعزَّ حضُورهم ... كَـيْفَ الحضـور لِعَاشِقٍ أفه
يَـا مَـنْ حِجَاب البُعْدِ عمَّ شهوده ... مَـا ظَاهِـر فِي القربِ إلاَّ الله
هُـوَ أولٌ هُـوَ آخِـرٌ هُـوَ ظَاهِرٌ ... هُـوَ بَـاطِنٌ لاَ تشهدن سِوَاه
وأزح حِجَـابك تدرك المعنى الَّذي ... قَدْ عزَّ عَنْ دَرْكِ السوى م.....
أَنْتَ الحجَابُ عَلَى الجمالِ فَإنْ تغب ... يَـبْدُو لِقَلْـبٍ باللقـا أَبْقَاه
قـرب الـنوافل ثم قـرب فرائض ... يدريهمـا مـن حل حي حماه
حجـب المشـاهد والمجاهد والَّذي ... أسـقى وصـب صرفه أسقاه
قَـدْ حَـيَّر الألـباب سِـر بطونه ... وظهـوره وهـدى بنور سناه
دعـوى الحلـول والاتحـاد جهالة ... والوصـل ثم الفصـل جلَّ الله
والحـقُّ نـزه عـن خطور خواطر ... بالـبالِ قد خطرت تعالى الله
واتـبع شـريعة أحمد خير الورى ... مَـنْ حَـادَ عَـنْهَا ربنا أرداه
صَـلَّى عَلَـيْه الله جَـلَّ جَلالـه ... فِـي كُلِّ وَقْتٍ والسَّلاَم حياه

---

(١) وقال سيدي علي وفا في المسامع عن معنى الاتحاد عند القوم: الاتحاد افتعال من الوحدة، وافتعال الشيء لا يكون إلا عن فقده، والوحدة ذاتية للوجود، ففقدها وهْمٌ، فالاتحاد وهمٌ في الحقيقة حقٌّ في حكم الفرق.

والآل والأصــحاب أعــلام الهدى   مــن أسعدوا بشهودهم محَياه
مــا مصــطفى البكري أنشد والها   طف حان قوم بالصبابةِ بَاهوا

وقلت من قصيدة:

وَمَــنْ ظَــنَّ وَصْــلاً وَاتْحَــادًا فَإِنَّــهُ   عَلَــى جــرفِ هَار وحقك قَدْ أشْفَى
فعــد عَــنْ الــتعدادِ فــالغيرُ هَــالكٌ   وَوَجــهُ المــنَا بَاقٍ لِكُلٍّ السوى أخفى
فَأَنْــتَ بِــهِ مَــا أَنْــتَ أَنْــتَ بِغَيْرِهِ   وَمَا أَنْتَ أَنْتَ أفهم وزح حجب الأغفَا
وَلاَزم هــنَا حَــي العــبودةِ إِنَّهَــا   هــيَ المــنهلُ المقصودُ وَالموردُ الأصفَا
هِــيَ الظــلُّ هَــلْ صب يفارق ظله   فَمَــنْ ظَــنَّ ذَا غمــرٍ فَمَا عهده وفَا

ومما أثمر هذا المنهاج لهؤلاء الرجاج غيبتهم عن شهود مقام العبودية الذي هو أشرف المقامات السعودية، ولهذا وصف نبيه ﷺ بها، ولقد أشرنا لعلو شأوها ومنارها الذي من أمه اهتدى في رسالة رفع الستر والردى عن معنى قول العارف (أروم) وقد طال المدى.

فمن دام له شهود العبودية فقد مشى القدومية، ومن فارقها ولو في وقت ما جهل وما دري، وكان مشيه في الحقيقة القهقري، وكل من خرج عما لها إلى منازعة صفات الربوبية فقد سوَّى بين رتبة المحبة والمحبوبية، فكان كالمتشبع بما لا يملك، والمتشبع لما به يهلك ويهلك، سخط السوم فيما لا يجديه نفعًا، ولا يكسبه هنا وهناك رفعًا، فهو كمن سار في فحمة العشا مع أنه أعشى وأغشى، أو كمن خرج بين سمع الأرض وبصرها وما دري طول ليلته من قصرها، وإذا أردت أن تسير به إلى الحق عنقًا صار يطرطب شفتيه غيظًا وحنقًا؛ لظنه في نفسه أنه عبقري أهل الحق الأبلج مع كونه سمين الجسم، مهزول الحسب أطيح، لا يعرف الهر من البر، ولا الغير من الغر، شق العصا فخالف وعصى، عاث فيه ذئب الجهل لتوعره وتركه السبيل السهل.

وهذا زمان العثاعث الذي بلغ فيه السيل الزبى، القابض فيه على دينه كالقابض على الجمر؛ إذ شره أربى.

فإن كنت قدر أدركت بارقة قرب فصنها، ودع من يعثر أو يجتره مرادفًا، وإن

طرقتك طارقة شرب فعش ولا تغتر، فإن الحق تعالى إذا أراد تطهير قلب غسله، وإذا أراد الله بعبدٍ خيرًا غسله.

والزمْ حي العبودية؛ فإنه مقيد الجمل التي من غاب عنها بدره ما اكتمل، ومن استقام قدمه فيها وكان ممن حقها موفيها علا كسبه، وهان صعبه، فرحم الله امرءًا سدد وقارب، وجنح للسلم وما حارب، ووقف عند الحدود وصان نواميس الحدود، ولم يغتر بسير الآباء والجدود، فإن من عزه الغير كان كمثل الجدود، وليحذر النفس(١) فإنها مهلكة

(١) فائدة عظيمة: قال المصنف سيدي مصطفى البكري: واعلم أن النفس مشتقّةٌ من المنافسة وهي المنازعة؛ لأن التنافس تفاعل، فلابد لها من رؤية وجود ودعوى مع موجدها، فتحتاج إلى علاجٍ ودواءٍ. فقد جاء في بعض الأخبار وإن كان ليس بالقوي عند الأخيار أن الله تعالى خلق الدنيا وأوجدها؛ وقال لها: من أنا؟ قالت له مجيبة: أنت الله الأحد. وخلق النفس فقال لها: من أنا؟ فقالت له: من أنا؟ فنوّع لها العذاب، فلم تذعن حتى ألقاها في بحر الجوع كذا كذا سنة، فأقرت له بالوحدانية، واعترفت بالعبودية، فمن هنا وجب الجهاد فيها ليردها صاحبها إلى الإقرار بظواهرها وخوافيها، قال الله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ [الحج:٧٨].
قال عبد الله بن المبارك: هو مجاهدة النفس والهوى، وذلك حق الجهاد، وهو الجهاد الأكبر على ما روي في الخبر: أن رسول الله ﷺ قال حين رجع من بعض غزواته: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر».
وقال الحسن قدَّس الله سرَّه في قوله: ﴿فَلاَ اقْتَحَمَ العَقَبَةَ﴾ [البلد:١١]: هي والله عقبة شديدة مجاهدة الإنسان نفسه وهواه وعدوه الشيطان(١).
وعن سهل بن عبد الله ﷺ: يقول الله تعالى: «ما خلقت خلقًا ينازعني في ملكي غير النفس، فإذا أردت رضائي فخالفها».
وفي الحديث: «أعدى أعدائك إليك نفسك التي بين جنبيك» رواه البيهقي.
وقال أبو عثمان المغربي رحمه الله تعالى: ابتلى الله الخلق بتسعة أمشاجٍ كل واحدٍ يطلب ضد ما يطلب الآخر: ثلاثٌ مفتناتٌ، وثلاثٌ كافراتٌ، وثلاثٌ مؤمناتٌ، فالثلاثة المفتنات: السمع والبصر وللسان، والثلاث الكافرات: النفس والهوى والشيطان، والثلاث المؤمنات: الروح والعقل والملك اهـ.
وإذا ثبت كفرها وجب الجهاد فيها؛ قال الله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الكُفَّارِ﴾ [التوبة:١٢٣].
قال سيدي محيي الدين قدَّس الله سرَّه في كتابه روح القدس في مناصحة النفس بعدما ذكر الآية:
=

وملكة مملكة، معنية الخوان، منسية يوم الوقوف، منسية نوم الطرف المطروف، غادرة غير عاذرة، شاردة للحتوف، مبادرة ساعية في تلف الروح، داعية إلى سد باب الفتوح، فالهج مناهج أهل المجاهدة؛ لتدرج مدارج أهل المشاهدة، وصاحب بصدق التوجه الروح؛ فإن معها الراحة، وجانب هذه الدابة الجموح؛ فإنها تسلب الصفا من الراحة، ولا تغرك بحليها العاطل؛ فإن حسنها زورٌ، وادعاءها باطلٌ.

وأنشد الهمام اليافعي رحمه الله تعالى:

لعمــرك مَاشــوها بحــلي تزيَّنَــت كحسنًا وإن كَانَتْ عَن الحلي عَاطِلَه
إذَا مَــا ادَّعَت حسنًا وتزوير حِليها شهود فدعوى صَاحِب الزُّور بَاطِلَه

ولقد قلت سابقًا:

شَــمِّر ذيُــول التعَامِي عَنْكَ تَشْمِيرًا وَعَمِّــرْ القَلْــب بِالأَذْكَــارِ تَعْمِيرا
واحــذرْ لقــريةِ نفسي منكَ تُقرِيها فــتلك دمَّــرهَا المحــبوب تَدمــيرا
واقْرب إلى أهلٍ بيتٍ زَالَ رِجسَهم والحــبُّ طهَّــرَهُم مِنْ ذَاكَ تَطْهِيرا
قَــوْمٌ لِقَــدْ عَــرفوا بالقُربِ أنفسهم فَصَــارَ نَاظِــرهم بــالله إكسِــيرا
إذا رؤوا ذِكــر المــولى برؤيــتهم إذ نُورَهــم يُــورث الأحشاءَ تَنوِيرا
رطيــبهم مــذ سرا فِي الكونِ أجمعه قــد عطــر الكون من رياه تعطيرا
فَلُــذْ بِحَــالهم واعمــل بقــالهم واجْهَد كَمَا جَهِدوا إن كُنت نحرِ يرا
وَزِنْ بمــيزانهم واعــدلْ كَمَــا عَدلوا ســرًّا وجهــرًا وحرِّر ذَاكَ تَحرِيرا
وشَــاهِدْ الغيــب عيــنًا فِــي تَعينه واحفــظْ عَلَى السرِّ تقريرًا وتسطيرا

=

وللخدمة فوائدَ، وللحضور عوائد.

قيل لأبي العباس بن مهدي ﷺ: بما يروِّض المريد نفسه؟ فقال: بالصبر على الأوامر، واجتناب المناهج، وصحبة الصالحين، وخدمة الرفقاء، ومجالسة الرفقاء، والمرء حيث وضع نفسه اهـ. وانظر: العرائس القدسية (تحت قيد الطبع بتحقيقنا).

ولَيهْتِك العلم إن أدركت ما غَفلَ الـــ جهـــولُ عـــنه ومَـــا بَذَّرت تَبذِيرَا
والـــرَّان فـــاحذرهُ يَعلو عَين قَلبك يَا بَـــاغِي المعـــالي فَذَا يَكسيه تَكديرا
علْـــمُ الحقائقِ ذوقٌ لاَ بشقشقة الـــ لّسَـــان يَـــدْري فَـــلاَ تبغيه تَصويرا
الفهْـــمُ يقصـــرُ والإدراكُ عَـــنْهُ نَـــبَا وَالكَشـــفُ يكشف سرًّا حَازَ تستيرا
والله فاعـــرفْ بِـــهِ الأشـــياء تعرفها وعـــن صـــفات الورى كبّره تَكبيرا
ثمَّ الصَّـــلاَة مَـــعَ التَّسْـــلِيم يَتْـــبَعها عَلَـــى الَّـــذِي أَوْسَع المجهول تَفسِيرا
والآل والصَـــحب والأتـــبَاع كلُّهم عَـــرب لقـــد شمَّروا الأذْيَال تشميرا

وقال سيدي الشيخ إسماعيل بن سودكين في «لواقح الأنوار» قال لي ﷺ وأرضاه: أوصيك بوصية، وأحب منك أن تحافظ عليها، وهي: قدمي مع الله تعالى، وهي: أن لا تفارق عبوديتك أبدًا ولا يكن لك شغوفٌ عند نفسك على شيء من الموجودات.

فإن الشغوفَ إنما يقوم عندك لوصفٍ قهري يقوم بك، وإذا قام الوصف القهري بك فمحالٌ أن يقهر الحق به نفسه، فلا بد له من محلٍ يظهر أثره فيه وهو الكون؛ فتقتضيك صفة القهر الخروج من الحضرة الإلهية إلى الكون، فتغيب بذلك عن عبوديتك التي هي حقيقتك التي خلقها الله تعالى؛ لتعبده بها، ويستتر عنك وجه الحق.

وانظر إلى أبي يزيد رحمه الله تعالى مع كونه أذِنَ له، وقيل له: اخرج إلى خلقي بوصفي، فلمَّا خطا خطوة؛ صعق، فقيل: ردوا عليَّ حبيبي فلا صبر له عني.

هذا مع خروجه بالأمر، فكيف يكون حُكم الخروج بالوصف القهري؟.

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾ [الذاريات:٥٦].

فأتى بوصف العبودية الذي هو التذلل والافتقار.

يقال: أرض مُعبَدة: أي مُذلَّله، فأي نَفَس مرَّ عليك ولم تكن متَّصفًا فيه بحقيقة العبودية؛ فأنت في ذلك النفس مع غير ما خُلقت له وأُمرت به، فيفوتك من زمن التحصيل ما لا تستدركه أبدًا لا دنيا ولا آخرة؛ لكون الدنيا نتائج، فمتى حصل الاشتغال فيها بأمرٍ غير منتجٍ للكمال؛ أنتج النقص والخسران، والخروج عن شهود الحق عاجلاً وآجلاً.

فالعاقل يشتغل ها هنا بتحصيل النتائج، ويلحق ثم ما يرومه في ذلك الموطن؟

قلت له: يا سيدي إذا خرج العبد بوصف القهر والمنازعة عن الوجه، أليس يشهد الوجه في الأمر المقهور المنازع؟

فقال أيَّده الله تعالى: أليس يظهر في وجوده وصف النـــزاع والقهر؛ وهو وصفٌ يَكثر على الكون يناقض العبوديَّة، ولو كان محققًا بشهود الوجه الإلهي؛ لكان الخضوع وصفه ولا بد، فتحقق ذلك واعمل عليه، فهو: قدمي مع الله تعالى.

ثم قال الشيخ أيَّده الله: وما أحسن قوله تعالى: **﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾** [الشورى:٤٠].

وأوصيك أيضا: متى رأيت أحدًا ينازعك، أو يردُّ عليك قولاً من فتحٍ فُتحَ به عليكَ، أو نقلته عن غيرك، أو كتبته في كتابك، فلا تُجبه بعد ذلك أصلاً ولا تُرادده؛ بل تقف وتسكت، وتنظر في نفس الأمر؛ لكونك تحقق أن الحق ما أورده عليك على لسان هذا المنازع، إلا لحكمة أو غفلة طرأت عليك، فتقف وتثبت وتتعرَّف ذلك من الحق سبحانه بافتقارٍ وأدبٍ ولا تراجع حينئذ أصلاً، فتخرج من أدب الحضرة الإلهية.

ومتى ذكرت الفائدة لشخص ما، فلا تذكرها لكونك أعلم منه ولا أفضل، فتُحجب بذلك، ويقوم شُغوفك عند نفسك؛ بل اذكر له الفائده بالنظر إلى قوله ﷺ: «**مَن سُئل عن علمٍ فكتمه أُلجمَ يوم القيامة بلجامٍ من نارٍ**»(١).

وبنية نشر العلم والإنفاق منه والتناصح، وتنظر إلى قوله تعالى: **﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ﴾** [آل عمران:١٨٧].

فمن الوفاء بالميثاق بذل العلم الذي ينتفع به سامعه خاصة؛ فتكون قد ذكرت وأجبته بلسان الشرع.

ومتى أنكرت على شخص منكرًا محققًا في الشريعة منصوصًا عليه، لا تجد لك مخرجًا

---

(١) رواه أبو داود (٣/٣٢١)، وابن ماجه (١/٩٧)، وأحمد (٢/٢٦٣).

ولا بد من إنكاره شرعًا، فلا تنكر عليه بطبعك ولا تعنِّفه؛ بل قل برفقٍ: إن الشرع قد نهى عن مثل هذا، لا تقل له: أنت على خطأ وأنت مخالف؛ بل أرفق به ما استطعت.

قلت: يا سيدي ألست تعلم من نفسك ما فضَّلها الحق به على مَن هو دون مرتبتك في العلم.

فقال: أعلم أن صفة العلم التي قامت بي أفضل من صفة الجهل التي قامت بغيري، فالصفة أفضل من الصفة مطلقًا، والحال أفضل من الحال، لا أن الموصوف أفضل من الموصوف، كيف والأحوال تحول وتسلب وتؤخذ من محلٍ وتعطي لمحلٍ آخر؟! فلا يفضَّل بين الذوات الموصوفة إلا بأمرٍ إلهي يعرفك به اختصاصه.

وقد علمت أن البعوضة لها وجه إلى الحق تقبل بذلك الوجه على الحق ما تقبل، فانظر إليها من ذلك الوجه توفِّها حقَّها، وتعلم إمكان قبولها لكل ما يقدره من الاختصاصات والقُرب مع مشاركتها لك في الحدِّ والحقيقة.

وانظر إلى أدب النبي ﷺ الذي ألهمه الله تعالى التأدُّب به بقوله تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ**﴾ [الكهف:١١٠].

فتسمَّى بالاسم الذي يشاركه فيه جميع الخلق، ولم يتسمَّ بأعلا أوصافه من النبوَّة والرسالة وغير ذلك.

كل ذلك منه مراعاةً للعبوديَّة التي خُلق لأجلها، ولو لم يُؤمر النبي ﷺ بإظهار مرتبته بقوله: «**أنا سيِّد ولد آدم ولا فخر**»(١)، ما أظهرها عليه السلام والحمد لله رب العالمين.

وقال في الباب الخامس والعشرين من فتوحاته بعد ما ذكر قول الشيخ أبي السعود بن شبلي البغدادي قدس الله سرّه (٢): الرجل مع الله كساعي الطير فمٌ مشغولٌ، وقدمٌ تسعى،

(١) رواه أحمد في المسند (٤/١).

(٢) قال البرهان الديري القادري: هو الشيخ أبو السعود أحمد بن الشبل العطار البغدادي.

قال ابن النجار في تاريخه: أحمد بن أبي بكر بن المبارك، أبو السعود، الزاهد المعروف بابن شبل، صحب الشيخ عبد القادر الجيلي وأخذ عنه طريق المعاملة والزهد، وصار ممن يُشار إليه بالمعرفة والولاية، =

وهذا كله حالات الرجال مع الله تعالى؛ إذ الكبير من الرجال مَن يعامل كل موطنٍ بما يستحقه، وموطن هذه الدنيا لا يمكن أن يعامله المحقق إلا بما ذكره هذا الشيخ، فإذا ظهر في هذه الدار من رجلٍ خلاف هذه المعاملة؛ علم أن ثمَّ نفسًا ولا بد، إلا أن يكون مأمورًا بما ظهر منه وهم الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقد يكون بعض الورثة لهم أمرٌ في وقت بذلك، وهو مكرٌ خفي فإنه انفصال عن مقام العبودية التي خُلق الإنسان لها.

وقال فيه: دخلت على شيخنا أبي عبد الله الشكاز من أهل غرناطه سنة خمس وتسعين وخمسمائة، وهو أكبر مَن لقيته في هذا الطريق لم أرَ في طريقه مثله في الاجتهاد.

فقال لي: الرجال أربعة[(١)]:

=

ودُفن بباب حرب، وكان ملازمًا لبيته، زاهدًا، وصلّى عليه بظاهر الحربية، وكان له جمعٌ كثيرٌ انتهى.

قال الذهبي: وبنوا على قبره قبة عالية، وقبره يُزار.

وقال الشيخ عبد الله الشرقاوي: كان مقامه الصدق لا حاله، فكان في العالَم مجهولاً؛ لتمكنه من مقام الصدق مع الله، نقيض الشيخ عبد القادر فإنه كان محققًا متمكنًا في حال الصدق، فظهرت على يديه الخوارق، وكان مشهورًا في العالَم رضي الله عنهما فما سمعنا في زماننا مثل الأول في مقام الصدق، ولا مثل الثاني في حاله، فالصدق الذي هو نعت إلهي لا يكون إلا لأهل الله تعالى، والصدق المعروف عند الناس سار في كل صادقٍ من مؤمنٍ وكافرٍ، وهو ظل الأول كظل الشخص بالنسبة له انتهى.

وقال الشيخ الشعراني في الكوكب الشاهق: الذي شهد فيه الشيخ محيي الدين بن العربي أنه أكمل من شيخه الشيخ عبد القادر الجيلي ﷺ، وما أعطى الله تعالى عباده علم التوحيد إلا ليعلموا به أنه تعالى إلهٌ واحدٌ، لا ليتصرفوا فيه فيما ليس لهم، فإنه يخالف أوصاف العبودية التي بها تقربة العبد من حضرة ربه. شرح الحكم الكردية (٨٩) والروض الزاهر (ص١٣٢)، والكوكب (ص١٠٣) بتحقيقنا.

(١) وقال الشيخ الباني الكردي: نقلاً عن الشيخ عبد القادر قوله الناس أربعة رجال: **رجل** لا لسان له ولا قلب.

وهو العامي لا خير فيه ولا وزن له إلا أن رحمه الله تعالى برحمته، ويهدي قلبه للإيمان به، ويحرك جوارحه للطاعة له تعالى، فاحذر أن تكون منه، وأن تلذ به، وأن تأخذ منه شيئًا.

ورجل: لسان بلا قلب فينطق بالحكمة، ولا يعمل بها يدعو الناس إلى الحق تعالى وهو يفر منه، وهو الذي حذر منه النبي ﷺ بقوله: «أخوف ما أخاف على أمتي علماء السوء»، فنعوذ بالله من هذا فابعد

=

رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وهم رجال الظاهر.

ورجالٌ لا تَلهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذكر الله، وهم رجال الباطن جلساء الحق تعالى ولهم المشورة.

ورجال الأعراف وهم رجال الحدِّ قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ [الأعراف:٤٦].

وهم أهل الشمِّ والتمييز والسراح عن الأوصاف فلا صفة لهم، كان منهم أبو يزيد البسطامي.

=

عنه لئلاً يخطفك بلذيذ لسانه فتحرقك نار معاصيه ويقتلك نتن باطنه.

ورجل: قلب بلا لسان، وهو مؤمن ستره الله تعالى عن خلقه، وبصره بعيوب نفسه، ونوَّر قلبه، وعرفه غوائل مخالطة الناس وشؤم النطق، وتيقن أن السلامة في الصمت في الحديث: «من صمت نجا».

وقال بعض العلماء: العبادة عشرة أجزاء تسعة في الصمت فهذا ولي الله والخير كل الخير عنده، فدنوك ومصاحبته، وخدمته، وقضاء حوائجه تدخل في زمرة الصالحين ببركته.

ورجل لسان وقلب وهو المذكور أولاً المدعو في الملكوت بالعظيم فلا تجانبه، وأقبل منه النصائح، وهو أكمل مما قبله، فمن تكلم بحكمة عن حقيقة دون تحقق كالعلماء وأهل البداية فيفيد العلم والفهم دون التأثير، ومن تكلم بها عن تحقق وتمكن كالعارفين الواصلين فيفيد التأثير أيضًا؛ لأن أنوارهم سبقت أقوالهم فإنما ينطقون بما يناسب الحكمة على حسب حال الناس منها فتصل إلى قلوب السامعين، فتؤثر فيها وتتمكن، ولم يمنع من التمكن إلا الجحود والضلال كحال أهل الكفر حيث جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم خوفًا من التمكن؛ لأنه ما أنكر كلام الأنبياء أحد من حيث ذاته، وأقروا بحسنه، وصرحوا بكماله إلا أنهم جحدوا حقيقته عنادًا، فقالوا: ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال:٣١] ﴿هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [النمل:٣١]، وغير ذلك وكلام الأنبياء والأولياء كان عن إذن وما هو عن الإذن فيخرج، وعليه حلاوة وكسوة الأنوار وما هو عن غير الإذن فيخرج مكسوفة الأنوار، والإذن يختلف بحسب الأوقات والحالات والأشخاص، ولهذا الرجلان يتكلمان بحقيقة واحدة فتقبل من واحد، وترد على الآخر، وتقبل أيضًا من شخص في وقت، وترد عليه في وقت آخر، والواحد أيضًا يتكلم بها فيقبل منه شخص، ويردها آخر في وقت واحد، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

فعلم مما تقرر أن الذي يُؤخذ منه العلم رجلان: الذي قلب بلا لسان، والذي قلب ولسان، والأخذ من غيرهما خسران وحرمان.

ورجالٌ إذا دعاهم الحق إليه يأتونه رجالاً؛ لسرعة الإجابة لا يركبون.

قال تعالى: ﴿**وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً**﴾ [الحج:٢٧] وهم رجال المطلع. فرجال الظاهر هم الذين لهم التصرُّف في عالم الملك والشهادة، وهم الذين كان يشير إليهم الشيخ محمد بن قائد الأواني، وهو المقام الذي تركه الشيخ العاقل أبو السعود بن شبل البغدادي أدبًا مع الله تعالى.

أخبرني أبو البدر التماسكي البغدادي رحمه الله تعالى قال: لما اجتمع محمد بن قائد وكان من الأفراد بأبي السعود هذا، قال له: يا أبا السعود إن الله قسَّم المملكة بيني وبينك فلم لا تتصرَّف فيها كما أتصرف أنا.

فقال أبو السعود: يا ابن قائد وهبتك سهمي نحن تركنا الحق يتصرَّف لنا وهو قوله تعالى: ﴿**فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً**﴾ [المزمل:٩]، فامتثل أمر الله.

وقال لي أبو البدر: قال لي أبو السعود: أني أعطيت التصرُّف في العالم منذ خمس عشرة سنة من تاريخ قوله، فتركته وما ظهر عليَّ شيء.

وأمَّا رجال الباطن فهم الذين لهم التصرُّف في عالم الغيب والملكوت، فيستنـــزلون الأرواح العلوية بهممهم فيما يريدونه، وأعني: أرواح الكواكب لا أرواح الملائكة، وإنما كان ذلك لمانع إلهي قوي يقتضيه مقام الأملاك.

أخبر الله تعالى في قول جبريل عليه السلام لمحمد ﷺ فقال: «**وما تتنـــزَّل إلا بأمر ربك**»[1]، ومن كان تنـــزُّله بأمر ربِّه لا يؤثِّر فيه الخاصية ولا ينـــزل بها.

نعم أرواح الكواكب تستنـــزل بالأسماء والبخورات وأشباه ذلك؛ لأنه تنـــزُّل معنوي ولمن يشاهد فيه صورًا خيالية، فإن ذات الكواكب لا تبرح من السماء مكانها ولكن قد جعل الله لمطالع شعاعاتها في عالم الكون والفساد تأثيرات معتادة عند العارفين «بذي»، كالري عند شرب الماء، والشبع عند الأكل، ونبات الحبة عند دخول الفصل

---

(١) رواه البخاري (١١٧٧/٣)، والترمذي (٣١٦/٥)، والنسائي (٣٩٤/٦).

بنـــزول المطر والصحو.

حكمة أودعها العليم الحكيم جلَّ وعزَّ، فيفتح لهؤلاء الرجال في باطن الكتب المنــزلة، والصحف المطهَّرة، وكلام العالم كله، وتفسير الحروف والأسماء من جهة معانيها ما لا يكون لغيرهم اختصاصًا إليهًا.

وأمَّا رجال الحدِّ فهم الذين لهم التصرُّف في عالم الأرواح النارية عالم البرزخ والجبروت، فإنه تحت الجبر، ألا تراه مقهورًا تحت سلطان ذوات الأذناب وهم طائفة منهم: الشهب الثواقب فما قهرهم إلا بجنسهم، فعند هؤلاء الرجال استنـــزال أرواحها وإحضارها، وهم رجال الأعراف.

والأعراف: سور حاجز بين الجنة والنار، برزخ باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب، فهو حدٌّ بين دار السعداء، ودار الأشقياء، وأهل الرؤية، ودار الحجاب، وهؤلاء الرجال أسعد الناس بمعرفة هذا السور ولهم شهود الخطوط المتوهمة بين كل نقيض مثل قوله: ﴿**بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ**﴾ [الرحمن: ٢٠].

فلا يتعدون الحدود، وهم رجال الرحمة التي وسعت كل شيء، فلهم في كلِّ حضرة دخول واستشراف، وهم العارفون بالصفات التي يقع بها الامتياز لكل موجودٍ عن غيره من الموجودات العقليَّة والحسيَّة.

وأمَّا رجال المطلع فهم اللذين لهم التصرُّف في الأسماء الإلهية، فيستنـــزلون بها كل ما هو تحت تصريف الرجال الثلاثة: رجالُ الحدِّ، والباطن، والظاهر وهم أعظم الرجال، وهم الملامتيَّة هذا في قوتهم وما يظهر عليهم من ذلك شيء.

منهم: أبو السعود وغيره، فهم والعامة في ظهور العجز وظاهر العوائد سواء، وكان لأبي السعود في هؤلاء الرجال تميُّز؛ بل كان من أكبرهم.

وسمعه أبو البدر على ما حدَّثنا به مشافهةً يقول: إن من رجال الله مَن يتكلَّم على الخاطر وما هو مع الخاطر: أي لا علم له بصاحبه، ولا يقصد التعريف به، ولما وصف لنا عمر البزار وأبو البدر وغيرهما حال هذا الشيخ، رأيناه يجرى مع أحوال هذا الصنف العالي

من رجال الله.

قال لي أبو البدر: كان كثيرًا ما ينشد بيتًا لم نسمعه من غيره وهو.

وَأَثْبَتَ في مُستنقعِ الموتِ رِجلَهُ وَقَالَ لها مِن دُون أخمصك الحشْرُ

وكان يقول: ما هو إلا الصلوات الخمس وانتظار الموت، وتحت هذا الكلام علمٌ كبير.

وقال الشعراني ﷺ في كتاب «الجواهر والدرر»: وقال لي لسان الوارد، وأغلب مقولاته من كلام سيدي محي الدين ﷺ: مَن نظرَ إلى ذاته ذلّ وخضع، ومَن نظرَ إلى خلعته افتخر، ودخله الزهو والعجب.

ومن هنا قال بعض العارفين: اقعد على البساط وإيَّاك والانبساط! (١).

يعني: اقعد على بساط العبوديَّة وإيَّاك ومقام الإدلال، فإن هذه الدار دار تكليف وذلك مانع للإدلال؛ لتوجُّه الحقوق الإلهية على العبد في كل نفسٍ، فمحل الإدلال إنما هو: الدار الأخرة، والسلام.

---

(١) ذكره ابن قيم في مدارج السالكين (٢/٣٧٤)، وسيدي عبد الوهاب الشعراني في رسالته الفتح في تأويل الشطح (ص٧٧) وقال الشيخ الصيادي: يريد بساط العبادة.

وإياك والانبساط: أي التزم ما تعطيه حقيقة العبودية من حيث أنها مكلفة بأمور حدَّها لها سيدها، فإنه لولا تلك الأمور لاقتضى مقامها الإدلال والفخر والزهو من أجل مقام من هو عبد له ومنـــزلته، كما زها يومًا عتبة الغلام وافتخر فقيل له: ما هذا الزهو الذي نراه في شمائلك مما لم يكن يعرف قبل ذلك منك؟ فقال: وكيف لا أزهو وقد أصبح لي مولى وأصبحت له عبدًا.

فما قيض العبيد عن الإدلال، وأن يكونوا في الدنيا مثلما هم في الآخرة، إلا التكليف فهم في شغل بأوامر سيدهم إلى أن يفرغوا منها فإذا لم يبقَ لهم شغل قاموا في مقام الإدلال الذي تقتضيه العبودية، وذلك لا يكون إلا في الدار الآخرة، فإن التكليف لهم مع الأنفاس في الدار الدنيا.

فكل صاحب إدلال في هذه الدار فقد نقص من المعرفة بالله على قدر إدلاله، ولا يبلغ درجة غيره ممن ليس له إدلال أبدًا، فإنه فاتته أنفاس كثيرة في حال إدلاله غاب عما يجب عليه فيها من التكليف الذي يناقض الاشتغال به والإدلال، فليست الدنيا بدار إدلال. قلائد الزبرجد (ص٧٧) بتحقيقنا.

وقد أخبرني شيخنا ﷺ: إن السيد عبد القادر الجيلي لما حضرته الوفاة، وضع خدَّه على الأرض، وقال: هذا هو الحق الذي كنَّا عنه في حجابٍ، فشهد على نفسه بأن مقام الإدلال الذي كان فيه نقص بالنسبة إلى حاله الذي ظهر له عند الموت، ومات على حالة كمال ﷺ[١].

قال شيخنا: وكان تلميذه أبو السعود بن شبل أتم حالاً من شيخه، فإنه لم يزل محفوظًا من الإدلال ملازمًا للعبودية مع الأنفاس إلى حين موته، وما تغيَّر عليه حاله ﷺ، فصحَّ قول الطائفة: بداية المريد نهاية الشيخ والله عليمٌ خبير، قال.

وقال من صحَّ له مقام العبودية المحضة: أعطي قوة التحوُّل في الصور، وعرف صور جميع التجلِّيات الإلهية، وعرف صور الروحانيات إذا تجسَّدت من خارج أو من داخل، كل ذلك خلعة من الحق تعالى عليه حين وقف عند حدِّه و لم ينازع ربَّه في شيء، قال.

وقال: مَن حاد عن عبوديته بوصف ما ربَّاني ولو محمودًا كصفة رحمانيَّة؛ فقد زال عن مرتبة عبوديته التي خُلق لها، وحُرم من الكمال والمعرفة بالله بقدر ما اتَّصف به من صفات الحق فليقلّ أو ليكثر، وهذا الأمر فيه غورٌ عظيم وما يعقلها إلا العالمون، قال.

وقال: أشرف ما يسمَّى العبد به لفظ العبد، وأشرف ما يلقَّب به ما كان من

---

(١) وقال الشيخ الصيادي: ألا ترى الشيخ عبد القادر الجيلي مع إدلاله لما حضرته الوفاة وبقي عليه من أنفاسه في هذه الدار ذلك القدر الزماني، وضع خده في الأرض، واعترف بأن الذي هو فيه الآن هو الحق الذي ينبغي أن يكون العبد عليه في هذه الدار، وسبب ذلك أنه كان في أوقات صاحب إدلال لما كان الحق يعرفه به من حوادث الأكوان.

وعصم الله أبا السعود تلميذه من ذلك الإدلال فلازم العبودية المطلقة مع الأنفاس إلى حين موته، فما حكي أنه تغيَّر عليه الحال عند موته كما تغيَّر على شيخه عبد القادر.

وحكى لنا الثقة عندنا، فقال: سمعته يقول: طريق عبد القادر في طريق الأولياء غريب، وطريقنا في طريق عبد القادر غريب. ﷺ وعن جميعهم ونفعنا بهم.وانظر: تأويل الشطح (ص٧٨)، وقلائد الزبرجد (ص٧٧).

خصائص هذا الاسم كالرسول والصالح.

ولهذا نزع الله تعالى من الأنبياء اسم الولي، وخلع عليهم لقب الرسالة والصلاح اللذين لا يليق تسمية الحق بهما.

وأمَّا الأولياء، فكان خلع اسمه تعالى الولي عليهم ابتلاءً منه لهم؛ لينظر هل يردُّون ذلك الوصف إليه إذا كان في جبلتهم الدعوى له، أو يدعوه ويقفوا مع ذلك.

كما أمر الله عباده المؤمنين أن يتَّخذوه وكيلاً لهم، وكيف يكون تعالى وكيلاً فيما هو له؟! وكذلك نزع الله تعالى هذا الاسم من الصحابة، وأعطاهم اسم الرسالة الخاصة بالتبليغ؛ لشرفهم.

فقال: ﷺ لهم: «**وليبلِّغ الشاهد منكم الغائب**»[1]، فمن أطلق على عبدٍ الولاية، وسمَّاه بها، فليكن علي أنها صيغة المفعول لا الفاعل والله تعالى أعلم.

وقد تكلَّم سيدي محي الدين قَدَّس الله سرَّه على العبوديَّة وشرَّف مقامها وحقيقتها في أماكن من فتوحاته المكيَّة وغيرها من لمحاته الملكيَّة وقال في الباب السبعين منها: وصل في فصل بين الحرية والعبودية إضافة الإنسان بالعبودية إلى ربِّه، أو إلى العبودية أفضل من إضافته بالحرية إلى الغير، بأن يقال: حرّ عن رقِّ الأغيار.

فإن الحريَّة عن الله ما تصح، فإذا كان الإنسان في مقام الحرية لم يكن شهوده إلا أعيان الأغيار؛ لأن بشهودهم ثبتت الحرية عنهم، وهو في هذه الحال غائبٌ عن عبوديته وعبودته معًا، فمقام العبودية أشرف من مقام الحريَّة في حق الإنسان، والعبودة أشرف من العبودية.

وقد أشار ﷺ إلى مثل هذا في حديث ميمونة بنت الحرب لما أعتقت وليدةً لها في زمان رسول الله ﷺ فذكرت ذلك إلى الرسول ﷺ:

---

(١) رواه البخاري (١/٥٢)، والنسائي (٢/٤٤٢).

«لو أعطيتها أخوالك؛ لكان أعظم لأجرك»(١).

فمقام العبودية رجَّح على ثواب الحرية كما رجَّح الفقير إلى الله تعالى على الغني بالله بعض شيوخنا.

حدَّثني عبد الله القطقاط بجزيرة طريف سنة تسعين وخمسمائة، وقد جرى بيننا الكلام في المفاضلة بين الغنى والفقر، أعني: الغني الشاكر، والفقير الصابر، وهي مسألة طويلة، وأنجز في ذلك حال الفقير والغني.

فقال: حضرت عند بعض المشايخ، وحكاها لي عن أبي الرفيع الكفيف المالقي تلميذ أبي العباس بن العريف السفاجي قال: لو أن رجلين كان عند كل واحدٍ منهما عشرة دنانير، فتصدَّق أحدهما من العشرة بدينار واحد، وتصدَّق الآخر بتسعة دنانير من العشرة التي عنده أيهما أفضل؟

فقال الحاضرون: الذي تصدَّق بالتسعة.

فقال: بماذا فضلتموه؟

فقالوا: لأنه تصدَّق بأكثر مما تصدق به صاحبه.

قال: حسن، ولكن نقصكم روح المسألة وغاب عنكم.

قيل له: وما هو؟ قال: فرضناهما على التساوي في المال، فالذي تصدَّق بالأكثر كان دخوله إلى الفقر أكثر من صاحبه، ففضِّل بتسعة إلى جانب الفقر، وهذا لا ينكره من يعرف المقامات والأحوال، فإن القوم ما وقفوا مع الأجور، وإنما وقفوا مع الحقائق والأحوال وما يعطيه الكشف.

وبهذا فُضِّلوا على علماء الرسوم، ولو تصدَّق بالكل، وبقي على أصله لاشيء له كان أعلا، فنقصه من الدرجة والذوق على قدر ما تمسَّك به.

---

(١) رواه البخاري (٢/٩١٥)، ومسلم (٢/٦٩٤).

ألا ترى ما قاله شيخنا أبو العباس السبتي في المحتضر يوصي بالثلث، فإن المحتضر ما يملك من المال إلا الثلث، فخرَّج عمَّا يملك وما بقي شيئًا، وأجاز له الشارع أن يتصدَّق بالثلث كله الذي يملكه وهو محمودٌ في ذلك شرعًا، فلقي الله فقيرًا على حكم الأصل كما خرج من عنده، رجع إليه صفر اليدين.

قال بعضهم في المعنى.

إذا وُلــدَ المولــودُ يَقبضُ كفَّهُ دَليلٌ على الحرصِ المركَّب في الحَي
وَيَبسِــطهَا عِندَ الممات مُواعظًا ألا فانظروني قَدْ خَرجتُ بلا شَيء

فكان أفضل ممن لم يتصدَّق بذلك الثلث الذي يملكه أو تَصدَّق بأقل من الثلث وينوي ما يبقيه أنه صدقة على ورثته، وفيه إشارة عجيبة.

وقال القشيري ﷺ في الرسالة في باب العبودية: سمعت الأستاذ أبا علي يقول: العبودية أتم من العبادة، فأولاً عبادة ثم عبوديَّة ثم عبودة.

فالعبادة: للعوام من المؤمنين، والعبوديَّة للخواص، والعبودة لخاص الخواص.

وسمعته يقول: العبادة لأصحاب المجاهدات، والعبودية لأرباب المكابدات، والعبودة صفة أهل المشاهدات، فمن لم يدَّخر عنه: أي عن الحق تعالى نفسه؛ فهو صاحب عبادة ومَن لم يضنِ عليه بقلبه؛ فهو صاحب عبوديَّة، ومن لم يبخل عليه بروحه؛ فهو صاحب عبودة.

ويقال: العبودية القيام بحق الطاعات بشرط التوقير والنظر إلى مأمنك بعين التقصير وشهود ما يحصل من مناقبك من التقدير.

ويقال: العبوديَّة ترك الاختيار فيما يبدو من الإقرار.

ويقال: العبوديَّة معانقة ما أُمرت به، ومفارقة ما زجرت عنه.

وسُئل محمد بن خفيف متى تصحُّ العبوديَّة، فقال: إذا طَرحَ العبد كله على مولاه وصبر معه على بلواه.

ثم قال ذو النون المصري: العبودية أن تكون عبده في كل حالٍ.

ثم قال: سمعت الأستاذ أبا علي يقول: ليس شيء أشرف من العبوديَّة، ولا اسم أتم للمؤمنين من الاسم بالعبودية.

ولذلك قال سبحانه وتعالى في وصف النبي ﷺ ليلة المعراج، وكان أشرف أوقاته في الدنيا: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى**﴾ [الإسراء:١].

وقال: ﴿**فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى**﴾ [النجم:١٠]، فلو كان اسمٌ أجلَّ من العبوديَّة لسمَّاه به، وفي معناه أنشدوا:

يَا عَمرُو ثَأري عند زهراي ... يَعرِفهُ السَّامعُ والرَّائي
لا تَدَّعني إلا بِيَا عَبدُهَا ... فإنَّه أشرفُ أسمائي

وقال الجيلي ﷺ في آخر الإنسان الكامل: والفرق بين العبادة والعبوديَّة والعبودة هو: أن العبادة صدور أعمال البِّر من العبد بطلب الجزاء.

والعبوديَّة صدور أعمال العبد لله تعالى عربًا عن طلب الجزاء عملاً خالصًا لله تعالى.

والعبودة هي عبارة عن العمل بالله تعالى، ولذلك كانت الهيمنة لمقام العبودة على جميع المقامات وكذلك مقام الختام، ثم ختم الكتاب بالكلام على هذا المقام.

وقال في كتابه المسمَّى «غُنية أرباب السماع في كشف القناع عن وجوه الاستماع» بعد أن تكلَّم على مرتبة العبودة التي هي أعلا من العبوديَّة والعبادة.

واعلم أن الفرق بين العبودة والعبوديَّة:

إن العبوديَّة عبارة عن خلوص أعمال العبد لله تعالى.

والعبودة عبارة عن قيامه في وظائف العبودية بالله، ولا يصح ذلك إلا للواصلين الكمَّل من أهل الله الذين أشار إليهم الحق في قوله في الحديث القدسي:

«كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها»[١].

فهذا بالضرورة تكون أعماله بالله؛ لأن الحق تعالى كان ظاهره وباطنه، فظاهره من حيث الأعضاء الجسمانيَّة لذكر الرِجل واليد، فإنهما أعضاء ظاهرة وباطنة من حيث القوة الروحانيَّة لذكر السمع والبصر اللَّذان هما باطنان دون الأذن والعين اللَّتان هما ظاهرتان.

وعلامة من تحقق بهذا المقام أن تنفعل الأكوان لجوارحه، فلا يمرُّ بيده على الأكمه والأبرص إلا أبراه بإذن الله تعالى، ولو قال للميت: عش؛ لعاش، أو قال للحي: مت؛ لمات: أي بأذن الله تعالى.

وكذلك سائر جوارحه تظهر ما يناسبها من الانفعالات كالرِجل في ظهورها بالخطوة، واليد بالقدرة، والقلب بالعلوم الغيبية وأمثال ذلك، فالعبودة عبارة عن مقام هذا الرَجل إذا نزل من مقام الربوبية إلى مقام العبودية، وهذا هو المشار إليه بختم الأولياء وبه ختمت الكتاب.

قال الشعراني في كتاب «الجواهر والدرر»: من شروط الخليفة في العالم أن يُقام في العبودية المطلقة التي ليس فيها ربوبيَّة بوجهٍ من الوجوه، فمن أقامه الله كذلك فهو الخليفة له حقًا، فما استخلف الحق عبده إلا في المرتبة التي لاحظ للربوبية فيها؛ لأن الربوبية قد اختصَّ بها الحق اختصاصًا ذاتيًّا لا يشارك فيه، ومرادنا بعدم الربوبية في الخليفة عدم تظاهره بها؛ لأعدمها في الباطن فافهم، قال.

وقال: إنما احتجب أكابر الرجال في هذه الدار تبعًا للحق فمكانهم في الدنيا مجهول العين؛ لأنهم لا يتظاهرون بشيء من النوافل، ولا يتخصصون بحالة يتميزون بها بين الناس قد انفردوا بالحق في بواطنهم، لا يتزلزلون عن عبوديتهم مع الله طرفة عين، ولا يعرفون للرئاسة طعمًا؛ لاستيلاء الربوبيَّة على قلوبهم بخلاف غيرهم من العباد والصوفية، فإن العباد

---

(١) رواه البخاري (٥/٢٣٨٤)، ابن حبان (٢/٥٨)، والبيهقي في الكبرى (٣/٣٤٦).

متميزون بالانفراد عن الخلق، وبالتقشف وكثرة النوافل والأوراد وغير ذلك.

والصوفية متميزون بالدعاوى وخرق العوائد والكلام على الخواطر، وتربية المريدين وغير ذلك رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

وقال الشيخ الشعراني ﷺ في «لواقح الأنوار» حقيقة في بيان غاية الإنسان:

وسمعته ﷺ يقول ما معناه: كل شيء يُعرف في العالم فهو في الإنسان، وليس الإنسان في العالم، فإذا كمل العبد في نفسه تصرَّف في العالم؛ لأنه تصرَّف في وجوده الذي وُجد من أجله.

وأمَّا العبد فإنه وَجدَ الله تعالى خالصًا، فيقابل بعبوديته ألوهية الحق، فالألوهيَّة هي المؤثِّرة فيه بكمال مقابلتها؛ إذ هو الجامع للحقائق.

ولذلك كان على الصورة فهو يستمد الفيض ثم يفيض هو على العالم بما كان مُفاضًا عليه.

لكن هاهنا نكتة عزيزة لا يدركها إلا الأكابر من أهل الكمال وهي: ألا يحجب هذا العبد بفيضه على الوجود عن رؤية عبوديته وافتقاره؛ بل لا يزال عارفًا بغنى الألوهية وفقر المألوه، وإن نُسب الفيض إليه، وكما لا يحجب سبحانه بالألوهية عن كونه غنيًّا كذلك لا يحتجب هذا العبد بفيضه على العالم من كونه مفتقرًا، فإذا دام له هذا المشهد كان عارفًا، فإن حصل له التصرُّف في الكون عاجلاً؛ فقد عَجلت له النتائج وهو المعبِّر عنه بالذوق(١).

---

(١) قال الشيخ الباني الكردي في شرح قول الشيخ الأكبر في حكمه: رُبَّ ذائق في ذوقه يا إخوان، أعلم بالله من عالم بالسنة والأركان.

والمقصود من هذه المعاني المذكورة والحقائق المسطورة ليس أن يعلمها العبد، بل المراد أن يذوقها وتصير هي حالاً فيه، فإن طريق العلم والسماع وطريق الذوق المشاهدة والعيان والثاني أكمل من الأول بداهة، وإليه أشار الشيخ قُدِّس سرَّه بقوله: (رُبَّ ذائق في ذوقه يا إخوان أعلم بالله من عالم بالسنة والأركان) (الذوق) ابتداء الشرب والشرب سقي القلب والعروق من الشراب حتى يَسْكروا، والشراب مزج الأوصاف بالأوصاف، والأخلاق بالأخلاق، والأنوار بالأنوار، والأسماء بالأسماء، والصفات =

ومَن لم يحصل له التأثير في العالم كان ذلك مدَّخرًا له؛ إذ المقامات معه محققة، فالنتيجة حاصلة ولا بد، وهذا الأمر غاية الإنسان في مرتبتة والله أعلم.

فللألوهية مرتبتان: مرتبة ذاتية بالنظر إليها، ومرتبة حكميَّة ظهرت بظهور العبد، ولهذه المرتبة الثانية توجَّهت الألوهية على الإيجاد؛ لتكمل مراتب الوجود.

وللعبد مرتبتان: مرتبةٌ ذاتية وهي: الفقر المطلق، ومرتبةٌ مستفادة وهي: كمال الاستعداد، وروح هذا المشهد الذي هو غاية الإنسان في الكمال هو: استصحاب شهود فقره عند وجود الآثار منه، وشهود الغنى المحقق لله تعالى القادر المريد المؤثِّر بحيث لا يتخلل شهود العبد لهذا المشهد، وحضوره فيه غفلة فإن تخللته غفلة لم يكن محققًا في هذا المقام بالعبودية، وينحط عن هذا المقام بقدر غفلته، فمتى حضر شمله حكم المقام.

وإذا حصل للعبد الحضور في هذا المقام عند الموت بحيث يُفارق وهو متحقِّق بالحضور في هذا المشهد؛ فهو من العلماء بالله تعالى ولا يفضِّل عليه العالم المؤثِّر في العالم بما حصل له، وعَجل له من التأثير وانقلاب الأعيان الذي حرمه هذا عاجلاً أصلاً؛ بل قد تساويا في العلم بالله تعالى، فإن وقع تفاضل كان بأمرٍ آخر لا بهذا والله أعلم.

=

بالصفات، والأفعال بالأفعال والسنة معلومة، و(الأركان) المراد بها أركانها فيكون من عطف الخاص على العام لمزيد فضل الخاص على العام (رُبَّ) وإن كانت في الأصل للتقليل لكنها استعملت في التكثير بحيث صار التكثير حقيقيًا فيها والتقليل مجازيًا، فيطلق على الأول بلا قرينة والثاني بالقرينة، فالمراد هنا التكثير والمعنى كثير من الذائقين في ذوقهم أيها الأخوان مع عدم علمه بالسنة والأركان أعلم بالله تعالى من حيث ذوقه من رجل عالم بالسنة والأركان، ولا يعلم الله تعالى بالوجودان فالذائق العالم أفضل من العالم الغير الذائق ومن الذائق الغير العالم لعلمه، والذائق الغير العالم أفضل من العالم الغير الذائق لذوقه ولا يسمَّى العالم عالمًا عندهم إلا إذا كان ذائقًا؛ لأنه العلم حقيقة وما سواه وسوسة وتلبيس، و (الذائق) هو الذي يعلم الأشياء على ما هي عليه من إنها قائمة بالوجود المطلق ما لها وجود من نفسها، وغاية العلم الذوقي أن يعلم العبد بأن العالم صورة الحق فإنه به يعقل، بل العبد نفسه صورة من صور الحق ومعارفه كذلك.

وقال ﷺ في كتاب «العبادلة»: مَن كان مع الله مثل ظله معه لا يحجب عن ربِّه ولا يعترض عليه في فعله، ولا يتحرك إلا بتحريكه إيَّاه كان عبدًا حقيقةً، ألا ترى الظل لم يزل مشاهدًا لما صدر عنه.

وقال: تطلب الظلال مطالع أنوارها وهو عين رجوع العبد إلى حقيقة، وفراره عن مكانة ربِّه فلا يزال أبدًا عبدًا.

ثم قال: وقال: ظلك يلحقك إن أدبرت عنه متوجِّهًا إلى الشمس وأنت لا تلحقه إذا أقبلت عليه، وأعرضت عن الشمس والذي حصل لك منه في الإقبال هو الذي حصل لك منه في الإدبار وفي إعراضك عن الشمس الخسران المبين.

هذا مثلٌ ضَربه لك الحق في نفسك يقول لك الحق: أنا النور والكون ظلك وما فيك منه غير ما قُدِّر لك سواء أعرضت عن الكون أو أقبلت عليه فلا تخسر.

وحكى لنا شيخنا العارف الذي للحق يهدي الملا إلياس الكردي، نفعنا الله به: إنه سأل بعض الأشياخ أن يسلكه في مقام العبوديَّة المحضة.

فقال له: هذه طريقة صعبة الترقي، فإن مَن رامها يحتاج أن ينـــزل إلى أسفل سافلين ويصعد إلى أعلا عليين، ثم ينـــزل ثم يصعد إلى أن يستقر قدمه أو ما معناه.

قال: فقلت له: لا طاقة لي.

ولهذا قلنا في أول الحكم التي سمَّيناها «الموارد البهيَّة في الحكم الإلهية»: الوقوف مع العبودية هو منتهى أهل المشاهدة الملكوتية، ولو بسطنا يد اليراع في هذا المقام، ورفعنا شراعه؛ لطال المجال في سرد عباراتهم السائغة الفائقة البرَّاعة، واللبيب تكفيه الإشارة والغبي لا يفهم ولو بصريح العبارة، وأنشد بعضهم:

تَكفِـــي اللبيبُ إشارةً مَرمُوزةً   وسِـــواه يُدعَـــى بالـــنداءِ العَالي

والإطناب ربما أدَّى إلى الملل، كما أن الإيجاز المفرط قد يؤدِّي إلى الخلل، وأنشدوا:

تَوسَّط إذا مَا شِئت أمرًا فَإنَّه   كِلا طَرَفي قَصدِ الأمُورِ ذَمِيمُ

مشيرًا لما في الحديث: «**خير الأمور أوساطها**»(١).

وربما استدلَّ القائل بقول هذه الطائفة التي على الخروج من رِبقة التكليف دائرة. وعليه طائفة بقول سيدي محي الدين قَدَّس الله سرَّه:

الـــربُّ حـــقٌّ والعبدُ حقٌّ يَا ليتَ شِعري مَن المكلَّفُ
إن قُلـــتَ عبدٌ فَذَاكَ ميتٌ أو قُلـــتَ ربٌّ أنَّي يُكلَّفُ

ومراده ﷺ إثبات مقام الحيرة في حال شهود أن لا غيره؛ لأن ما نسمِّيه سوى وغيرًا لا وجود له من نفسه، ولا قيام، وإنما به كان بقاؤه ووجوده، فرجع الأمر إليه والسلام.

ولأنه الفاعل لا العبد على التحقيق، فالحيرة من كونه مكلفًا، فما وجه التوفيق؟

قال ﷺ في أول خطبة فتوحاته: أحمده حمد من علم أنه سبحانه علا في صفاته وعلا، وجلَّ في ذاته وجلى، وأن حجاب العزَّة دون سبحانه مُسدَل، وباب الوقوف على معرفة ذاته مُقفل، إن خاطب عبده فهو المسمِع السميع، وإن فعل ما أمر بفعله فهو المطاع المطيع، ولما حيرتني هذه الحقيقة، أنشدت على حكم الطريقة للخليقة وأنشدهما.

وقال في موضع آخر بعد ما ذكر البيت الأول: فإذا تحقق عارف بمثل هذا، وتبين أنه ما ثَمَّ إلا الله؛ خاف من الزلل الذي يقع فيه مَن لا معرفة له ممن ذمَّة الشرع من القائلين بإسقاط الأعمال، نعوذ بالله من الخذلان.

قال في كتاب «الجلالة» ومن هذا الباب باب الحيرة الإلهية.

قال تعالى: ﴿**وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى**﴾ [الأنفال:١٧]، وافعل يا عبدي ما لست بفاعل، بل أنا فاعله ولا أفعله إلا بك؛ لأنه لا يمكن أن أفعله بي، فأنت لا بد منك، وأنا بدَّك اللازم، فالزم بدَّك، ولا بد مني، فصارت الأمور موقوفة عليَّ وعليه فحرت وحارت الحيرة وحار كل شيء، وما ثَمَّ إلا حيرة في حيرة، وأنشدهما وغيرهما وقال، ومع قولي هذا كله قيل لي: افعل من باب الحيرة الجامعة لجميع النسخ.

---

(١) رواه ابن ماجه (١٧/١)، وابن أبي شيبة (١٧٩/٧).

ثم قال في آخره: فاعلم سرَّ قوله: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ [ق:٢٩]، فالعاقل يعمل على إمضاء الحكم وإنفاذه، ولا مردَّ له؛ لقوته والمحقق يأخذه من باب الحيرة، وأنه لا يمكن إلا هذا، وإلا فكما وصلت الخمسون إلى خمسة لم يمكن أن ينقص منها، كذلك لم يمكن أن تبقى الخمسون أصلاً لما سبق به القول.

وسمعت شيخنا الشيخ عبد الغني حفظه الله تعالى يقول في معنى قوله ﷺ:

«**كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**»(١)، قال: أي مسافر.

فإن أبناء الدنيا مسافرون إلى الأخرة، وهذه الدار ليست بدار إقامة، إنما هي دار تجارة فمن ربحت تجارته فيها؛ كان هناك من الفائزين، ومن خسرت كان من الهالكين.

فقال له بعض الحاضرين: إن الغريب مسافر، فما معنى عطف أو عابر سبيل عليه؟

فقال: ربما نوى الغريب الإقامة، فيرتفع عنه اسم المسافر.

ثم قال: ومعلومٌ أن هذه الدار ما جعلها الله تعالى إلا للقيام بالأوامر واجتناب النواهي ولأمورٍ لا تكون في تلك الدار، فإن التاجر لا تُنفق بضاعته إلا إذا كانت مما لا توجد في البلد التي سافر إليها.

ومعلومٌ أن الصلاة والصوم والتكاليف الشرعيَّة لا توجد في تلك الدار، فعلى قدر الاجتهاد في حقوق الله تعالى هنا تكون بضاعته أنفق هناك، ملخصًا من بعض ما قرره.

وقوله ﷺ: لا توجد: أي على سبيل التكليف، وإلا فقد توجد على سبيل التلذُّذ بها والتشريك، وتكون في حق صاحبها كرامةً لا ثواب فيها، وأهل الله ليسوا مع الأجور، وإنما أعمالهم محض عبوديَّة، وامتثال للأمر ونوافلهم ينوون بها الشكر على النعم المفاضة عليهم.

وهكذا فلو قُدِّر أن إنسانًا طلب أن يصلِّي في الجنة حبًّا في إظهار شعائر العبوديَّة

---

(١) رواه البخاري (٥/٢٣٥٨)، والترمذي (٤/٥٦٧)، وابن ماجه (٢/١٣٧٨)، وأحمد (٢/٢٤).

وتلذُّذًا بذلك فلا مانع.

ولقد سألني أخونا في الله الشيخ مصطفى بن عمرو الخلوتي ختم الله له بالحسنى، فقال لي: هل يصح للعبد في الدار الآخرة أن يتنفَّل؟

فقلت له على سبيل الفرض: لا؛ لأنها ليست دار تكليف، وإنما هي دار جزاء ونتائج أعمال.

أمَّا إذا كان على سبيل التلذُّذ وإظهار العبوديَّة، واشتهت نفسه الشريفة ذلك فلا مانع أن يجود عليه السيِّد المالك، فقال: إني سررت بجوابك سرورًا عظيمًا؛ لأني لما رأيت ضَعف البنية في هذه الدار عن الوفاء بحقوق العبودية التي عليها المدار وقصر عمرها، سألت الله تعالى أن يمنَّ عليَّ في الدار الآخرة بصلاة ركعتين أتمثَّل فيهما للوقوف بين يديه خمسمائة وعشرين ألف عام؛ لأفوز بلذَّة ذاك المقام.

وقد سألت الشيخ قاسم المغربي رحمه الله تعالى هل يمكن ذلك؟

فأجاب بالمنع وكأنك ألبستني في هذه الليلة خلعة عظيمة.

وحال الشيخ مصطفى حال العارفين الذين قال في وصفهم سيدي محي الدين ﷺ في كتاب «العبادلة»: تنقضي أعمار العارفين وهم مع الحق على أول أقدامهم فلم تفِ لهم أعمارهم بما تعلَّقت به هممهم من إقامة حقوق الحق التي عليهم، وهم في الغيب مشهودون وفي الشهادة مغيبون، فهم ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، وليس وراء الآلاف مرتبة، فإنها آخر مراتب أسماء الإعداد فيها يفرَّق كل أمرٍ حكيم.

وعن العارف ظهر هذا الفرقان في العلم والروح، فيها تنـــزَّل به الروح الأمين على قلبك تنـــزُّل الملائكة.

كذلك قلب العارف مختلف الملائكة بضروب الأوامر، فإذا طلع الفجر زالت ليلة القدر، فصار نورًا بعد ما كان ذا وجهين، وهنا أسرارٌ لأهل الله مصونة عن أعين الأغيار آه آه آه إن إبراهيم لحليم أواه.

قال الشعراني ﷺ في «الجواهر والدرر» وهذا الكتاب التقطه من فوائد شيخه سيدي علي الخواص ﷺ الكبريت الأحمر: سألت شيخنا ﷺ عن صلاة ثابت البناني في قبره كما ذكروه في «طبقات الأولياء» هل يُثاب عليها كما يثاب على ما كان من أعماله قبل الموت.

فقال: نعم، لكن بحكم خرق العادة لقوله ﷺ: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله**»[1]، فالبرزخ معدود في حق مثل هذا من وقت التكليف.

بل قال بعضهم: إن وقت التكليف باقٍ حتى يسجد أهل الأعراف سجدة يرجح بها ميزانهم، ثم يدخلون الجنة.

قال: فلولا أن تلك السجدة في زمن التكليف ما أغنت عنهم شيئًا والله أعلم.

فقلت له: إذا لم يتحقق العبد في دار الدنيا بمقام من المقامات، فهل يعطاه في الآخرة؟

فقال ﷺ: إن سأل ذلك من باب المنَّة فجائز أن يعطاه، وإن كان من باب الجزاء فلا فلا؛ إذ الترقِّي في الآخرة لا يكون إلا في أعمالٍ حصَّلها المكلَّف هنا ولو في البرزخ على ما في قصة ثابت في قبره على ما قدمناه.

فقلت له: فإذا صدقت نيَّة العبد في شيء، وتعلقت همَّته بحصوله، فهل يكون له في الآخرة؟

فقال: نعم إن شاء الله تعالى كما إن من مات قبل الفتح عليه في طريق القوم يُرفع إلى محل همَّته.

وقال في موضع آخر: سألت شيخنا ﷺ عمَّن وقع له صلاة في قبره كثابت البناني هل يكتب الله له ثواب تلك الصلاة مدة البرزخ، أم عمله لا ثواب فيه كأهل الجنة؟

قلت: أفهمَ تمثيله أن هناك أعمالاً ولا ثواب فيها.

---

(١) رواه مسلم (١٢٥٥/٣).

وفي الحديث: «**إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون، ولا يتنفَّلون، ولا يبولون، ولا يتغوَّطون، ولا يتمخَّطون ولكن طعامهم ذلك جشاء ورشح كرشح المسك، يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس**»[1]. رواه مسلم، وأحمد، وأبو داود عن جابر.

قال: فقال الذي أعطاه الكشف: إن الله تعالى يكتب له ثواب عمله إلى أن يخرج من البرزخ.

فقلت له: فهل يتوضأون في قبورهم لذلك؟

فقال: لا حاجة لهم إلى وضوء؛ لعدم وقوع الحدث منهم.

فقلت: فهل يؤذِّنون ويقيمون؟ فقال: نعم.

كما ورد في حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فقلت له: فهل يكتب لهم ثواب قضاء حوائج الناس إذا خرج شخص من قبره، وقضى حوائج الناس؟

فقال: نعم يُكتب له ثواب ذلك كحكم صلاتهم في البرزخ على حدٍ سواء.

فقلت له: هل الصورة التي تخرج من قبورهم صورة ملك، أو صورة تنشأ من هممهم بحسب اعتقاد صاحب الحاجة فيهم.

فقال: كل ذلك يكون، فتارةً يوكِّل الله تعالى بقبر ذلك الولي ملكًا يقضي حوائج الناس، كما وقع للإمام الشافعي، وسيدي أحمد البدوي، والسيدة نفيسة، وتارة يخرج الولي بنفسه، ويقضي الحاجة؛ لأن للأولياء الإطلاق في البرزخ والسراح لأرواحهم.

فقلت له: فهل حكم الأنبياء كذلك؟

فقال: نعم لكن مَن وقع له خطاب من قبر نبي؛ فذلك عين النبي لا مثال له، وأمَّا إذا سمع خطابه من غير قبره؛ فهو مثالٌ لا حقيقة؛ لأن ذات النبي منــزَّهة عن كلفة المجيء والرواح.

---

(١) رواه مسلم (٤/٢١٨٠)، وأحمد (١/٢٣٠).

فانظر رحمك الله بعين الإنصاف إلى ما قدَّمناه من السادة الأشراف، وصفاهم الحميد وأقوالهم السديدة، وكونهم بعد خروجهم من دار التكليف لم يدَّعوا أعمال البر، وبعضهم يتطلبها في دار الجزاء والتشريف، واقتدائها الأخ بمن سلف، وترج مِن منِّه أن يغفر لك م قد سلف.

واعلم أن الصاحب الذي ينهضك حاله أو يدلُّك على الله مقاله في هذا الزمان الذي ليله بضعف الاتِّباع؛ قد أقمر عزيز الوجود كالكبريت الأحمر، فإن صاحب المعين كالماء المعين، والرفيق الرفيق هو الصديق الصديق، والأخوة الصابون كالأشنان والصابون يُغسل بهم درن العين فيشهد المصاحب بعين قلبه نور العين شهود تحقيق فيضه، هتان لا شهود تحقيق زور وبهتان.

ولعزة هذه الصحبة التي تُقتنى، قال السرِّي قَدَّس الله سرَّه: لا تصح المحبة بين اثنين حتى يقول أحدهم للآخر: يا أنا.

وحكايات القوم في الاتحاد الروحاني وظهور أثره على الهيكل الجسماني وافرة كثيرة في كتبهم شهيرة.

ومن هنا قال الجنيد قَدَّس الله سرَّه: الأخ الحقيقي هو أنت إلا أنه غيرك في الهيكل.

وقيل لحكيم: مَن أربح الناس، قال: مَن ربح صديقًا صالحًا، وأنشد سيدي محي الدين قَدَّس الله سرَّه:

فَليسَ خِلِّي إلا مَن يَرى زَلَلِي ... وَلا يَزال مَع الأحيَانِ يُنصحنِي

فالصحب الحق كالصابون، يُذهب ما في الثوب من دَنس الأقذار والدرن، والغافل مَن لعبت به الأهواء فأدركه الفوت، والكيِّس مَن دان نفسه وعَمل لما بعد الموت.

فإن الجهل عمي، والنهل يبرئ الظمأ، والجاهل بالأمر يضرب لمعرفته مندلاً، ويلقي نفسه في النار يظنها سمندلاً، فهو غلامٌ ولا بد له من تثقيفٍ ولو كان من قريش أو ثُقيف.

والعَالِم العَامِل هو العَالم الكامل، تنبو المعاول عن صفاته، وتعجز المقاول عن صفاته،

نوافح نوافح أنفاسه تعطِّر الأعطار، ولوامع هوامع أقداسه تعمّ سائر الأقطار، تقاذفت دُرر بحره بسيفه: أي بساحله، وقطع عنق القواطع بسيفه.

فهذا الذي يحق لك أن تُرافق إن كنت بنفسك رافق، فمن صحب الأشراف؛ حصل له الإشراف، ومَن لزم أهل السرف نزل عن منــزلة الشرف كما قيل في هذا المعنى:

مَــن عَاشرَ الأشرَافَ عَاشَ مُشرَّفًا ... وَمعَاشــر الأبــدَالِ غــير مُشرِّفِ
أَو مَا تَرى الجلد الحَقِير مُقبِّلاً ... بالفمِّ لمَّا صَار جلد المصحَفِ

ولما رأى السيد الجليل إبراهيم الخليل عليه السلام صُحبة آزر تضرُّه تبرَّأ منه واعتزل عنه، والإنسان قد تُدوى يده فيقطعها منه؛ ليسلم سائره، وأنشدوا:

وَمَا يَنفع الجَرباءُ قُربَ صَحيحة ... إلـيهَا وَلكنَّ الصَحيحة تَجربُ

وقد ذكرنا بعض لوازم الصحبة وشروطها في رسالة الصحبة، فصحبة الحق أحق.

ورد: «**اللَّهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل**»(١).

والإنسان مازال مسافرًا من عالم الغيب إلى عالم الشهادة إلى البرزخ إلى الحشر إلى الجنة أو النار نعوذ بالله منها، والحق مُصاحب عبده في هذه المواطن كلها بالإمداد والإسعاف والإسعاد.

وهذا سفرٌ ظاهرٌ، وله سفر باطن فمن تحلَّى إلى تحلِّي إلى تجلِّي، ومَن سفر من عنده إلى سفر إليه إلى سفر فيه؛ وهو السير الدائم الذي لا ينقطع أبدًا دنيا وأخرى، وهو سفرٌ معنوي لا حسي، وكل مَن وصل إلى حقيقة سفر من هذه الأسفار قيل فيه واصل، وأمَّا الحق فلا يُوصل إليه؛ لأن الوصول للمحدود، وتعالى الله عن الحدود، وقلنا في الألفية:

وَقَــائلٌ بِالوَصــلِ للحَبيــبِ ... مُــرَادهُ زِيَــادة التَقريــبِ
فَالوُصُول للمَحدودِ جَلَّ الله ... عَن الحدُودِ لَيس هُوَ إلا هُو

---

(١) رواه مسلم (٢/٩٧٨)، وأبو داود (٣/٣٣)، والترمذي (٥/٤٩٧)، والنسائي (٤/٤٦٠).

قال سيدي محي الدين قَدَّس الله سرَّه في فتوحاته: وأمَّا قول الآخر من أكابر الرجال لما قيل له: فلان يزعم أنه وصل، فقال: إلى سقر فإنه يريد بهذا أنه مَن زعم أن الله محدود يوصل إليه، وهو القائل: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤].

وثمَّ أمرٌ إذا وصل إليه سقطت عنه الأعمال المشروعة، وأنه غير مخاطب بها مع وجود عِقد التكليف عنده، وأن ذلك الوصول أعطاه ذلك، فهذا هو الذي قال فيه الشيخ إلى سقر: أي هذا لا يصح؛ بل الوصول إلى الله يقطع كل ما دونه حتى يكون الإنسان يأخذ عن ربِّه، فهذا لا تمنعه الطائفة بلا خلاف.

وكان شيخنا أبو يعقوب يوسف بن يخلف الكومي وهو من أكابر أصحاب الشيخ أبي مدين ابن عم خليفة المغرب يقول: بيننا وبين الحق المطلوب عَقبة كؤود ونحن في أسفل العقبة من جهة الطبيعة، فلا نزال نصعد في تلك العقبة حتى نصل إلى أعلاها، فإذا استشرفنا على ما وراءها هناك لم نرجع، فإن وراءها ما لا يمكن الرجوع عنه وهو قول أبي سليمان الداراني لو وصلوا ما رجعوا يريد إلى رأس العقبة، فمن رجع من الناس من قبل الوصول إلى رأس العقبة والإشراف على ما ورائها، فالسبب الموجب للرجوع مع هذا إنما هو طلب الكمال، ولكن لا ينـــزل بل يدعوهم من مقامه ذلك، وهو قوله على بصيرةٍ فيشهد، فيعرف المدعو على شهودٍ محقِّق، والذي لم يرد ما له وجهٌ إلى العالم فيبقى هناك واقفًا وهو أيضًا المسمَّى بالواقف، فإنه ما وراء تلك العقبة تكليف، ولا ينحدر منها إلا مَن مات إلا أن منهم أعني: من الواقفين مَن يكون مستهلكًا فيما يُشاهده هناك.

وقد وَجدَ منهم جماعة، وقد دامت هذه الحالة على أبي يزيد البسطامي وهذا كان حال أبي عقال المغربي وغيره.

ومن كلام سيدي نجم الدين الكبرى قَدَّس الله سرَّه في أول قصيدة من أوزان العجم وهي:

اخـــرُج عَن المكان يَا صَارم الزَمَان واسْبح سِباح حُوتٍ في قلزم المعَاني
لا تَبْتَغي اتصَالاً فَالوَصْل نَعت جِسم أنِّـــي أرى دُنـــوًا أدنَى مِن التَّدَاني

العَــبدُ ليسَ يَرضَى في رقِّه شَريكًا   فالربُّ كيف يَرضَى في مُلكِهِ بِثَاني

قال اليافعي رحمه الله تعالى في نشر المحاسن: وأخبرني بعض الأولياء من شيوخ اليمن أنه كلَّمه السيِّد الجليل الولي الكبير العارف بالله تعالى محمد بن أبي بكر الحلمي قَدَّس الله سرَّه بعد أن انشق قبره، وخرج إليه منه وهو مشدود الوسط.

قال: فقلت له: يا سيدي أراك مشدود الوسط.

قال: نحن بعد في الطلب مَن زَعم أنه قد وصل فقد كذب؛ لأنه لا يُوصل إلا إلى محدود، والله يتعالى عن النهايات والحدود.

قلت: قول هذا السيد مَن زَعم أنه وصل فقد كَذب؛ صحيح، وقول غيره من الشيوخ: فلانٌ قد وصل وذِكرهم الوصال والوصل والاتصال صحيحٌ أيضًا.

والجمع بين ذلك: إن مراد الشيخ المذكور مَن توهَّم أنه قد وصل إلى مقامٍ ليس فوقه مقام، أو إلى نهاية ليس فوقها مَطلب فقد كذب؛ لأن فضل الله ليس له نهاية، فما من مقامٍ إلا وفوقه مقام يمكن أن يصل إليه العبد بفضل الله تعالى.

ومراد من أطلق من الشيوخ فقط الوصول، وما في معناه من الألفاظ المذكورة الوصول إلى مقامٍ معلومٍ عندهم يصل الولي فيه إلى أشياء من المشاهدات للصفات والاطِّلاع على عالم الملكوت والمعارف والأسرار، وغير ذلك مما لا يطَّلع عليه غيرهم مع اعتقادهم أن فوق ذلك مقامات ليس لها نهاية.

وهذا كما نقول في جماعة من الأئمة: إنهم بلغوا رتبة الاجتهاد مع علمنا أن ذلك ليس هو نهاية العلم، فمَن بلغ تلك الرتبة يقال له: مجتهد، ومَن تعدَّاها يقال له أيضًا: مجتهد مع التفاوت وعدم البلوغ إلى نهايةٍ لا يستفيد المجتهد بعدها علمًا.

وهذا الذي ذكرته في الوصول ما ظهر لي ولا كتبته حتى وجدت بحمد الله تعالى ما يؤيِّده من كلام السيد الجليل الكبير العارف بالله تعالى الإمام السالك المحقِّق شيخ الإسلام

شهاب الدين السهروردي قَدَّس الله روحَه[1] قال فيما روينا عنه في كتاب «العوارف»:

---

(١) هو الشيخ الجليل السيد الخفيل أستاذ زمانه وفريد أوانه، مطلع الأنوار ومنبع الأسرار. دليل الطريقة، وترجمان الحقيقة، أستاذ الشيوخ الأكابر، الجامع بين علمي الباطن والظاهر، قدوة العارفين، وعمدة السالكين، العالم الرباني، المربي أبو حفص عمر ابن محمد البكري الصوفي السهروردي، مصنف كتاب عوارف المعارف، المشتمل على مكنونات المعارف، ومصونات المحاسن، واللطائف، وغير ذلك من التصانيف الحسنة الجامعة بين بداعة الملاحة، وبراعة الفصاحة، وحلاوة العبارة المشتملة على درر المعارف ومواقيت الحكم، وطلاوة الإشارة المحتوية على حياة القلوب، وشفائها من السقم، وعقيدته معروفة مشهورة موصوفة مشكورة، وكان إذا أشكل عليه شيء من أمرها منها، يرجع فيه إلى الله تعالى ويستخيره حول بيته ويتضرع إليه في التوفيق لإصابة الحق والتحقيق، وكان فقيهًا شافعي المذهب، كثير الاجتهاد في العبادة والرياضة.

تخرج عليه خلق كثير من الصوفية في المجاهدة والخلوة، ولم يكن في آخر عمره مثله.

صحب عمه الشيخ الإمام أبا النجيب، وعنه أخذ التصوف والوعظ.

وصحب أيضًا قطب الأولياء وقدوة الأصفياء الشيخ عبد القادر الجيلي، ثم انحدر إلى البصرة إلى الشيخ أبي محمد بن عبد، ورأى غيره من المشهورين، وكان شيخ الشيوخ ببغداد، وكان له مجلس وعظ عليه قبول وله نفس مبارك.

قال ابن خلكان رحمه الله: ورأيت جماعة ممن حضروا مجلسه وقعدوا في خلوته فكانوا يحكون غرائب مما يطرأ عليهم فيها من الأحوال الخارقة.

وكان كثير الحج، وكان أرباب الطريق من مشايخ عصره يكتبون إليه من البلاد صور فتاوى يسألونه عن شيء من أحوالهم، وسيأتي آخر الفصل إن شاء الله تعالى.

قال ابن نقطة: كان شيخ العراق في وقته صاحب مجاهدة وإيثار وطريقة حميدة ومروءة تامة، وأوراد على كبر سنه.

وقال ابن النجار: كان شيخ وقته في علم الحقيقة، وانتهت إليه الرياسة في تربية المريدين، ودعا الخلق إلى الله تعالى، قرأ الفقه والخلاف والعربية، وسمع الحديث، ثم انقطع، ولازم بيته، وداوم الصوم والذكر والعبادة إلى أن ظهر له قبول من الخاص والعام، وعلا شأنه، وتكلم على الناس، وعقد مجلس الوعظ في مدرسة عمه على دجلة، فحضر عنده خلق عظيم وظهر، واشتهر اسمه وقصد من الأقطار، وظهرت بركات أنفاسه في توبة العصاة، ورأى من الجاه والحرمة عند الملوك ما لم يره أحد.

وانظر في ترجمته: طبقات الشافعية الكبرى (١٤٣/٥)، طبقات المفسرين للداودي (٨٩)، وفيات الأعيان (٤٨٠/١)، مرآة الجنان (٧٩/٤ ، ٨٢)، وروضة الحبور (ص١٧٦)، بتحقيقنا.

وكل مَن وَصَلَ إلى صفو اليقين بطريق الذوق والوجدان؛ فهو في رتبة من الوصول، ثم يتفاوتون.

فمنهم: مَن يجد الله بطريق الأفعال وهو رتبةٌ في التجلّي فينبغى فعله وفعل غيره لوقوفه مع فعل الله، ويخرج في هذه الحالة من التدبير والاختيار وهذه رتبة في التجلى فينبغي فعله وفعل غيره لوقوفه مع فعل الله، ويخرج في هذه الحالة من التدبير والاختيار، وهذه رتبةٌ في الوصول.

ومنهم: مَن يُوقف في مقام الهيبة والأُنس بما يكاشف قلبه من مطالعة الجلال، وهذا تجلٍّ في طريق الصفات؛ وهو رتبة في الوصول.

ومنهم: مَن يَرقى إلى مقام الفناء، مُشتملاً على باطنه أنوار اليقين والمشاهدة، مغيبًا في شهوده عن وجوده، وهذا ضربٌ من تجلّي الذات لخواص المقرَّبين، وهذا المقام رتبة في الوصول، وفوق هذا حق اليقين، ويكون من ذلك في الدنيا للخواص لمح وهو سريان نور المشاهدة في كلية العبد حتى يحظى به روحه وقلبه ونفسه حتى قالبه؛ وهذا من أعلا رتب الوصول.

وإذا تحقّقت الحقائق يعلم العبد مع هذه الأحوال الشريفة أنه يُعد في أول المنازل، فأين الوصول؟ هيهات منازل طريق الوصول لا تقطع أبد الآباد في عمر الآخرة الأبدي! فكيف في العمر القصير الدنيوي!.

قال اليافعي رحمه الله تعالى وهو نصّه بحروفه وهو كلام عزيزٌ نفيسٌ من إمامٍ محقّق أحببت نقله في هذا المكان؛ ليقف عليه كل مَن وقف على هذا ممن يعرف الوصل، ويجهله ويصدِّق به ويكذّبه من معتقدٍ ومنتقدٍ، وكلام الشيوخ في ذلك كثير، ثم أخذ يذكر نزرًا منه.

وقد تكلّم على الوصل وأسراره، والفصل وأنواره، وعلى العبودية وتركّها، وأسرار كل منهما سيدي محي الدين قَدَّس الله سرَّه في فتوحاته، وهو الذي إذا تكلّم بالسرِّ وخوافيه كان الجدير بقولنا فيه:

إذا تكلَّم لم يُبقِ لِذي لسنٍ قَولاً فَصيحًا ولا فهمًا لِذي فِهمِ
وَهُوَ الَّذي إن يَكُن أبدًا ملاحتهِ تَرَى لَديهِ مَلاَّح الكونِ كالخَدمِ

وهو الحقيقُ بقولِ القَائلِ من الأوائل:

إِذَا قَالت حِزام فَصدِّقُوهَا فَإنَّ القَولَ مَا قَالت حِزامُ

وكلامه كالغيلم المغيبة بجمالها الذي لمقفل القلوب فاتح، أو العيلم المعينة التي تعين بفيضها المائح الماتح.

وقد ذكرنا طرفًا من معاني الوصل والوصال في شرح ورد السحر عند قولنا فيه: إلهي دلَّني على مَن يدلَّني عليك، وأوصلني إلى مَن يوصلني إليك، فراجعه تكن ممن أترب لا ممن ترب، وممن أعرب وما أغرب لماء الكؤوس شرب.

والحاصل أن مقام العبودية من أشرف المقامات، ودعوى الوصل لا تسلم لكل مدعٍ فإن له إشارات وعلامات، والدعوى موطن الامتحان وعنده يكرَّم المرء أو يُهان، وأنشدوا:

كلُّ مَن يَدَّعي بما لَيسَ فِيهِ كذَّبَتهُ شَوَاهدُ الامتحَانِ

وكلُّ دعوى لا يُقام عليها دليل لا تُقبل ولو كان صاحبها إلى الحق دليل؛ لأن المحق لا تخفى لوائحه، والسحق لا ترقى حروفه وجوائحه، والمحق قد أضاء بنور الصدق ما حوله والمبطل ليس لكلامه على القلب صوله وإن كان له جوله، فالدعوى أُم الرذائل وتركها أُم الفضائل، فتمسَّك بذيل العبادة وبها تمسك، ولا تغتر ولو ساويت عباده والتَحفَ برداء العبوديَّة، وارتشف ماء برد المقامات الشهوديَّة، واتَّخذ العبوديَّة شعارًا؛ لتكون أنوارها عليك شعارًا، ولا تقف إثر المُنابذ للدين، واحذر له تدين، فسيندم غدًا أبلغ من ندم الكسعي لما استبان النهار، والفرزدق لما أبان النوار، وإذا أشرف على النار وتحقق أنه في دمارٍ وبوار.

وتأمل ما قيل في القطب الغوث من أنه كثير الجماع، فإن فيه يذوق العبد مقام العبوديَّة الذي هو لكل خير جماع؛ لأنه حالته لا يشوبها دعوى قوة ومدافعة؛ بل هي حالة

عجز لبرقع جهل القهر الإلهي رافعه، وأنزل عن رتبة الشهادة وسلِّم القوس بَارِئُها، وأرق بالنفس لمعالي العبوديَّة؛ لتشهد بارِئُها.

قال سيدي محي الدين ﷺ في كتاب «العبادلة»: وقال: العبد إذا سلم من دعوى السيادة سلم، فما قيل فيه عبد إلا ليقف عند ما قيل فيه من المثل ما هلك امرؤٌ عَرف قدره، فما تعدَّى طوره فيأكل الحلال المحض بلا شبهة.

وقال: العَبد المحض ظاهرًا وباطنًا مَن لا يملك شيئًا البتة، فإن مَلك نقص من عبوديته على قدر ما مَلك.

وقال: ما تسمَّى بالمغني إلا لكون الغني به، فمن اتَّصف بصفة الغنى فهو سيِّد، ومَن اتَّصف بصفة الفقر؛ فهو عبدٌ.

وقال: كُن عبدًا في غِناك، وكُن سيِّدًا في فَقرك تكن كاملاً.

وقال: مَن أغناك فقد ولاَّك وأعظم الولاية ولايتك على نفسك، فمَن ولاَّه على نفسه بايعتهُ جوَارحهُ على السمع والطاعة له، وتلك العصمة في الأنبياء، والحفظ في الأتباع الأولياء من المؤمنين.

حدَّثني الأخ في الله الشيخ مصطفى بلَّغة الله منازل الصفاء عن نفسه: إنه قد خرج عن جميع ما يملك من سنين حتى ثياب بدنه، وملَّكها لبعض أصدقائه ثم أنه أعاره ما يحتاج إليه من ملبوسٍ وغيره محبةً في رتبة الفقر الكلِّي الملازم، والعبودية التي مَن أمَّها كان ما رأيه حازم.

قال الشعراني ﷺ في «الجواهر والدرر»: قال: من عوائد النفوس استغناء الفقير بالله عن الناس؛ لأن شهود ذلك يحجبه عن الفقر إلى الله تعالى الذي هو صفته على الدوام والرجل عندنا إنما هو مَن عرف قدره وتحقق بصفته، ولم يخرج عن مواطنه، وأبقى على نفسه، خلقه ربَّه ولقَّبه واسمه الذي لقَّبه به.

وسمَّاه في قوله: ﴿**أَنتُمُ الفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ**﴾ [فاطر:١٥].

يسمعوه فنسأل الله اللُّطف.

وقال: من المكر الإلهي في المتأوِّلين من أهل الاجتهاد وغيرهم، ومَن يعتقد أن كل مجتهدٍ مُصيب ويدعو على غير بصيرةٍ وعلمٍ قطعي.

وكذلك مكر الله تعالى بالخاصة خفي مستور في إبقاء الحال عليهم، وتأييدهم بالكرامات مع سوء الأدب الواقع منهم، فتراهم يتلذَّذون بأحوالهم، ويتهجَّمون على الله في مقام الإدلال وما عرفوا ما ادَّخر لهم من المؤخذات نسأل الله تعالى العافية، قال.

وقال: مَن عَبد الله تعالى من حيث ما وصفه الشرع فهو المؤمن حقًّا، ومَن عَبد الله من حيث ما دلَّ عليه العقل فهو ضعيف الإيمان، فصحة التوحيد هو المقصود، قال.

وقال: لا ينقص الكمَّل من الرجال خوفهم من سَبعٍ أو ظالمٍ أو نحو ذلك؛ لأن المراد النشأة الإنسانية أصلي، فالنفوس أبدًا مجبولة على الخوف ولذة الوجود، والعدم لا يعدلها لذَّة، وتوهم العدم العيني له ألمٌ شديد في النفوس لا يعرف قَدره إلا العلماء بالله تعالى، فكل نفسٍ تجزع من العدم أن تلحق به أو بما هو به، وتهرب منه وترتاع وتخاف على ذهاب عينها، فالكامل أضعف الخلق في نفسه لما يشهده من الضعف في تألُّمه بقَرصةِ برغوث، فهو ردمٌ ملآن بذلِّه لنفسه مع شهوده أصله علمًا وحالاً وكشفًا، ولذلك لم يصدر قط من رسولٍ ولا من نبيٍ ولا وليٍ كامل في حضوره أنه ادَّعى دعوى تناقض العبودية: ﴿**وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ**﴾. [العنكبوت:٤٤].

وقال سيدي محي الدين قَدَّس الله سرُّه في العبادات: مَن حافظ على أداء العبادات ذاق طعم العبوديَّة، ومن لم يحافظ عليها كان من الأخسرين أعمالاً.

وقال: لا يشغلك عن حفظ ما كلِّفت شاغل فأن أقامك وعملت؛ حفظك الله بما حفظ به الذكر.

وقال: عليك بالعبادة والشكر، فإن ذلك يمنحك الزيادة، والعبادة تورِّثك العزَّ الدائم الذي لا يُرام.

واعلم أن علامة المعرفة أو العلم بالله تعالى الخوف منه، والخوف يستدعي الموافقة

بموافقة الحق إمتثال أوامره واجتناب نواهيه، وهذه هي حقيقة العبوديَّة وثمرة الخوف العلم لما في الحديث: «**لو خِفتم الله حق خِيفته لعلمتم العلم الذي لا جهل معه، ولو عرفتم الله حق معرفته لزالت لدُعَائكم الجبال**»[(١)] رواه الحكيم عن معاذ.

وعنه ﷺ: «**لو تعلمون ما أعلم؛ لبكيتم كثيرًا ولضحكتم قليلاً ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى لا تدرون تنجون أو لا تنجون**»[(٢)].

وعنه ﷺ: «لو تعلمون ما أنتم لأقون بعد الموت ما أكلتم طعامًا على شهوة أبدًا، ولا شربتم شرابًا على شهوة أبدًا، ولا دخلتم بيتًا تستظلون به، ولخرجتم إلى الصعدات تلدمون صدوركم وتبكون على أنفسكم»[(٣)] رواه ابن عساكر عن أبي الدراداء.

قال في المختار: واللَّدم صوت الحجر، والشيء يقع بالأرض وليس بالصوت الشديد.

وفي الحديث: «**والله لا أكون مثل الضبع تسمع اللَّدم حتى تخرج فتصاد**»[(٤)].

وعنه ﷺ: «**رأس الحكمة مخافة الله**»[(٥)] رواه الحكيم وابن لآل عن ابن مسعود.

وعنه ﷺ: «**كان الناس يعودون داود يظنون أن به مرضًا وما به إلا شدة الخوف من الله تعالى**»[(٦)] رواه ابن عساكر عن ابن عمر.

وصحَّ عنه ﷺ: «إنه كان يقوم من الليل حتى تفطَّرت قدماه، ولما قيل له: يا رسول الله أتجدُّ على نفسك وقد غفر لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر، قال: أفلا أكون عبدًا شكورًا»[(٧)].

---

(١) رواه الحكيم الترمذي في النوادر (١/٢٣٦)، وأبو نعيم في الحلية (٨/١٥٦).

(٢) رواه البخاري (٦/٢٤٤٥)، ومسلم (٢/٦١٨)، وأحمد (٢/٢٥٧).

(٣) ذكره المناوي (٥/٣١٨).

(٤) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٢/٤٥٧).

(٥) رواه الديلمي في الفردوس (٢/٢٧٠)، والبيهقي في الشعب (١/٤٧١).

(٦) رواه أبو نعيم في الحلية (٧/١٣٧)، وذكره المناوي في فيض القدير (٤/٥٤٤).

(٧) رواه ابن حبان في المجروحين (٢/٣١)، وابن المبارك في الزهد (١/٣٥).

وكان يقوم في تهجُّده على إحدى رجليه فأنزل الله عليه: ﴿**طه*مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى**﴾ [طه:١، ٢]: أي والمعنى على أحد الأوجه طأها: أي الأرض بكل قدميك، وكان مع علمه بما إليه يصير يبكي في صلاته حتى تبتل من بكائه الحصير.

وفي الحديث: «**ليس شيء أحب إلى الله تعالى من قطرتين؛ قطرة دمع من خشية الله تعالى، وقطرة دم يهراق في سبيل الله تعالى**»[١].

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «**لأن أدمع من خشية الله أحبُّ إليَّ من أن أتصدَّق بألف دينار**»[٢].

وقيل: أوحى الله تعالى إلى شعيب عليه السلام: هب لي من عنقك الخضوع، ومن قلبك الخشوع، ومن عينيك الدموع، وأدعني تجدني قريبًا.

ورُوي عن مجاهد أنه قال: بكى داود عليه السلام أربعين يومًا وهو ساجد لا يرفع رأسه حياءً من الله تعالى حتى نبت من دموعه المرعى، وغطّى رأسه فنودي: يا داود أجائع أنت فَتُطعم؟ أم ظمآن فتسقى؟ أم عارٍ فتُكسى؟ أم مظلومٍ فننتصرُ لك؟ فزاد بكاؤه بهذا الخطاب، فأنزل الله عليه التوبة والمغفرة.

قال الله عز وجل: ﴿**فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ**﴾ [ص:٢٥].

ورُوي: إنه كان يحمل القدح والماء في ثلثه؛ ليشرب منه فلا يضعه حتى يملأه ويفيض من دموعه، فإذا كان هذا حال أنبياء الله تعالى الصفوة الخيِّرة الذين لا يشهدون إلا خيره ولا يعرفون غيره معرفة تمام وكمال، جامعة للجلال والجمال، فكيف بمن دونهم في هذه الرتبة العليَّة، والمنـــزلة الواضحة الجليَّة.

وعن وهب بن منبه رضي الله عنه: سجد آدم عليه السلام على جبل الهند مائة عام يبكي حتى جرت دموعه في وادي سرنديب، فأنبت الله تعالى في ذلك الوادي من دموعه الدارصيني

(١) رواه الترمذي (٤/١٩٠)، والديلمي في الفردوس (٣/٣٨٤)، وابن عدي في الكامل (٧/٨٠).

(٢) رواه الديلمي في الفردوس (٥/١٧٤).

والقرنفل وغير ذلك من الطيب، وجعل طير ذلك الوادي: الطاووس.

فهل هذا البكاء إلا من شدة الخوف الذي هو علامة معرفة الحق سبحانه وتعالى، ودليل الإيمان.

قال الله تعالى: ﴿**وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ [آل عمران:١٧٥].

وقال: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾ [فاطر:٢٨].

ونقل سيدي الشيخ إسماعيل بن سودكين في آخر شرح المشاهد[١] الذي تلقَّاه من فهم شيخه سيدي محي الدين قَدَّس الله سرَّه قال: ثم لتعلم أن العلل التي تصدُّك عن طريق الاستقامة الكاملة غير منحصرة، مستقرَّها كتاب الله تعالى.

وحديث رسول الله ﷺ: «**فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون وإني لك بالأمن**»[٢].

ورسول الله ﷺ يقول: «**اللَّهم إني استغفرك مما علمت ومما لم أعلم، فقيل له: آتخاف يا رسول الله؟ فقال: وما يؤمِّني والقلب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلِّبه كيف يشاء**»[٣].

والله تعالى يقول: ﴿**وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ**﴾ [الزمر:٤٧] فالإنسان محلٌّ للتغيير، قابل لكل صفةٍ تَرد عليه.

ولذلك قال بعض العارفين: لو عُرضت عليَّ الشهادة عند باب الدار، والموت على التوحيد عند باب الحجرة لاخترت الموت عند باب الدار على الشهادة؛ لأني لا أدري ما يعرض لقلبي من التغيير عن التوحيد إلى باب الحجرة، فكن على حذر ما دام تركيبك.

قال الله تعالى لموسى ﵇ في التوراة: يا ابن آدم لا تأمن مكري حتى تجوز على الصراط.

---

(١) هو شرح مختصر (أتم الله تحقيقه).

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٢٥٣/١٢)، والبيهقي في الشعب (٢٧١/١).

(٣) ذكره المناوي في فيض القدير (١٣١/٢).

فالآفات رحمك الله كثيرة، والطريق دقيق أدق من الشعرة، وأحدّ من السيف لا يثبت عليه إلا أهل العناية، فباللحظة والخطوة تُزل الأقدام.

ألا ترى أن أبا سليمان الداراني يقول: سمعت من بعض الأمراء شيئًا فأردت أن أنكر فخفت أن يقتلني، وما خفت من الموت ولكني خِفت أن يعرض لقلبي التزين للخلق عند خروج روحي؛ فكففت.

فانظر حَذرَهم من الزلل مخافةَ الفوت، فإن أردت أنوارهم وأسرارهم؛ فاسلك آثارهم.

وقال في «لواقح الأسرار» وسألته ﷺ عن قول القائل:

إِن عَينًا تَراكَ في الدَّهرِ يَومًا ... تِلــكَ عَينٌ مِن العَمَا في أَمَانِ

فقلت: أيصح عدم الخوف لصاحب هذه العين والمقام؟

فقال أيّده الله تعالى: ثمَّ أصلٌ ينبغي أن تعلمه وتتحقق به.

قلت: إن شاء الله يا سيدي.

قال: وهو أن لا تحكم على الله تعالى بشيء ولو بلَّغك أعلا المراتب وأكملها، وقال لك: رَضيتُ عنك رضائي الأكبر، فبعد هذا كلِّه لا تأمنه، ينبغي أن تُؤتِي الألوهية حقَّها.

وانظر إلى الخبر الذي ورد عن جبريل وإسرافيل عليهما السلام: إنهما كانا يبكيان فقال لهما الحق وهو أعلم: ما الذي يبكيكما؟

فقالا: خوفًا من مكرك.

فقال لهما سبحانه: كذلك فكونا والسلام.

وقال سيدي محيي الدين قَدَّس الله سرَّه فيما لا يعول عليه: كل حالٍ أو كُشفٍ أو علمٍ يعطيك الأمن من مكر الله تعالى لا يعول عليه.

وقال: البشرى بالأمن من مكر الله تعالى بطريق الكشف لا يعول عليه، فإنه من علوم

السرِّ التي اختُصَّ الله بها.

وقال سيدي محمد البكري قَدَّس الله سرَّه في «الأسرار» في رسالته «أخبار الأخيار»: وقد جاء عن جدِّنا أبي بكر الصديق ﷺ: إنه كان يكثر البكاء خوفًا من ربِّه ورهبًا وتضرعًا إليه ورغبًا.

فقيل له في ذلك: هذا وأنت بشَّرك النبي ﷺ بالجنة.

فقال: أخشى أن يكون ذلك مُعلَّقًا على شيء.

فانظر هذا التحرِّي الجليل ممن هو في هذه الأمة نظير إبراهيم الخليل، وقد وُصفَ له في مرض موته ﷺ الماء والعسل، فجيء له بالقدح منه ناقصًا، فلمَّا أمسكه أخذه البكاء حتى طفح القدح من دموعه، وبكا لبكائه مَن كان حاضرًا و لم يشرب من القدح شيئًا، وسُئل عن سبب ذلك.

فقال: كنت مع رسول الله ﷺ فرأيته يدفع عن نفسه شيئًا، و لم أرَ معه أحدًا.

فقلت: يا رسول الله ما الذي تدفعه عن نفسك؟

فقال: هذه الدنيا تمثَّلت لي، فقلت لها: إليك عني ثم رجعت، فقالت: إنَّك إن فلت مني لم يفلت مني من بعدك، فكأنه خاف أن يكون هذا القدح منها ﷺ.

وكان ﷺ إذا حضر وقت الصلاة تغيَّر لونه، فيسأل عن ذلك.

فيقول: جاء وقت الأمانة التي عرضها الله ﷻ على السموات والأرض والجبال فأبينَ أن يحملنَّها، وأشفقن منها، وحملها الإنسان إنه كان ظلومًا جهولاً، وكان يُشَم منه رائحة الكبد المشوي.

حدَّثنا شيخنا الملا عبد الرحيم الهندي المشهور عندنا بالأزبكي نفعنا الله به: إنَّه رأى في بعض الكتب أن الصدِّيق الأكبر ﷺ كان يستعمل الذِكر القلبي على طريق النقشبنديَّة مع حبس النفس رغبةً في حصول الجمعيَّة الكليَّة ومشاهدة الذات العليَّة، ومن طيب ذاك التجلِّي وفرط التحلِّي كان لا يتنفس إلا عند الصباح مرة، فتشم الجيران منه رائحة اللحم

المشوي فتضررت من ذلك ظنًا منهم أنه يطبخ اللحم في داره ولا يُنيلهم منها، وشكته إلى النبي ﷺ فأخبرهم أن هذه الرائحة التي تجدونها رائحة كبده، وليس هناك لحمٌ أو ما في هذا المعنى.

وقد سَبكت معنى هذه القصة في الألفية في فضل الذِكر وأقسامه، وكيفية الذِكر القلبي فقلت:

وَقَــد حَكَــى لي شَيخُنَا المِقدَامِ   عَــبد الرَّحيمِ الأزبَكي الهُمام
هــدى أصــل في بِلادنا اشتهَر   بــالأزبكي وَفَضلَه فيهَا ظَهر
عن جِدِّنا الصدِّيق سَامي اللَّهجة   مِــن حُــبِّه يَلزمُ كُلَّ مُهجةِ
بِأنَّــه كَــانَ مِــن المسَــا مَرَّةٌ   وَمَــا لعَقلِــهِ الحبيب خَامره
لم يَتــنفَّس لَــيلَه بالمــرَّة   إلى الصَــباحِ يُظهــرنَّه مَرة
فَيــبدُو مِــن تَــنفُّس الأسرَارِ   رِيــح لحــومٍ شُويت بالنَارِ
فَاشْــتكت الجــيرانُ للحبيــبِ   عَلى الصِدِّيق مُرتضى القَريب
بِأنَّــه يَشــوِي الــلحومَ عِندهُ   وَرِيحهَــا يَضــرُّنا فَصــدَّه
فاعــتذرَ الهــادي إلى القصــاد   بــأنَّ ذا مِــن زَفرةِ الأكبَادِ

ولقد جرى معه الكلام في فضائل الصدِّيق ﷺ فقال: لقد رأيت في الجامع الكبير حديثًا من أن الشيطان لا يتمثَّل بصورته.

قال: وكتبت عليه مطلبًا، قلت: وقد رأيته في الإكمال للشيخ علي بن حسام الدين التقي الهندي الذي رتَّب فيه الجامع الكبير.

والحديث: «**مَن رآني في المنام فقد رآني فإن الشيطان لا يتمثَّل بي، ومن رأى أبا بكر الصدِّيق في المنام فقد رآه فإن الشيطان لا يتمثَّل به**»[1] رواه الخطيب والديلمي عن حذيفة وسعيد بن منصور.

---

(١) رواه البخاري (٥٢/١)، ومسلم (١٧٧٤/٤)، والترمذي (٥٣٥/٤).

وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ يُقرع باب حذيفة بن اليماني في جنح الليل باكيًا، ويقول: ناشدتك الله لما عدَّ عليك رسول الله ﷺ أسماء المنافقين فهل عدَّ عمر فيهم؟ فكان حذيفة يبكي ويقول: أنت لست منهم ورب الكعبة.

فيقول عمر: يا حذيفة أنت عندي صادق القول، ولكن عملي يشبه عمل القوم، وكان يقول: ليت أم عمر لم تلد عمر، يا ليتها كانت عاقرًا لم تعالج حملها إلا من يأخذها بما فيها ولها، وكان يمرّ بالآية من ورده، فيسقط حتى يعاد منها أيامًا، وكان في وجهه خطّان أسودان من البكاء.

وقال سيدي محيي الدين قَدَّس الله سرَّه في كتابه «روح القدس في مناصحة النفس»: قلت لها: فلا مع الأحرار أنت ولا مع الموالي، فصغرت وقالت: كل ذلك لم يكن انتقل عن هذا، قلت: نعم هذا عثمان بن عفان ﷺ.

رَوينا بالسند الصحيح عن شرحبيل بن مسلم: إن عثمان بن عفان ﷺ كان يطعم الناس طعام الإمارة، ويدخل بيته فيأكل الخبز والزيت، ناشدتك الله يا نفسي هل فعلت هذا مع أصحابك قط آثرتيهم باللطيف واستأثرت بالخشن؟

فقالت: لا والله بل كنت على أحد وجهين معهم، إن لم يكن عندي طعام غير ما جعلت بين أيديهم شاركتهم فيه، وإن كان عندي أرق منه أكلت منه وحدي، ذلك مثل الحلوى والخشكتان وغير ذلك، وأقول: هذا غذاءٌ لينٌ لي، وألبس علي نفسي بهذه الترهات حتى لا أتنغَّص به عند أكله.

وأقول: هؤلاء الإخوان في محل التربية، فينبغي ألا أزرع حبَّ الشهوات في قلوبهم بإطعامي لهم مثل هذا، ومقامي لا يؤثر فيه مثل هذا الطعام، فلا بأس بتناولي إيَّاه فآكله على هذه الحالة، وقد عَميت عن مطالبة الحق في موازنة المعاشرة، وأدناها أن أشاركهم في خشونتهم لما أعرفه من تأثير الحقائق، ولا شك أن عثمان ﷺ ما فعل هذا في بدايته، فتجد عنه مندوحة؛ وإنما فعله بعد التمليك، قلت لها: بارك الله فيك يا نفسٌ إذ أنصفت.

قالت: الحقُّ أحق أن يُتَّبع هات غيره.

قلت لها: هذا عليٌّ بن أبي طالب ﷺ باب مدينة العلم النبوي، وصاحب الأسرار وإمامها.

رَوينا بالسند الصحيح عن ضرار بن ضمرة الكندي قال: أشهد بالله لقد رأيت عليًّا في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله، وغابت نجومه يتمثّل في محرابه قابضًا لحيته الشريفة يتململ تملمُل السليع أعني: اللذيع، ويبكي بكاء الحزين، فكأنّي أسمعه الآن وهو يقول: يا ربَّنا يتضرَّع إليه، ثم يقول للدنيا: أبي تَغرَّرت أبي تَشوقت، هيهات هيهات غُرِّي غيري وقد أبنتك ثلاثًا! فعمرُك قصير، ومجلسك حقير، وخطرك كبير، أواهٌ من قلة الزاد وبُعد السفر ووحشة الطريق.

رَوينا من حديث نوفل النبكاني قال: رأيت علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه خرج فنظر إلى النجوم، فقال: يا نوفل أراقدٌ أنت أم رامقٌ.

فقلت: بل رامقٌ يا أمير المؤمنين.

فقال: يا نوفل طوبى للزاهدين في الدنيا الراغبين في الآخرة! أولئك قومٌ اتخذوا الأرض بساطًا وترابها فراشًا وماءها طيبًا والدعاء والقرآن دِثارًا وشعارًا، رفضوا الدنيا على منهاج عيسى عليه السلام يا بحورًا تحوي هذه الألفاظ الرائقة البليغة ليس لها سواحل ناشدتك الله يا نفس هذا عليٌّ ﷺ على تمكّنه فيما تدَّعيه من المقام والحال، قد علم المقام وعمله وأحكمه ووفَّى الحقائق حقَّها على أتم الوجوه، ولم يحتج إلى تلويحات الأحوال كما فعلت أنت وأكثر العارفين الذين انبسطوا بعد قبضهم، وأَنسوا بعد هيبتهم، وجمعوا المال بعد ما كانوا رموا به، فرجعوا فرجع عنهم، فتخيلوا أنهم في الحاصل وهم في الغائب.

انظري يا نفس تمكُّنه في المعارف، وتبرُّزه في صدور المواقف، وضربه بيده إلى صدره فيقول: إن ها هنا علومًا جمَّة لو وُجدت لها حملة.

وهذا عمله في خِلوته يخاطب دنياه بلسان ومولاه بلسان توحيدًا مكمِّلاً، وتمييزًا محقّقًا لم يخلط بين الحقائق ولا داخل الرقائق بعضها على بعض، أحكم الحال والمقام، وعلم بأنها ليست بدار مقام، فعاملها معاملة الراحل، فِعلُ الحكيم الحازم لم تحجبه مخاطبته لدنياه

بلسان الهجر والقلا، وتحسُّره على قلة الزاد وبُعد الطريق وذِكر الوحشة بعد تحصيل الأُنس وتغبيطه الدارجين على منهاج مَن وجد شيئًا من غير شهوة فلم يعلق بقلبه كون، ولا يحجبه ذلك كله عن تحققه في المشاهدة؛ بل ذلك تمكينٌ حيث أعطى المواطن حقّها وأنصف ربَّه ونفسه ودنياه وآخرته، فبقى حرًّا في وقته، أُتي كل ذي حقٍّ حقَّه في نفسه.

أنشدك بالله يا نفس على معرفتك القاصرة ومشاهدتك هل صاحبت هذا الحال استصحاب هذا الإمام؟

قالت: لا والله؛ إنما هي بوارقٌ تلمع، وأهلَّة تَطلع في أوقات دون أوقات والغالب الشتات، ومَن رأيت من المتشيخة المتصرِّف فيها، والآخذ من طيباتها من جهة حقائق الإيجاد السلبي والاستخلاف الذي صحَّ لي، وهو نقصٌ في الحكمة حيث لم أكن مثل علي ﷺ بحكم الموطن، والله ما لي شبيه إلا بمن غاط في المسجد، وصلَّى في المرابض.

وهكذا كل مَن وسَّع على نفسه في الدنيا من عالٍ ودوَّن؛ فالكل والله تافه وفي العماية تائه إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، لولا أني أريد أن أقف على أحوال هذه السادة؛ لطويت معك بساط المناظرة، وعدَّلنا عن هذه المحاضرة.

فقد رماني هذا الزمان بداهية ما أرى لها ناهية، وقاصمة ما أرى لها عاصمة وقد أسلمت لبرهان العلم، واستسلمت لسلطان الحكم، ومن مثل علي وهذا مقامه ومَن يُعادله وهذا كلامه، لو لم ينبِّه لغفلتنا عن شرف منـــزلته إلا بسكوت الحصى في كفِّه؛ لكان ذلك تنبيهًا لكل قلب نبيه، فيا سوء ما كنت فيه! جزاك الله عني خيرًا، زدني زادك الله حكمةً وإيقانًا وحفظًا وتبيانًا.

قال: فقلت لها: نعم هذا الذي بشرت غير ما مرة أنك في مقامه أبو بكر الصدِّيق ﷺ. رَوينا بالسند الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما: إن أبا بكر الصدِّيق ﷺ خرج حين توفي رسول الله ﷺ، وعمر ﷺ يكلِّم الناس.

فقال: اجلس يا عمر، فأبى أن يجلس.

فقال: اجلس يا عمر، فتشهَّد أبو بكر ثم قال: أيُّها الناس مَن كان يَعبدُ محمدًا، فإن

محمدًا قد مات، ومَن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت، ثم تلا قوله تعالى: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً**﴾ [آل عمران:١٤٤].

فسكن جأشهم بالقرآن وهو لم يزل ساكن القلب مع الرحمن، أنشدك بالله يا نفس هل حصلت بالسرِّ الذي تدَّعي أنه حصل لك من الحق حالاً ومقامًا من تعظيم الله تعالى ما علمت به تعظيم من عظمة الله تعالى إيَّاه، ثم وفَّيته حقَّه في ذلك بكل شيء هالك إلا وجهه، من غير أن يسقط باستيلاء سلطان عظمة الله تعالى من قلبك عظمة خير العالمين إلى مَن دونه؟

قالت: لا والله يا وليي إنما أنا بين فناءٍ وبقاءٍ وتلاشٍ وانتعاشٍ وإقبالٍ وإدبارٍ ووصولٍ ورجوعٍ، وما كنت فهمت هذا من هذا الكلام الذي خرج من فم الصدِّيق حتى نبَّهتني عليه، ولا سمعته من أحدٍ من أشياخنا، ولا رأيته على أن لنا بحثًا وأسرارًا في الصحابة وتعظيمهم ومكانتهم ما سبقت إليه، ولا رأيت أحدًا ممن لقيته من أصحابنا عثر على ذلك، إلا أنهم يحمحون عليه، ويحومون حوله، ولم يجدوا لتحصيله منفذًا وإنما هو وهبٌ إلهيٌّ لا يُوصل إليه بعملٍ وهم يطلبونه بالاستعداد والمجاهدة.

ثم أخذ يسرد عليها من أحوال هؤلاء السادة الرجال، ويذكر لها أسرارًا ما ينهها عليه بما يفوق السحر الحلال.

وقد ذكرت لك كلامه بتمامه؛ لتتأمَّل في تحقيق مقصوده ومرامه؛ ولتتنبَّه بما أسلفته إلى رد قول: مَن ضلَّ عن سواء السبيل إن الشريعة لأهل الحجاب لا لأهل التحقيق، وفعله ﷺ للتشريع، لا أن مقامه يقتضي ذلك.

فانظر هذا القول الفظيع ونحن نبرَّأ إلى الله تعالى من كل قولٍ يُبطل حُكمًا من أحكام ظاهر الشريعة ذات المشاهد العليَّة والمعاهد الرفيعة.

وأقول كما قال الإمام الشافعي ﷺ: آمنت بالله وبما جاء من عند الله على مراد الله تعالى، وآمنت برسول الله وبما جاء به رسول الله من عند الله على مراد رسول الله.

وأين الإيمان بالله ويوم الحساب عند مَن يعدل للإشارة، ويدع صريح نص الكتاب والسنَّة، فهل هذا إلا زيغٌ عن طريق السداد، وانحراف عن صوب الصواب، وأخذ السداد وحال من وهم في حسبانه حتى ظنَّ الوهم الواضح ضيق، والضيق في عرفانه لطلبه بلوغ شأو المعرفة قبل أوانه، فعوقب بسبب استعجاله أن خص بحرمانه، ووقع في مهاوي الهوى، ومال عن قبة أرين الاستواء على ظهر حب الظهور الذي يقصم الظهور استوى، ولوى عنانه للقصور عن عَلي القصور، فاخلد إلى الأرض وغوى.

وربما يقول بعض مَن غرق في لجج الضلال وثوى: إن الشَّريعة علَّة لقيام نظام العالم، وهي للسقيم كالدواء، فمن زال سَقمه، وحصلت له المعرفة استغنى عن الدواء؛ لمشيه على السواء.

وهذا ضلالٌ واضحٌ، وانحلالٌ لجهل صاحبه فاضحٌ، نسأل الله السلامة لنا ولسائر إخواننا بجاه من ظللته الغمامة، أو يخشى العاقل بعد العُروة الوثقى التي ليس لها انفصام مخاصمة، مبطل موصوفٌ بأنه ألدِّ الخصام.

وهذه السُّنة الغراء واضحة الأعلام، ثابتة الأحكام بإتقانٍ وإحكامٍ، فمَن حَادَ عنها، فلا طهارةَ له إلا بالسيف، وقاتله مُثَاب مأخوذ لا يُوصف بحيف، فالخوف مِن الله تعالى سيمة العارفين، والأمن من مكر الله صفة القوم الخاسرين.

ولنذكر لك منَّة ذَكرها الشعراني آخر مننه الوسطى فعسى أن يستيقظ الوسنان ويسلك الحالة الوسطى.

قال سيدي عبد الوهاب الشعراني ﷺ: ومما أنعم الله به عليَّ، وتفضَّل كثرة حلمه عليَّ، وعدم معاجلتي بالعقوبة على شيء من ذنوبي التي لا تحصى عددًا، مع أني استحق عند نفسي خسف الأرض بي، والمسخ لصورتي لولا حلمه تعالى عليَّ، وإمهاله، وهذه النعمة المباركة من أعظم ما منَّ الله تعالى به عليَّ بعد نعمة الإسلام والعافية.

كما ورد مرفوعًا: «**سلوا الله العفو والعافية فإنه ما أعطى عبدًا في الدنيا بعد الإسلام مثلهما**»(١).

وبهذه النعمة يكون ختام الكتاب؛ إذ هي أكبر نعمة يجب على العبد الاعتراف بها؛ لأنها محط رحال الأوَّلين والآخرين.

وفي الحديث: «**لا يدخل أحد الجنة بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله، قال: ولا أنا إلا أن يتغمَّدني الله برحمته**»(٢).

وكان سيِّد الطائفة أبو القاسم الجنيد رحمه الله تعالى يقول: ينبغي للعبد أن يختم أعماله كل وقتٍ بالاستغفار.

ولقوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾ [الأنفال:٣٣].

وتقـــدَّم قوله في مقدمة الكتاب: لا يبلغ العبد كمال الشكر لله تعالى حتى يرى نفسه أنها ليست بأهل أن تنالها رحمة الله ﷻ يعني: وإنما رحمة الله لها من باب المنَّة والفضل.

وفي القرآن العظيم: إن يوسف عليه السلام قال: ﴿**رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي من تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ**﴾ [يوسف:١٠١].

فذكر ما أنعم الله به عليه قيامًا بواجب الشكر له تعالى، ثم خاف أن يكون ذلك استدراجًا من حضرة الإطلاق التي يفعل الله منها ما يشاء، فسأل ربَّه أن يتوفَّاه مسلمًا ويلحقه بالصالحين، هذا مع كونه معصومًا، ولكن من شأن الخواص أن يهضموا نفوسهم بين يدي الله ﷻ لا سيما عند الانتقال من هذه الدار، فإن ذلك متعين، ولكل وقتٍ حالٌ يناسبه.

كما أن اللائق بمن وقع في معصية أن يقول: سبحان الحليم، أو لا إله إلا أنت

(١) روى الإمام أحمد في مسنده (٣/١، ٧) بنحوه.

(٢) رواه أحمد (٤٥١/٢)، والحكيم الترمذي في النوادر (٩٥/١).

سبحانك إني كنتُ من الظالمين، أو استغفر الله العظيم ونحو ذلك، ولا يناسبه قراءة نحو بلا أصول ولا فروع فقه عاطلة فافهم.

ولا تظن يا أخي أن قولي عن نفسي: إني قد استحقَّيت الخسف بي، لولا حلم الله تعالى، تواضع مني، وهضم لنفسي، وإنما ذلك قولٌ بحق وصدق، فإن الله تعالى قد خسف بقوم كانوا أقل منَّا ذنوبًا.

فروى الإمام أحمد والبزار مرفوعًا: «**بينما رجلٌ ممن كان قبلكم خرج في بُردين خضرين يختال فيهما؛ إذ أمر الله الأرض فأخذته فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة**»(١).

وروى البزار ورواته رواة الصحيح مرفوعًا: «**إن رجلاً كان في حُلَّة حمراء يتبختر ويختال فيها، فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة**»(٢).

وروى الشيخان مرفوعًا: «**بينما رجلٌ يمشي في حُلَّة تعجبه نفسه؛ إذ خَسف الله تعالى به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة**»(٣).

قلت: وقال في المختار: وتجلجل في الأرض ساخ فيها ودخل.

وفي الحديث: «**إن قارون خرج على قومه يتبختر في حُلَّة، فأمر الله الأرض فأخذته فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة**»(٤)، قال.

وفي البخاري عن ابن عباس: «**إن ذلك كان في زُقاق أبي لهب بمكَّة، وممن رآه حين خسف به العباس بن عبد المطلب** ﷺ»(٥).

وروى الترمذي وغيره مرفوعًا: «يبيت قومٌ على لهوٍ ولعبٍ، فيصبحون وقد مُسخوا قردة وخنازير»(٦).

---

١) رواه أحمد (٣/٤٠).

٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/١٢٦)، والمنذري في الترغيب والترهيب (٣/٣٥٧).

٣) رواه البخاري (٥/٢١٨٢)، والديلمي في الفردوس (٢/١٦).

٤) رواه مسلم (٣/١٦٥٤)، وأحمد (٢/٢٢٢).

٥) لم أقف عليه في البخاري.

٦) رواه الطبري (٧/٢٢٦)، وذكره ابن حزم في المحلى (٩/٥٩).

وفي رواية للترمذي: «**يبيت قومٌ على لهوٍ ولعبٍ؛ إذ خسف الله بأوَّلهم وآخرهم**»(١).

فانظر يا أخي إلى هذه الأمور التي وقع الخسف بأهلها تجدها دون ذنوبنا بيقين، فلا يستبعد وقوع الخسف به في هذا الزمان المبارك الحال، إلا كل غافلٍ عن الله وعن العمل بأحكامه والأدب معه.

ووالله ثم والله لو ذاق أحدنا شيئًا من الأدب والحياء مع الله تعالى؛ لوجد ذنوبه من كثرتها لو أنها قسِّمت على جميع أهل الأرض لاستحقوا بها الخسف والهلاك، ولكن سبحان مَن سَبقت رحمته غضبه.

ويؤيِّد ما قلناه قوله ﷺ في ماعِز: «**لقد تاب توبةً لو قُسِّمت على أهل الأرض لوسعتهم**»(٢).

فكما كانت التوبة من بعض الناس إذا قسِّمت على أهل الأرض تسعهم، فكذلك القول في الذنب الواحد من بعض الناس، لو قسِّم على جميع أهل عصره لكفاهم سوءًا ومقتًا.

وإيضاح ذلك: إن مَن أطاع الله تعالى؛ فقد أحسن إلى جميع الخلق، ومَن عصاه فقد أساء إلى جميع الخلق.

كما يعرف ذلك الكمَّل من العارفين، فلا يتعقَّلون قط أنه إذا نزل على أحدٍ من أهل أقليمهم بلاءٌ إلا بواسطة ذنوبهم دون ذنوب ذلك الأحد، حتى يكاد يذوب من الخجل والحياء من الله تعالى ومن خلقه؛ لحجابه عن شهود ذنوب الناس، فيرى أنهم أخذوا به فقط، وذنوب غيره كلها مغفورة.

وقد ذُقت هذا المقام ولله الحمد، وورثته عن سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى،

---

(١) رواه البخاري (٧٤٦/٢)، والنسائي (٣٨٥/٢)، وابن حبان (١٥٥/١٥).

(٢) رواه مسلم (١٣٢٢/٣)، وأبو داود (١٣٤/٤)، والبيهقي في الكبرى (٢١٦/٨).

وعن سيدي عمر الضرير النبتيتي[١].

وصاحب هذا المشهد لا يصير له رأس ترفع بين الناس؛ بل يستحي أن يجالس أحدًا من المسلمين لا سيّما في المحافل.

وقد قدّمنا في هذا الكتاب: إن مالك بن دينار كان يستحي أن يرفع رأسه عن الأرض وإنه كانت السحابة تمرُّ عليه وهو يُملي الحديث فيقطعه، ويقول: اصبروا حتى تمرَّ هذه السحابة، فإني أخاف أن يكون فيها حجارةٌ ترجمنا بها.

وإنهم طلبوه مرة؛ ليخرج معهم للاستقساء، فقال لهم: أخاف أن تمطروا حجارةً بسببي و لم يخرج ﷺ.

وكذلك كان السرِّي السقطي ﷺ[٢] في الخوف، وكان إذا استيقظ من نومه يمسح

(١) قال الشيخ المصنف: أحد أصحاب سيدس أبي العباس الغمري، وكان من الرجال المعدودة في الشدائد، وكان صاحب همة، يكاد يقتل نفسه في قضاء حاجة الفقراء، توفي سنة نيف وتسعمائة، ودفن في نبتيت في زاويته، و لم أجتمع عليه غير مرة واحدة، فدعا لي بأن يسترني الله بين يديه في القيامة. وانظر: الطبقات الكبرى (٢/١١٤).

(٢) هو أبي الحسن سري بن المغلس أبو الحسن السقطي. أحد رجال الطريقة وأرباب الحقيقة، كان أوحد زمانه في الورع وعلوم التوحيد. وهو خال الجنيد وأستاذه، صحب معروفًا الكرخي، وكان أوحد زمانه في الورع والأحوال السنية وعلوم التوحيد وهو أول من تكلم فيها ببغداد، إليه ينتمي أكثر المشايخ. وحكي عن عبد الله بن الفضل أنه قال: حضرت السري السقطي وهو يجود بنفسه فلحظني بعينه فرآني أبكي، فقال لي: ما لك تبكي؟ فقلت: لما أرى بك؟ فقال: لا تبك لأني قد حسبت حسابي مع الله ﷻ، كنت أطلبه عشرين سنة حتى وجدته، فلما وجدته استخدمني عشر سنين، ثم أبكاني فبكيت عشر سنين، ثم شوقني فاشتقت إليه عشر سنين، ثم أفناني ففنيت عشر سنين، وأنا الآن أؤمل أن يرده فأبقى له وبه ومعه، فينبغي يا أبا محمد تهنيني.

وحُكي أنه لما توفي رؤي في المنام، فقيل له: ما فعل الله بك؟، فقال: غفر لي ولمن حضر جنازتي وصلى علي، قال الرائي: فإني ممن حضر جنازتك وصلى عليك، قال فأخرج درجًا درجًا ونظر فيه فلم ير فيه اسمي، فقلت: بلى قد حضرت فنظر، فإذا اسمي في الحاشية.

وسبب زهده: أنه كان يجول في السوق ويتردد إلى معروف الكرخي.

=

جهه بيده، فقيل له في ذلك.

فقال: أخاف أن يكون الله تعالى قد مسخ صورتي صورة خنـــزير وأنا نائمٌ عن حضرته.

وكان يقول: أشتهي أن أموت في بلدٍ غير بغداد، فقيل له في ذلك.

فقال: أخاف أن لا يَقبلني قبري فأفتضح فيسيء الناس ظنَّهم بأمثالي، وكانت المرآة لا تفارقه فينظر فيها وجهه، ويقول: أخاف أن يكون وجهي قد أسود من سوء ما أتعاطاه وكثيرًا ما كان ينظر في طاق أنفه إذا فقد المرآة ﷺ.

قلت، ونقل صاحب الرسالة في ترجمته أنه قال: التصوف اسم لثلاثة معاني وهو الذي لا يطفيء نور معرفته نور ورعه، ولا يتكلّم بباطن مَن علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب، ولا تحمله الكرامات على هتك أستار محارم الله تعالى.

وقال قبل هذا: سمعت أبا عبد الرحمن السلمي يقول: سمعت أبا بكر الرازي يقول: سمعت أبا عمرو الأنماطي، يقول: سمعت الجنيد يقول: ما رأيت أعبد من السرِّي السقطي أتت عليه ثمان وتسعون سنة ما رُؤي مضطجعًا إلا في علة الموت.

=

وقال: وأحسن الأشياء خمسة: البكاء على الذنوب، وإصلاح العيوب، وطاعة علام الغيوب، وجلاء الرين من القلوب، وأن لا يكون لما تهوى ركون.

وقال: لو أن رجلاً دخل إلى بستان فيه من جميع ما خلق الله من الأشجار عليها كلما خلق الله من الأطيار يخاطبه كل طير منها بلغة، وقال له: السلام عليك يا ولي الله، ثم سكنت نفسه إلى ذلك لكان في يدي نفسه أسيرًا.

توفي ببغداد في سنة إحدى وخمسين، وقيل: سبع وخمسين ومائتين، وقبره بالشونيزية ظاهر يزار.

وانظر في ترجمته: حلية الأولياء (١١٦/١٠، ١٢٦) الرسالة القشيرية (ص١١٢)، وفيات الأعيان لابن خلكان (٢٥١/١)، وصفة الصفوة (٢٠٩/٢، ٢١٨)، وتاريخ بغداد (١٨٧/٩، ١٩٢) والبداية والنهاية لابن كثير (١٣/١١)، ومرآة الجنان (١٥٨/٢)، وشذرات الذهب (١٢٧/٢)، وطبقات الشعراني الكبرى (٨٦/١)، والوافي في الوفيات للصفدي (٢١٢٩/١٨)، وكتابنا الجنيد، وروضة الحبور، والانتصار (ص٢٩٧) بتحقيقنا.

ثم قال القشيري ﷺ ويحكي عن السرِّي أنه قال: منذ ثلاثيثن سنة أنا في الاستغفار عن قولي الحمد لله مرة، وقيل: كيف ذلك؟

قال: وقع ببغداد حريق فاستقبلني واحدٌ، فقال لي: نجا حانوتك.

فقلت: الحمد لله، فمنذ ثلاثين سنة أنا نادم على ما قلت؛ حيث أردت لنفسي خيرًا مما أردت للمسلمين.

وبسنده له قال: سمعت السرِّي يقول: اللَّهم مهما عذَّبتني بشيء، فلا تُعذِّبني بذلِّ الحجاب.

وبسنده له قال: دخلت يومًا على السرِّي وهو يبكي.

فقلت: ما يبكيك؟ فقال: جاءتني البارحة الصبيَّة.

فقالت: يا أبتِ هذه ليلةٌ حارة وهذا الكوز أعلِّقه ها هنا، ثم حملتني عيناي، فنمت فرأيت جارية من أحسن الخلق قد نزلت من السماء.

فقلت: لمن أنت؟ قالت: لم لا يُشرب الماء المبرَّد في الكيزان، فتناولت الكوز فضربت به الأرض، وقال الجنيد: فرأيت الخزف المكسور لم يرفعه و لم يمسَّه حتى عفا عليه التراب.

ثم قال الشعراني ﷺ وتقدَّم في هذا الكتاب أيضًا عن سيدي عبد العزيز الديريتي ﷺ: إن جماعة سألوه كرامة تقوِّي اعتقادهم فيه؛ ليأخذوا عنه الطريق.

فقال: يا أولادي وهل ثمَّ كرامةٌ لعبد العزيز في هذا الزمان أعظم من أن الله تعالى يمسك به الأرض إذا مشى عليها ولا يخسفها به وقد استحق الخسف من سنين.

وهذا الذي ذكرته عن السرِّي السقطي، وعن سيدي عبد العزيز الديريني رضي الله عنهما هو صورة حالي أيضًا بحمد الله تعالى، وما أرى جميع ما اطَّلعت عليه من العلوم والأسرار، وعلمته من الطاعات والخيرات إلا في كفة السيئات يوم القيامة، وإنما نشكر الله تعالى على ذلك من حيث الاسم فقط، ولو قُدِّر أنني رأيت أني ناجٍ في بعض الأوقات؛ فإنما ذلك غرورٌ بنفسي واستدراجٌ.

وقد سبقني إلى نحو ذلك الحسن البصري ﷺ فإنه كان يقول: والله لو حَلف حالفٌ أن أعمال الحسن البصري أعمال مَن لا يؤمن بيوم الحساب، لقلت: صدقت يا أخي فلا تكفر عن يمينك.

ومن المشهور عن سيدي عبد القادر الجيلي ﷺ أنه قال: قدمي هذه على رقبة كل وليٍّ لله تعالى من باب التحدُّث بالنعمة، ثم لَمَّا حضرته الوفاة بكى، وقال: ليت أمي لم تلدني، وكان رأسه على مخدة، فقال: أنزلوا رأسي من على المخدة وضعوها على الأرض فذلك هو الحق الذي ينتهى أمر العبيد إليه، فلعل الله يرحم ذلِّي بين يديه.

فكان في ختامي لهذا الكتاب بهذه النعمة تأسٍّ بسيدي عبد القادر ﷺ، وكذلك وقع لإمامنا الشافعي ﷺ أنه كان ينشد حال صحته:

وَلَــولاَ الشِعر بالعُلماءِ يَزري ... لَكنــتُ الــيومَ أشْعرَ مِن لُبيد
وَأشْجعُ في الوَغى مِن كلِّ ليثٍ ... وآل مهلـــب وأبي يَـــزيد
وَلَــولاَ خشــية الرَّحمنِ رَبِّي ... حَســبتُ الـنَّاس كلَّهم عَبيد

ثم لَمَّـا دنت وفاته سُئل كيف حالك يا أبا عبد الله؟ فقال: كيف مَن أصبح من الدنيا راحلاً ولأهلها مفارقًا لسوء علمه ملاقيًا، ثم أنشد:

ولَمَّـا قَسَى قَلبي وَضَاقَت مَذَاهِبي ... جَعلــتُ الرَجَا مِنِّي لِعفوكَ سُلَّمَا
تَعَــاظَمني ذَنــبي فَــلمَّا قَرنــتُه ... بِعفــوكَ رَبِّي كَانَ عَفوكَ أَعظَمَا
فَذنــبي عَظــيمٌ مِن قَديمٍ وَحَادثٍ ... وَعَفوكَ يَا ذا الجودِ أَعلا وأَجسَمَا

فاعتبر حال هؤلاء الأكابر، وانقد للحق ولا تكابر، واقتد بهؤلاء السادة الأشراف يحصل لك الإشراق والإشراف، واعدل عن صحبة الصغار فإن فيها الصغار، ومتى رأيت قلبًا خلا من الخوف فهو خرابٌ، ومتى سَكنه فقد مُلئت يد صاحبه من الخير، وحمي بقسي وحراب، وأنشدوا في الخوف:

عَـلى قَدرِ عِلم المرء يَعظم خَوفَه ... فَــلا عَــالَمٌ إلا مِــن اللهِ خَــائفُ
وآمَن مَكر اللهِ باللهِ جَــاهِــلُ ... وَخــائف مَــكر اللهِ باللهِ عَــارفُ

واعلم أن علامة محبَّة الله اتِّباع رسوله ﷺ.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

فعلى قَدر الاتِّباع يكون الارتفاع والانتفاع، وعلى قدر الابتداع يكون الانخفاض والاتضاع.

قال أبو الفيض ذو النون المصري ﷺ: من علامات المحبة متابعة حبيب الله ﷺ في أخلاقه وأفعاله وأوامره ونواهيه وسنَّته.

وقال أبو حمزة البغدادي ﷺ: مَن عَلم طريق الحق سهَّل الله عليه سلوكه، ولا دليل على الطريق إلى الله تعالى إلا متابعة الرسول ﷺ في أفعاله وأقواله وأحواله.

وقال أبو إسحاق بن داوود الرقي ﷺ: علامة محبَّة الله إيثار طاعته، ومتابعة نبيِّه ﷺ.

وقال الشيخ أبو الغيث اليميني ﷺ: أنا مقيَّد بشعرة من الشريعة.

وقال: إني لأرى سيف القدرة معلَّقًا فوق رأسي بشعرة إن ملت كذا أو كذا؛ قُطع رأسي.

وقال في أثناء كلامٍ له: ولا شك أن برهان السعادة متابعة النبي ﷺ على قَدر ما جرت به العادة فرضًا ونُفلاً، وبرهان الشقاوة وترك متابعته يقينًا.

وقال أيضًا: إن نار كل مخلوق عندنا مخالفة النبي ﷺ قولاً واحدًا، وجنة كل مخلوقٍ عندنا موافقته ﷺ.

قال الشيخ أسعد اليافعي ﷺ: قلت يعني: أن مخالفته ﷺ استحقاق الشقاوة بالنار بمقتضى العدل، وموافقته علامة السعادة بالجنة بمحض الفضل؛ لأنهما مؤثِّرتان فيهما؛ إذ قد فرغ من السعادة والشقاوة عند أهل السنة.

قال الله تعالى: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً﴾ [النساء: ٨٠].

ومن عصاه فقد عصا الله؛ لأنه لا يأمر إلا بما أمر الله به، فمن خالف أمره فقد خالف أمر الله.

قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم:٣، ٤] والمحبة والمخالفة لا يجتمعان.

وأنشدوا:

تَعصِـــي الإلـــهَ وأنـــتَ تُظهرُ حُبَّه ... هَـــذَا لعَمـــرِي في القِـــيَاسِ شَـــنيعُ
لَو كَـــانَ حُبـــُّكَ صَـــادقًا لأطعتَهُ ... إنَّ المحـــبَّ لمـــن يُحـــبُّ مُـــطيـــعُ

فَمَن عَرف الله أحبَّه، ومَن قرَّبه، ومَن قرَّبه أشهده، ومَن أشهده خافه، ومَن خافه أطاعه، ومَن أطاعه عَلمه، ومَن عَلمه كلَّمه، ومَن كلَّمه كان له، ومَن كان الحق له نَال مطلوبه وأمله، فعلى قَدر المعرفة يكون الحب، وعلى قَدر التقرُّب بالنوافل والفرائض يكون القُرب.

وقد تكلَّمنا على بعض علامات المحبَّة وآدابها وأسرارها في رسالة «تسلية الأحزان وتصلية الأشجان»، وفي رسالة «الوارد الطارق واللمح الفارق»، وفي شرح: «الورد والمحب مَن خلع عذاره وأبدى جهده ترك اعتذاره».

قال سيدي عمر قَدَّس الله سرُّه:

وَخَلع عـــذاري فِيكَ فَرضٌ وإن أَبى ... اقـــترَابي قَومِـــي والخلاعـــة سُنَّتِي

قال الشيخ قاسم الخاني في رسالة: «سير السلوك إلى ملك الملوك»:

وإيَّاك أن تُزل بك القدم، وتَظن أن المراد بخلع العذَار ترك الأوامر الشرعيَّة كما يظنه الضَّالون المضلُّون الملاحدة الزنادقة الذين لم يخرجوا من عالم الطبيعة، ولم يكن لهم علمٌ بالحقيقة ولا اتِّباعٌ للشريعة، فيتركون الصلاة والصوم، ويتَّبعون الشهوات، ويفعلون المنكرات، ويدخلون الخمَّارات والقهوات، ومع هذا كلُّه يدَّعون أنهم موحِّدون وأنهم محبُّون حضرة الحق، وأن ما هم فيه هو خَلع العذَار، وأن مثلهم قد سقط عنه التكليف، ولم يعلموا قاتلهم الله أن هذا كفرٌ وضلالٌ وبُعد عن حضرة ذي الجلال والإكرام، ولا يُوافق مذهبًا من المذاهب ولا يُوافق دينًا من الأديان، وما أشبه أصحاب هذا المذهب بالحمير في الأكل الكثير والشرب الكثير وعدم المبالاة وعدم الحياء من الخَلق في قضاء شهواتهم بين الناس.

واحذر أيُّها العارف أن يغلب هذا الشيطان عليك، وتعتقد أن المراد من خَلع العِذَار هذه الأمور النفسانية والأهواء الشيطانية؛ بل المراد من خَلع العِذَار أنك تفعل الأفعال الموافقة للشريعة المسقطة لجاهك وتعظيمك عند الخلق، والموجبة لعدم اعتنائهم بك وعدم توقيرهم لك بأن تحمل حاجة بيتك على ظهرك، وتحمل طبق العجين على رأسك وتخبزه، وتنقل الماء إلى عيالك وإلى إخوانك، وتختلف هذه الأفعال باعتبار الأشخاص فقد تكون هذه الأشياء مُسقطة لجاه بعض الناس، وقد يكون فيها تعظيم لبعضهم.

فينبغي لك أن تنظر الأشياء التي تُسقط جاهك عند الناس وتفعلها والله هو الوكيل عليك، فإن أحسنت أحسنت لنفسك، وإن أسأت فعلى نفسك فلا تلبس عليك، فإنَّ وخامة التلبُّس راجعة عليك، وإيَّاك أن تفعل ما يخالف الشرع، وتقصد به إسقاط جاهك من أعين الخلق بأن تشرب الخمر وتفعل شيئًا من المحرَّمات، فإن هذه دسيسة شيطانيَّة تقطعك عن مطلوبك، فإن المحرَّمات من خواصها ظلمة القلب، ومتى أظلم القلب شهد الأشياء على خلاف ما هي عليه، ووقع الخبط، وأنت إن كنت صادقًا في طلب الأشياء المسقطة للجاه المباحة الشرعيَّة تراها أكثر من الرمل والذر.

وفائدة خَلع العِذَار الشرعي؛ قطع الموانع التي تمنع عن لقاء المحبوب وهي كثيرة جدًا لا يقطعها كلها إلا خَلع العِذَار بالوجه الشرعي، مثلاً الملبس الفاخر من بعض القواطع؛ لأنه يحتاج من ابتلي به إلى تحصيله بأنواع الحيل والتعب، وهذا قاطعٌ له عن محبوبه، فإذا خَلع العِذَار لبس ما وجده، وسهل عليه تحصيله وتوجُّه إلى محبوبه.

فهذه بعض فوائد خَلع العِذَار، وقس على هذا المثال إن كنت عارفًا كل شيء يقطع عن حضرات القُرب، ويصرف وجه السالك عن جناب الرب.

واعلم إنَّك يا حبيبي وأنت في هذا المقام مقام العشق لا يعسر عليك خلع العذار كما يعسر في غيره من المقامات؛ لأن هذا المقام مقام العشق، والعاشق يسهل عليه خَلع العِذَار ولذلك لم نذكره في المقام الذي قبله ولا في الذي بعده؛ لأن كل مقامٍ له مقام وما ألذَّه إذا كان على الوجه الشرعي، وما أنوره وما أكثر ثوابه وما أقبله عند العقلاء، وإن اغتاظ منه الحُمقاء والسُّفهاء.

واعلم إنَّك متى تممت خَلع العِذَار ماتت نفسك الشيطانية القاطعة عن جناب الحق، وحصل لك خطاب من الروحانيين بأمرٍ أو نهيٍ أو خيرٍ، فلا تلتفت إلى شيء منه، وقل: الله، ثم ذرهم في خوضهم يلعبون ولا يزدك خطابهم فرحًا ولا حزنًا؛ لأن مقصد الجميع أن يلهوك عن مطلوبك، فلا تشتغل إلا بمحبوبك وإن لم تسمع شيئًا فهو أحسن في حقّك والأصلح لك؛ لأن الطالب قد ينقطع عن السلوك بسبب سماع شيء من ذلك؛ لأنه شيء غريب ما سمع قط مثله، فيظن أنه خطاب الحق، وأنه وصل إلى مطلبه، فتفتر همته ويرجع إلى عالم الطبيعة، وهذا أيضًا من خطر هذا المقام، فكن منه على حذرٍ، ولا تنقطع بشيءٍ من الأنوار، فـ﴿**وأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى**﴾ [النجم:٤٢].

ولا تقف، واستعن بالله على قطع كل ما يقطعك عنه، فإنه لا وصول إليه إلا به، وإيَّاك أن تعثر بشيءٍ يكشف لك فتفتر عن مجاهدتك بعدما صارت لك خلقًا وسهلت عليك؛ لأن مطلبك غالي الأسعار، عال المقدار، كثير الأخطار، لا يصل إليه إلا كل من علت همته، ولا يهتدي إليه إلا من صحَّت إرادته.

وقال الشعراني ﷺ في الجواهر والدرر: «ما ثمَّ لنا حقيقة تخالف الشريعة أبدًا؛ لأن الشريعة من جملة الحقائق بلا شكٍّ، والحقائق أمثال وأشباه، ولكن لما كانت الحقيقة عالية شاهقة لا يعثر على التحقق منها كل واحدٍ، فرقوا بينهما، فجعلوا الشريعة لما ظهر للخاص والعام من أحكام الحقيقة، وجعلوا الحقيقة لما بطن من أحكامها، وإن كان الحق تسمية الباطن المذكور ظاهرًا؛ لأنه لولا ظهر الحق ما علموه».

فيكون على هذا تسميتهم لما خفي دركه على بعض العقول حقيقة من قبيل الاصطلاح، وإلا فالكل شريعة؛ لأن الله تعالى شرَّع ذلك لنبيه، ولما سأله جبريل عليه السلام عن الإسلام والإيمان والإحسان، وأجابه عن كل واحدٍ بجوابٍ، فرَّق بينهم، فجعل رتبة الإسلام هي: الشريعة، والإيمان: الطريقة، والإحسان: الحقيقة.

وقال في آخر الحديث: «**أتدرون من السائل؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: ذاك**

جبريل، أتاكم يعلمكم معالم دينكم»[١].

ومعالم الدين هي الدين، فالفرق للتعريف والتبيين، ولما كانت المراتب ثلاثة: رتبة عموم، وخصوص، وأخص، جعلوا للأولى اسم الشريعة، وللثانية الطريقة، وللثالثة الحقيقة. وبعضهم جعل الشريعة أقواله ﷺ، والطريقة أفعاله، والحقيقة خصاله، مع أن أفعاله شريعة: لأنها مشروعة من عند الله، وحاله الذي هو عليه مشروعٌ أيضًا، فإنه واردٌ عن الحق سبحانه لكن من طريق الباطن، ومن تدبَّر قصة موسى والخضر عليهما السلام علم أن كل منهما كان على شريعةٍ من ربه، لكن لما خفي على موسى عليه السلام ما أظهره الخضر سمى علمه حقيقة، وإن كان موسى عليه السلام أرفع منه مقامًا وعلمًا وحالاً، لكن قد يوجد في المفضول ما لا يوجد في الفاضل.

قال ابن غانم المقدسي رضي الله عنه في حل الرموز وفتح الكنوز: (ثم اعلم أن العلم علمان، علم الظاهر للشريعة، وعلم الباطن للحقيقة.

قال رسول الله ﷺ: «**العلم علمان علمٌ باللسان، وعلمٌ بالقلب، فأما علم اللسان فهو حجة الله على العباد، وأمَّا علم القلب فهو العلم الأعلى الذي لا يخشى الله العباد إلا به»**[٢].

فعلم القلب هو العلم اللدني الذي لم يسطر في الطروس وإنما هو تلقينٌ من الله سبحانه وتعالى بغير واسطة ملك ولا سفارة، كما أن الخضر عليه السلام عَلم بالعلم اللدني ما لم يعلمه موسى عليه السلام بالوحي، فقتل النفس الذكية بغير نفس هذا على ظاهر الشرع عدوانٌ محض لكن ظهر تحقيق فعله بعلم آخر لدني لم ينقل من الكتب والأوراق، وإنما جاء وحيًا من الملك الخلاق فوجب على موسى عليه السلام إنكار ذلك واستقباحه قيامًا بالحدود، وعملاً بالشريعة؛ إذ هو مشرِّعٌ ومقتدى به، فلو سكت عن الإنكار لاستحق الإنكار، ولذلك تأدَّب الخضر معه بقوله: ﴿**إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً**﴾ [الكهف:٦٧].

---

(١) رواه الترمذي (٥/٦)، وابن ماجه (١/٢٤)، وأحمد (١/٢٨).

(٢) رواه الدارمي (١/١١٤)، وابن أبي شيبة (٧/٨٢)، والحكيم الترمذي في النوادر (٢/٣٠٣).

وهذا غاية الأدب من الخضر عليه السلام؛ لأنه عَلم أنه يرى منه ما لا تقرّه الشريعة.

فقال: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾ [الكهف:٦٧] على ما يخالف الشريعة يا معلم الشريعة، ثم لمَّا أعلمه الخضر بما لم يدخل في علم الشريعة، علم موسى عليه السلام إن الشريعة جسد والحقيقة روحها، وإن لم يكن للشريعة سفينة غرق نوحها، وقد بين له أصل مأخذه حتى له: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ [الكهف:٨٢].

قال القاضي: عن رأيي وإنما فعلته بأمر الله تعالى، ومبنى ذلك على أنه إذا تعارض ضرران يجب تحمل أهونهما؛ لدفع أعظمهما وهو أصلٌ ممهد، غير أن الشرائع في تفاصيله مختلفة وحيث كان فعله بأمر الله كان مشروعًا، وسمي شريعة لكن بعد البيان.

وهكذا عِلمُ الحقيقة مخالف لظاهر الشريعة، فإذا كشف عنه المكاشف رآه عين الشريعة والخلاف من عدم الاستشراق.

وقلنا في الصلوات النبويَّة التي في «ورد السحر»: وصلِّ وسلِّم وبارك على مَن شيَّد أركان الشريعة للعالمين، جمع عالم بكسر اللام، وهم الذين قام بهم وصف العلم.

ثم قلنا: وأوضح أفعال الطريقة للسائرين جمع سائر، وهو السالك في طريق التجريد إلى مقام التفريد، ومعاهد التوحيد.

ثم قلنا: ورمز في علوم الحقيقة للعارفين، فإنهم خواص الأمة الذين كل منهم اتبعه اتباعًا كاملاً وأمه، فوهبهم الحق بحسن الاقتداء نورًا قلبيًّا، يدركون به ما دق فهمه على غيرهم ممن اهتدى، فإنه قد أوحى إليه عليه السلام بثلاثة علوم: الأول أمر ببثه وهو علم الأحكام، والثاني خُيِّر في بثه وهو علم الأسرار، والثالث أمر بكتمه وهو سر القدر المعبر عنه بسر الألوهية، المُشار إليه بقول الطائفة: إفشاء سر الألوهية كفرٌ.

قال الشعراني رضي الله عنه في «الجواهر والدرر»:

«قلت لشيخنا رضي الله عنه: لِمَ لم يشتهر عن الرسل عليهم الصلاة والسلام التكلم باللسان الغريب الذي عليه الصوفية، فقال رضي الله عنه: إنما لم تتكلم الأنبياء بلسان الباطن لعموم خطابهم للأمة واعتمادهم على فهمهم، والرسل لا تعتبر بالأصالة إلا فهم العامة دون الخصوص،

ولهذا جاء غالب الشرائع على فهم العامة، ولم يجئ على فهم الخاصة إلا بعض تلويحات. كقوله تعالى: ﴿**سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ**﴾ [الصافات: ١٨٠]، ونحو ذلك.

قال: قلت: قد حُكي أن الشارع قد تكلم ببعض الإشارات التي للقوم فقال لأبي بكر الصديق ﷺ: «أتعرف يوم يوم؟ فقال: نعم يا رسول الله، لقد سألتني عن يوم المقادير».

وقال له مرة أخرى: «أتدري ما الذي أسألك عنه؟ فقال ﷺ: هو ذاك، فقال ﷺ: هو ذاك هكذا». نقله الشيخ تاج الدين بن عطاء الله رحمه الله، والله أعلم».

ونقل في كتاب: «الرياض النضرة في فضائل العشرة» أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ قال: «كنت أدخل على رسول الله ﷺ وهو وأبو بكر ﷺ يتكلمان في علم التوحيد فأجلس بينهما كأني زنجيٌّ، لا أعلم ما يقولان»[(١)].

وقد أشار إلى هذا المقال الدال على أهلية الصديق دون غيره من الأصحاب الأعلام. بقوله ﷺ: «**ما صُبَّ في صدري شيءٌ إلا صببته في صدر أبي بكر**»[(٢)].

وبقوله: «**ما فضلكم أبو بكر بكثرة صوم ولا صلاة ولكن فضلكم بشيء وقر في صدره، وهو العلم الإلهي الذي كان يصبه في صدره**»[(٣)].

فعلم من هذا أن كل علمٍ لا يجوز إفشاؤه؛ لقوله ﷺ: «**أُمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم**»[(٤)]. رواه الديلمي عن ابن عباس كذا في الإكمال.

وفيه: «**لا تحدثوا أمتي من أحاديثي إلا بما تحمله عقولهم**»[(٥)] رواه أبو نعيم عن ابن عباس.

---

(١) ذكره أبو جعفر الطبري في الرياض النضرة (٢/٥٢).

(٢) هو من الأحاديث التي اعتمدها أرباب المكاشفات.

(٣) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (١١٢٥). وقال: ذكره الغزالي في الإحياء، وقال مخرجه العراقي (١/٦٣): لم أجده مرفوعًا وهو عند الحكيم الترمذي وأبي يعلى عن عائشة وأحمد بن منيع عن أبي بكر كلاهما مرفوعًا وقال في النوادر أنه من قول بكر بن عبد الله المزني.

(٤) ذكره ابن قيم في نقد المنقول (١/١٠٤).

(٥) رواه الديلمي في الفردوس (٥/١٧).

وفي منهج العمال: «**ما أنت محدث حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان على بعضهم فتنة**»[١]. رواه بن عساكر عن ابن عباس.

وما ورد في كتم العلم النافع مقيدٌ بما تحمله العقول؛ لقوله ﷺ: «**من كتم علمًا مما ينفع الله به الناس في أمر الدين ألجمه الله يوم القيامة بلجامٍ من نارٍ**»[٢] رواه ابن ماجه عن أبي سعيد.

وفي رواية: «**مَن كتم علمًا عن أهله أُلجم يوم القيامة بلجامٍ من نار**»[٣]. رواه الأربعة وأحمد والحاكم.

وبعضهم يعبر عما يصدر من أرباب الأحوال من كرامات ومكاشفات حقيقة، وما يصدر من أرباب السلوك من التوجهات والمجاهدات طريقة، وما يظهر من علماء الظاهر شريعة، مع أن الكل شريعة، فمن كان مشهده أن الكل شريعة ولا مخالفة بين ما يسمونه حقيقة وشريعة فهو الناجي، ومن فرق ليعطل ظاهر الشريعة، أو يتسبب في ترك مأموراتها وسننها ومندوباتها فهو زنديقٌ، هالكٌ غير سالكٍ.

حكى لنا بعض أصدقائنا الكرام بدمشق الشام أنه سمع شيخنا المقدام الشيخ عبد الغني همام، يحكي عن بعض الأولياء العظام أنه كان لا يقص شاربه، وهذا خلاف للسُّنة المحمدية، وكان في زمانه رجلٌ من أهل العلم والصلاح، وكان له ثلاثة أولاد، فأعطى أحد أولاده مقراضًا وقال له: اذهب إلى الشيخ فلان وقص شاربه، فلما دخل على الشيخ كاشفه قبل أن يبتدئه وقال له: يا غلام إن تعرضت لما أمرك به والدك هلكت، فقال له: يا سيدي لا بدَّ من امتثال أمر والدي، فدعا عليه الشيخ وقال له: مت، فمات حالاً، فبلغ والده الخبر فجهزه وكفَّنه ودفنه، ثم أرسل له في ثاني يوم أو بعده أو قبله ولده الثاني، ففعل مثل الأول، ودعا عليه الشيخ ومات، ثم أرسل الثالث فحصل له مثل ما حصل لهما،

---

(١) ذكره المناوي في فيض القدير (٥/٤٢٧)، وابن حجر في لسان الميزان (٤/٣٠٢).

(٢) رواه ابن ماجه (١/٩٧).

(٣) رواه الترمذي (٥/٢٩)، وأحمد (٢/٤٩٥)، وابن ماجه (١/٩٧).

ثم أنه ركب بنفسه وأتى منـــزل الشيخ ومعه المقراض، فقال له الشيخ: ما الذي حملك على هذا؟ فقال: محبتي في إقامة شعائر الشريعة المحمدية، ورغبتي في اقتفاء الطريقة الأحمدية، فقال له الشيخ: جزاك الله عن دينك خيرًا، ولكن عدم قصي لحكمةٍ، ثم أنه قال له: قص شعرة، فقصها فسال منها نهر دم، فقال له: هل هذا عذرٌ في الترك أم غير عذرٍ؟ فقال: بل عذرو فقال له: إن شئت دعوت الله تعالى أن يحيى أولادك، فقال: أليسوا شهداء وماتوا على الحق؟ قال: نعم، قال: فلا حاجة لي بحياتهم، أو ما هذا معناه.

فانظر كيف سلم لما عاين حقيقة ذلك الترك، وما سلم إلا لأن الشريعة هي ما فعله ذلك الشيخ، وحيث كانت الحقيقة هي عين الشريعة، ولا مخالفة بينهما بحال صحت، وإن اختلفت في التعبير عنهما أقاويل الرجال.

قال القشيري ﷺ: الشريعة أمر بالتزام العبودية، والحقيقة مشاهدة الربوبية، فكل شريعةٍ غير مؤيدة بالحقيقة فغير مقبولة، وكل حقيقةٍ غير مقيدة بالشريعة فغير محصولة، فالشريعة جاءت بتكليف الخلق، والحقيقة أنبأت عن تصريف الحق، فالشريعة أن تعبده، والحقيقة أن تشهده، والشريعة قيام بما أمر، والحقيقة شهود لما قضى وقدر، وأخفى وأظهر.

سمعت الأستاذ أبا علي الدَّقاق رحمه الله تعالى يقول:

«إياك نعبد» حفظ للشريعة، و«إياك نستعين» إقرار بالحقيقة.

واعلم أن الشريعة حقيقة من حيث أن المعارف به سبحانه أيضًا وجبت بأمره).

وقال ابن العماد الأقفهسي في كتاب «الذريعة في إعداد الشريعة»:

«العلم علمان: علم الشريعة، وعلم الحقيقة، وللعلماء في ذلك عبارات، منها الشريعة أمره ونهيه، والحقيقة قضاؤه وقدره، ومنها الشريعة علم ظواهر الأقوال، والحقيقة علم بواطنها، كما في قصة موسى والخضر عليهما السلام من خرق السفينة وقتل الغلام، فإن ظاهر الشريعة يقتضي تحريم ذلك، والحقيقة بخلافه، فإنه وقع لمصلحةٍ خفيت علينا، كما بيَّن الله ذلك في كتابه بقوله: ﴿**أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ**﴾ [الكهف:٧٩]، إلخ الآيات.

وقد اجتمعت الشريعة والحقيقة في آياتٍ من القرآن، آخرها لفظ: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ [الفاتحة:٥].

فقوله: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**﴾: شريعة.

وقوله: ﴿**وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾: حقيقة؛ لأنه لولا توفيق الله تعالى للعبد وعنايته ما قدر على العبادة.

كما قال ﷺ: «**والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا**»[١].

وقال فيه أيضًا: فإن قيل: أيما أفضل علم الشريعة أم علم الحقيقة؟ فيحتمل أن يُقال: علم الشريعة؛ لقوله ﷺ: «**سيد العلوم الفقه**»[٢].

وقوله: «**فقيهٌ واحدٌ أشد على الشيطان من ألف عابدٍ**»[٣].

وقوله: «**مَن يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين**»[٤].

ويحتمل أن يُقال: علم الحقيقة، فإنه لا يطلع عليه إلا الخواص.

ويحتمل أن يُقال: هما سواء، والاحتمال الأول أقرب.

وقال بعضهم: «هما يرجعان إلى شيءٍ واحدٍ، فإن علم الشريعة علم ظواهر الأمور، والحقيقة علم بواطنها».

وهذا الأخير هو الذي عَول عليه ذوى الجد والتشمير.

وقد مثل بعضهم الشريعة بالجوزة، وهي جامعة للقشر وللب والدهن، فقشرها الظاهر هي كالأحكام الظاهرة، ولبها الباطن كالأسرار الباطنية، والدهن هو سر سرها، فهي

---

(١) رواه البخاري (١٥٠٦/٤)، ومسلم (١٤٢٩/٣)، والنسائي (٢١/٣)، وأحمد (٤٦/٤).

(٢) لم أقف عليه.

(٣) رواه ابن ماجه (٨١/١)، وابن عدي في الكامل (١٤٥/٣)، والبيهقي في الشعب (٢٦٧/٢).

(٤) رواه البخاري (٣٩/١)، ومسلم (٧١٩/٢)، والترمذي (٢٨/٥).

شيءٌ واحدٌ، تنقسم إلى أشياءٍ كثيرةٍ، كعلم تنوع إلى علوم، ألا ترى أن الشريعة هي لفظ صادق على ما في الكتاب والسُّنة، وكل ما دون من العلوم الظاهرة والباطنة فمستنبطٌ منها.

وقد قيل: أصول العلوم مائة ألف علم، وفروعها لا تنضبط، وقد ذكر منها الشعراني ﵁ في كتابه: «تنبيه الأغبياء على قطرة من علوم الأولياء» عشرة آلاف علم، وذكر في كتاب «السر المصون والجوهر المكنون» ثلاثة آلاف علم(١).

ومع استنباط هذه العلوم من القرآن العظيم ظهورها منه هو باقٍ على بكارة أسراره، التي لم تتناهى، وأنواره التي يغنى عن شمس الظهيرة سناها، ودقة معانيه، ورقة مبانيه، وبُعد غوره؛ إذ هو البحر الذي ليس له ساحلٌ، فالمغترف بشطه معترف بشطه، حيث ظن أنه قطع باغترافه مراحل.

وقال سيدي محيي الدين قدَّس الله سرَّه في روح القدس: وكذلك القرآن: أي قالت له نفسه: لا تعرض أحوالي عليه، فإنه البحر الأعظم الذي لا يُدرك قعره؛ إذ ليس له قعر فيُدرك، ولا ساحل فيبلغ، بل فيه هلك الهالكون، ونجا المفلحون.

قال الله تعالى: ﴿**يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً**﴾ [البقرة:٢٦].

تالله لو عرضت الملائكة والنبيون والمرسلون أجمعون أحوالهم على آيةٍ من القرآن على حد ما يعلمه الله تعالى من أسرارها، وما أودع فيها من الغيوب، لبقي الكل إلى جانبه كلا لشيءٍ عندها، لقد قيل في أول آية منه وهي قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ**﴾ [البقرة:٣]، يتيه العالم أسفله وأعلاه، لا يعرف طريقه أبدًا، ولا يفي أحد بحقيقتها، فإن في الغيب أمورٌ لو بدا منها لمحة بارق لا علا عالم مشاهد من العالم أقواه إيمانًا لتردد فيها. واتهم إيمانه، فهم جهلوا الأسماء، فما ظنك بما تنطوي عليه المسميات من المعاني، وذلك لعلو الأمر عن مراتب العقول، وانفراد الحق بالخلق والإيجاد دون الخلق.

---

(١) قلت: ومختصر هذين الكتابين هو إرشاد الطالبين إلى مراتب العلماء العاملين (تحت قيد الطبع بتحقيقنا).

ولهذا قال تعالى: ﴿أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك:١٤]، ولما لم يكن لنا خلق لم يكن لنا عم، فما أعطانا فمنة منه، وعلمه لا يتناهي، فليس بإنصاف منك أن تعرض حالي على كتاب الله تعالى الأقوى الأقهر، ولكن حسبك من دون القرآن والنبوة من المؤمنين، فخذ معي في مراتب الولاية، وأنا المنقادة السميعة السهلة المطيعة إلخ.

وقال الشعراني ﷺ: «وسألت شيخنا ﷺ عن قولهم: «القرآن بحرٌ لا ساحل له» ما معناه؟ فقال: معناه أنه يقبل جميع ما فسَّره به المفسرون، إذا لم يخرجوا عن قواعد أهل اللسان، فما من شارح يقصد وجهًا في الآية إلا وذلك الوجه مراد الحق تعالى؛ لأنه خاطب بذلك جميع عباده[1].

قال: وهذا بخلاف كلام الخلق، فإنه لا يقبل كلام فسروه به؛ لأن الخلق قاصرون عن التكلم بكلامٍ يسع إفهام الخلق أجمعين، والله أعلم».

فالشريعة هي الجامعة لكل خيرٍ، المانعة، من تمسَّك بها عن أن يصيبه ضير سمعت شيخنا المرحوم يقول: ما معناه الشريعة هي الأصل، وعنا نشأ علم الحقيقة، فإن علم الأحكام شريعة، وسرها هو الحقيقة، فلولا الشريعة ما كانت الحقيقة، فإنها لبها، واللب لا قيام له بنفسه غالبًا، وإنما قيامه بلباس الظاهر الحامل له، والحافظ من المضار، فمن حفظ الشريعة وصل إلى لبها، ومن أضاعها حُرم الوصول إليه، ودعوى الوصول إلى باطن الشيء قبل العثور على ظاهره غير مسلمٍ.

وقد قالوا: شريعة بدون حقيقة عاطلة، وحقيقة بدون شريعة باطلة...

وحيث كانت الشريعة هي الأصل الذي إليه المصير، لا يضر اختلاف التفسير إذا اتحد المراد من التعبير، وللعارفين عبارات كثيرة في معنى الشريعة والطريقة والحقيقة، فمن ذلك قولهم: الشريعة تبيين، والطريقة تعيين، والحقيقة تمكين.

الشريعة أساس، والطريقة حيطان، والحقيقة سقف.

الشريعة تعلق، والطريقة تخلق، والحقيقة تحقق.

---

(١) وانظر: تأويل الشطح للشيخ الشعراني قدس سره (ص٥٠).

الشريعة مقام، والطريقة مدام، والحقيقة التمام.

وقال القاضي زكريا الأنصاري رحمه الله تعالى في «فتح الرحمن شرح رسالة الشيخ أرسلان»:

(واعلم أن لهم شريعة وهي أن تعبد الله تعالى، وطريقة وهي أن تقصده بالعلم والعمل. وحقيقة وهي نتيجتها، وهي أن تشهده بنور أودعه في سويداء القلب.

وإن كل باطنٍ له ظاهرٌ، وعكسه، والشريعة ظاهره الحقيقة، والحقيقة باطنها، وهما متلازمان معًا، فشريعة بلا حقيقةٍ عاطلة، وحقيقة بلا شريعةٍ باطلة، ومثلت الثلاثة بالجوزة، فالشريعة كالقشر الظاهر، والطريقة كاللب الخفي، والحقيقة كالدهن الذي بباطن اللب، ولا يتوصل إلى اللب إلا بخرق القشر، ولا إلى الدهن إلا بذوق اللب، والخلق ثلاثة أقسام: ضعفاء وهم العوام، وخواص وهم الأولياء، وخواص الخواص وهم الأنبياء).

وقلت سابقًا:

إنَّ الشَّرِيْعَةَ ظَاهِرُ الأَحْكَامِ ... فَاعْمَلْ بِهَا تَنْجُو مِن الآثَامِ
وَكَذَا الطَّرِيْقَةَ سِرهَا وَلِبَابهَا ... مَنْ قَامَ فِيْهَا فَازَ بالأَنْعَامِ
وَكَذَا الحقيقةَ سِرٌّ سِرٍّ خطَابهَا ... فَإِذَا فهمتَ شُفِيتَ مِن أسقامِ

وقلت فيما لنا من الحكم: الشريعة رداء الحقيقة، فمن قُنع بأحدهما ضُل، ومن تمسك بهما جل.

الشريعة مصباح، والطريقة أقداح، والحقيقة راح.

الشريعة باب، والطريقة آداب، والحقيقة لباب.

الشريعة أذكار، والطريقة أنوار، والحقيقة أسرار.

الشريعة صحو، والطريقة محو، والحقيقة صحو ومحو.

الشريعة أجور، والطريق كشف ونور، والحقيقة حضور.

واعلم أن ثمرة القيام بالأحكام الشرعية معرفة النفس بالمعرفة المرعية.

وفي الحديث: «**إذا عرف نفسه فقد عرف ربه**»(١): أي الإنسان، رواه في مسند الفردوس.

وقد تطاولت أعناق من التبس عليهم الأمر كمثل صاحب ماء عناق حتى سموا أنفسهم بالعارفين، وسأذكر لك نبذة في وصف المعرفة وأهلها؛ لتسعى في التخلق إن كنت كفؤا لها كبعلها، فليس كل مدع تسلم له دعواه ما لم تقم بيِّنة على صدقه في سره ونجواه، فإن التكحل ليس كالكحل، والمكبَّل بقيوده ليس كالمطلق الذي رحل، وكل من بذر حبه في سباخ الدعوى يوم الحصاد يندم، وكل من بنى أساسه على مائها بناؤه يتهدم، والفرق بين الموسخ بالدعاوى والمحق الظاهر كالصبح، بل كالشمس في رابعة النهار، والفرق ظاهر، وأين حال من يقول ممن يتقوَّل، ومن يثبت ممن يتحوَّل، وأنشدوا:

وَلَيْسَ جِنَاب القُدسِ إلاَّ لأَهْلِهِ ... وَمَا كُلّ إِنْسَانٍ بِوَادِيه يَسْرحُ

فإن شاء ومقام المعرفة الخاصة عزيز، وطلابه أعز، وهو بعد ما قوى سما، وعز ضعف طالبه، وعز وطريق معرفة الحق بكل توجهٍ سري وقلبي أحق، فإن حق الحق من غيره أحق، وأنشدوا:

غير أن الدعوى ظلام، وتركها نور، ومن مشى في النور رُفعت له الستور، وفي المثل:

يَا لاَئِمِي لاَ تَلمنِي فِي هَواه فَلَوْ ... عَاينتُ مِنْهُ الَّذي عَاينت لَم تلم

وَاللهِ لَو علمتْ نَفْسِي بمنْ علقتْ ... قَامَتْ عَلَى رَأسِهَا فَضْلاً عَن القدم

من قال أنا وقع في العنا، ومن أقرَّ بالعجز وألقى السلاح سلم من المقاومة واستراح، والأنانية هي العلة الأصلية.

وقلت فيما لنا من المنشرات:

تجلَّت فأجلتْ غين عيني عزَّتي ... وَجَلَّت عَن الأَوصَافِ قدمًا وَعزَتِ

تَولَّتْ ومَا ولَّتْ وأولتْ مَحَاسِنا ... وَآلَ إِلَيهَا الأمرُ بَعد التَّشتتِ

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١٠/٢٠٨).

تَــرَاهَا عــيون مَــا رأت في عمائهَا سِــوَاهَا و لم تحجــب لها لبسُ كثرة
تحجـــبُ بالأسمـــاءِ فهـــي واقـــعٌ عَلـيهَا وَمَـــن عَــزَّ بَــدتْ للأعزَّة
تَلَـــتْ آيـــتي جمـــعٌ وفـــرقٌ بجانهَا عَلَـــى سَمعِ سمعَ السَمعِ مِن غَيرِ ريبة
تخاطـــبُ ســرَّ الســرِّ ســرًّا بسرِّهَا فَكَـــم صَـــرمتهَا صـــرَّة بَعـــد صرَّة
تَـــنَاولني كَـــأْسَ التَّـــنَاجي بطورِهَا وَمِـــن فَوق طُورِ العَقلِ أَسْرَار نَجوَتي
تدللـــني لَّمـــا تدلَّلـــتُ عِـــنْدَهَا فَمَـــن يَبـــتَغِي عِـــزًّا يَـــؤوبُ بِذلَّتي
تغيـــبنى عـــنِّي بمجلَـــى جمَالهَـــا وَمَـــا غبـــتْ عَنِّي في ظُهورِ حَقِيقتي
تحيَّرتُ فِي كـــونِي أَكونُ بَل أَنَـــا وَمَـــا زِلت عَن كَوني أَنا وَهِي عِلَّتي

وفي بعض الأخبار: إن الله تعالى لما خَلق الدنيا وأوجدها قال لها: مَن أنا؟

قالت له مجيبة: أنت الله أحد، وخلق النفس وقال لها: مَن أنا؟

قالت: من أنا؟ فنوَّع لها العذاب فلم تذعن حتى ألقاها في بحر الجوع كذا كذا ألف سنة، فأقرَّت له بالوحدانية، واعترفت له بالعبودية، فكانت الأنانية أصل العلَّة النفسيَّة والنفس مشتقَّة من المنافسة: أي المنازعة؛ لأن التنافس تنازع، فظهر منها المنازعة للربوبية فوجب الجهاد فيها؛ ليردَّها صاحبها إلى مقام العبوديَّة.

قال الله تعالى: ﴿**وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ**﴾ [الحج:٧٨].

قال سيدي عبد الله بن المبارك: هو مجاهدة النفس والهوى، وذلك حق الجهاد وهو الجهاد الأكبر على ما رُوي في الخبر أن رسول الله ﷺ قال حين رجع من بعض غزواته: «**رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر**»(١).

وقيل: إن بعض الصالحين كتب إلى أخٍ له يستدعيه إلى الغزو، فكتب إليه يا أخي كل الثغور مجتمعة في بيت واحد والباب عليَّ مردود، فكتب إليه أخوه: لو كان الناس كلهم لزموا ما لزمته لاختلَّت أمور المسلمين وغلب عليهم الكفَّار ولا بد من الغزو والجهاد،

---

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفا (٥١١/١)، والمناوي في فيض القدير (١٠٩/٣).

فكتب إليه: يا أخي لو لَزِمَ الناس ما أنا عليه.

وقالوا في زواياهم على سجاداتهم: (الله أكبر) انهدم سُور القسطنطينية كذا في «عوارف المعارف».

وقال الحسن في قوله تعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ [البلد:١١] هي والله عقبة شديدة مجاهدة الإنسان نفسه وهواه وعدوّه الشيطان.

وعن سهل بن عبد الله ﷺ يقول الله تعالى: «**ما خلقت خلقًا ينازعني في مُلكي غير النفس، فإذا أردت رضائي فخالفها**»(١).

وفي الحديث: «**أعدى أعدائك نفسك التي بين جنبيك**»(٢).

وقال أبو عثمان المغربي رحمه الله تعالى: (ابتلى الله الخلق بتسعة أمشاج كل واحدٍ يطلب ضد ما يطلبه الآخر ثلاث مفتنات، وثلاث كافرات، وثلاث مؤمنات.

فالثلاث المفتنات: السمع والبصر واللسان، والثلاث الكافرات: النفس والهوى والشيطان، والثلاث المؤمنات الروح والعقل والملك).

وإذا ثبت كفرها وجبت المجاهدة فيها.

قال الله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ﴾ [التوبة:١٢٣].

قال سيدي محي الدين قَدَّس الله سرَّه بعد ما ذكر الآية: (وأقرب عدو لك وأعداه عليك نفسك التي بين جنبيك فيها شغل شاغل للعقل).

وقد يعبِّرون عنها بفرعون، ووجه الشبه بينه وبينها ادِّعاء الربوبية ومنازعة الصفات الحقيقيَّة، فكفر وكفرت.

وقد أنشد سيدي محي الدين قَدَّس الله سرَّه المتين:

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) رواه البيهقي في الزهد (١٥٧/٢).

قَلْــبي قُطْــبي وَقَــالبي لبــنَاني سِــرِّي خضــري وَعَينَهُ عِرفَاني
هَارون عَقلِي وَكَلِيمِــي رُوحِي فِرعَــونُ نَفسِي والهَوىَ هَامَاتي

وهي يصح منها الإيمان بعد ذلك الكفران بغير نكران، ولولا أنه يمكن ويقبل ما أمرنا بالمجاهدة فيها.

ومن هنا قال الشيخ الأكبر ﷺ: بإيمان فرعون: أي الفرعون الباطني.

«أخبرني بعض الأصدقاء: إنه سمع شيخنا الملا عبد الرحيم الكابلي المشهور بالأزبكي المقيم بدمشق ذات المقسم ذي الوجه الوسيم نفع الله به النفع العميم يقول: وقد جرى ذكر قول الشيخ بإيمان فرعون الباطن وهو النفس فربما يكون أراد الشيخ بإيمانه إيمانها وأيضًا فإن الرحمة التي وسعتها حتى قبل إيمانها لا مانع أن تسعه، فإن الفضل واسع أو ما معناه».

والله تعالى قَبل منها الإيمان بعد طول العناد والكفران، ومحط الكلام الشيخ في «الفصوص» على قوله وأمره إلى الله تعالى: أي إن شاء قبل إيمانه وإن شاء لم يقبل والإعراض عن هذه المسألة لا يضر بالإيمان والاعتقاد، والخوض فيها ربما أدَّى إلى الانتقاد والله يهدينا وأحبابنا إلى سبيل الرشاد، فكل مَن لم يجاهد لم يشاهد.

وقد قيل: مَن لم تكن له في بدايته قومة لم يكن له في نهايته جلسة، وحركات الظواهر تُورث حركات السرائر، ومن لم تكن له بداية محرقة لم تكن له نهاية مشرقة، فالمجاهدة تعقبها مشاهدة، والمشاهدة تورث الفناء، والفناء يورث زوال العناء، وزواله يورث الغناء وهو يبلِّغ صاحبه المنى، فمن جاهد نفسه وأمَّ قدسه؛ كُشف له الحجاب، وزال عنه النقاب فعرف المراد، ومن زال عنه الغطاء شاهد المعطي و لم يحتجب بالعطاء.

واعلم أن المعرفة هي إدراك الشيء على ما هو عليه، وهي مسبوقة بنسيان حاصل بعد العلم، ولذلك يسمَّى الحق تعالى بالعالم ولا يسمَّى بالعارف.

وقال بعضهم: هما بمعنى، وعدم وصف الحق بالمعرفة؛ لعدم التوقيف، فإن أسماءه توقيفية.

قال القشيري ﷺ: المعرفة على لسان العلماء هي العلم فكل علم معرفة، وكل معرفة علم، وكل عالم بالله عارف، وكل عارف بالله عالم، وعند هؤلاء القوم المعرفة صفة مَن عرف الحق سبحانه وتعالى بأسمائه وصفاته ثم صدَّق الله ﷻ في معاملاته، وتنقّى عن أخلاقه الرديَّة وآفاته، ثم طال بالباب وقوفه ودام بالقلب اعتكافه، فحَظي من الله بجميل إقباله، وصدَّق الله في جميع أحواله، وانقطع عن هواجس نفسه، ولم يصغِ بقلبه إلى خواطر تدعوه إلى غيره، فإذا صار من الخلق أجنبيًّا، ومن آفات نفسه بريًّا، ومن المسكنات والملاحظات نقيًّا ودام في السرِّ مع الله مناجاته، وحقَّ في كل لحظة إليه رجوعه، وصار محدثًا من قِبل الحق سبحانه بتعريف أسراره فيما يجريه من تصاريف أقداره؛ يسمَّى عند ذلك عارفًا، ويسمى حاله معرفة.

وفي الجملة: فبمقدار أجنبيته عن نفسه تحصل معرفته بربِّه ﷻ، وقد تكلم المشايخ في المعرفة، فكلٌّ نطقَ بما وقع له، وأشار إلى ما وقع له، وأشار إلى ما وجد في وقته.

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله تعالى يقول: من أمارات المعرفة بالله حصول الهيبة من الله، فمَن ازدادت معرفته ازدادت هيبته وسمعته رحمه الله تعالى بقوله: المعرفة توجب السكينة في القلب، كما أن العلم يُوجب السكون، فمَن ازدادت معرفته ازدادت سكينته.

ثم قال: وقيل لأبي يزيد: بماذا وجدت هذه المعرفة؟

قال: ببطن جائع وبدن عارٍ.

وقال أبو يعقوب: النهرجوري[(١)]، قلت لأبي يعقوب السوسي: هل يتأسَّف العارف على شيء غير الله ﷻ؟

فقال: وهل يرى غيره فيتأسف عليه؟

وقلت: فبأي عين ينظر إلى الأشياء، فقال: بعين الفناء والزوال.

وقال أبو يزيد العارف: طيَّار والزاهد سيَّار.

---

(١) من أصحاب سيدنا الجنيد. وانظر في ترجمته: سير أعلام النبلاء (٢٣٢/١٥)، والرسالة القشيرية (ص٤٠)، وطبقات الصوفية للسلمي (٨)، (٣٧٩)، وطبقات الشعراني (١٣٠/١).

وقيل: العارف تبكي عينه ويضحك قلبه.

وقال الجنيد: لا يكون العارف عارفًا حتى يكون كالأرض يُطاؤها البرُّ والفـ وكالسحاب يظل كل شيء، وكالمطر يسقي ما يحب وما لا يحب.

وقال يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى: يخرج العارف من الدنيا ولا يقضي وطره منها مـ شيئين: بكاؤه على نفسه، وثناؤه على ربِّه.

وقد جمع الباب اللباب، فراجعه تظفر بالعجب العجاب.

وإذا أردت الظفر بالأمنية طالع باب المعرفة في «الفتوحات المكية»، وكتاب «المعرفة» للإمام الحاتمي تحظى إذا حققته بحسن الخواتم[١].

ثم قال في كتاب «العبادلة» وقال: إن من عباد الله مَن تقودهم إليه المعرفة فيهبهم المعرفة ابتداءً وهم جائلون في ميادين المخالفات، ثم يهبهم التوفيق فيسلكون على بصيرة وسلوك، هؤلاء أشرف سلوك السالكين؛ إذ كل سالكٍ غايته المعرفة وهي بداية هـ السالك، وهي كانت بدايتنا.

وقال: مَن كانت بدايته الخوف فغايته الجمال، ومَن كانت بدايته الرجاء فغايته الجلال ومَن كانت بدايته المعرفة فغايته الكمال والجمال، ثم قال: وقال: مَن أراد أن يعرف ـ فليعرفه منه.

وقد أخبر نبيُّه ﷺ: إنه يتجلَّى غدًا لهذه الأمة ومنافقيها على اختلاف عقائدهم فيـ سبحانه في غير الصورة التي عرفوه فينكرونه، فيتحول لهم في الصورة التي عرفوه بالعلامة التي بينه وبين كل طائفة منهم، وهي ما تقرر في عقائدهم منه، فيقرُّون به وهو عين مـ أنكروا، ولما وقف الجنيد على هذه المعرفة بالله سُئل عن المعرفة والعارف، فقال: لون ـ لون إنائه فالإناء مثلٌ مضروبٌ منه لعقله، والماء مثلٌ مضروب لمعروفه وهو الله.

---

(١) اللهم حققنا بحقائق العارفين، واجعلنا ممن بأنوار الحقيقة المحمدية متحققين، وامهل علينا من بركـ سر علم سيدي محيي الدين، وسائر ذوي العرفان والمحققين.. اللهم آمين.

وقد اختلف الناس في تأويل هذا الخبر من علماء الرسوم، ثم قال: المعرفة من كسب النفس، فالحق قائم بها فالمعرفة نفسية ربانية جنانية.

وقال: بالباء عرفه العارفون، وبزوالها صحَّ الدوام لهم في المعرفة: أي به عرفوه، ولما غابوا عن معرفتهم بمعروفهم صحَّ لهم دوامها، ولو غفلوا عنه بها ثبت لهم نقيضها.

ثم قال: وقال: المعرفة والسرور لا يجتمعان في أحدٍ في الدنيا أبدًا، والمعرفة والحزن لا يجتمعان في الآخرة في أحدٍ أبدًا ما دام الرجل في هذه الدار، فهو على قدم خطر ولو بلغ ما بلغ؛ لأنها دار المكر والتبديل، وقد ذم الفرح فيها لعدم تحقيق أسبابه من جميع الوجوه فإذا انتقلت إلى دار التمييز والتخليص وترآى الفريقان، وانصبغ من انصبغ في الفضل والرحمة، حينئذٍ يحق الفرح وقد أُوتي العبد هنا الرحمة والفضل، ويمنعه من الفرح بهما شغل القلب بأداء الحقوق هنا، وهنالك ليس كذلك فكيف يسرُّ العارف بمعروفة هنا وفي الأمر ما ذكرنا.

وقال السيد السند الكبير ذو العلم الشهير والعلم الكثير سيدي أبو الحسن الشاذلي قَدَّس الله سرَّه وسرَّنا به وسقانا من سلسبيل شرابه: (اعرف الله ثم استرزقه من حيث شئت غير مكبٍ على حرامٍ ولا راغبٍ في حلالٍ، ودُم في عبادته ولا تخنه في أمانته، واعبد الله باليقين تكن إمامًا من أئمة الدين، وارجع إلى علم الخاصة تكن من الوارثين ولك أسوة في المرسلين ومتحقق في النبيين، ومَن نُسب أو أضاف أو أحبَّ أو أبغض أو تحبَّب أو تقرَّب أو خافَ أو رجا أو سكن أو أمن لشيء أو بشيء غير الله تعالى أو تعدَّى حدود الله؛ فهو ظالم، والظالم لا يكون إمامًا.

قال الله تعالى: ﴿**لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**﴾ [البقرة:١٢٤].

ومَن صدَّق الله في يقينه فهو إمامٌ، قلَّت روايته أو كثرت، ومَن كان إمامًا فلا يضرَّه أن يكون أمَّة واحدة، وإن قلت أتباعه.

وقال ﷺ: كيف يعرف بالمعارف مَن به عرفت المعارف؟ أو كيف يعرف بشيء من

سبق وجوده كل شيء.

وقال ﷺ في قول بعضهم: حقيقة المعرفة الغنى بالله عن جميع الأنام، فإن قيل: كيف وقد أحوج نبيه إلى عدوه، فنقول له إذ ذاك: انظر إلى غنائك عن السموات والأرض مع الحاجة إليهما، وكل ما تحتاج إليه قطعة منهما، فالذي منع السماء أن تقع عليك، ومنع الأرض أن تخسف بك هو الذي دفع ضرر القطعة عنك، وأوصل النفع منها إليك، و أحوجك إليه في كل شيء؛ لتعبده بكل شيء حتى يغنيك به عن كل شيء.

وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر:٩٩] وهو العيـ فيغنيك به عن البرهان، ويمحق عنك الغفلة والنسيان.

قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الحَقِّ وَضَـ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [يونس:٣٠].

قلت: فكيف أعبدك في كل شيء: أي بعد ما سمع قوله: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ﴾.

فقال: لتعطى التسليم حقه من غير عوجٍ، والاستهداء حقَّه من غير كدرٍ.

وهو معنى قوله تعالى: ﴿لاَ يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ [النساء:٦٥] فالتسليم حق الأبدان، والثناء حق اللسان، والاستهداء به حق الجنان.

قال تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود:١٢٣].

وقال ﷺ: حقيقة المعرفة استواء العارف بوصف معروفه على كل شيء سواه، وهو محل الغناء بالله عن كل شيء دون مولاه.

وقال ﷺ: المعرفة والمحبة والمواجيد الحقيَّة أذهبت عنك الأعراض والأغراض والأمراض: أي مذام الأعراض ومناقص الأغراض وعلل الأمراض).

وأمَّا الولي العارف فقد ذكروا له تعاريف كثيرة، وسأورد بعض ما ذكروه في كتبه الشهيرة.

قال يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله تعالى: في الدنيا جنة مَن دخلها لم يشتق إلى الجنة قال: ما هي؟ قال: معرفة الله ﷻ، وأنشدوا:

إنَّ عِـــرفَانَ ذي الجَـــلالِ لعـــزٌّ وَضِـــياءٌ وبهجـــةٌ وَسـُــرُورٌ
وَعَـــلَى العَـــارِفِـــين أيضـًــا بَهَـــاءٌ وَعَلَـــيهم مِـــن المحبَّـــةِ نُـــورٌ

قال اللَّقاني رحمه الله تعالى في «شرح الجوهرة الصغير»: مهمات الأولى الولي عُرفًا هو العارف بالله تعالى وصفاته حسب الإمكان المواظب علي الطاعات المجتنب للمعاصي المعرض عن الانهماك في اللَّذات والشهوات المباحة.

فعيل: بمعنى مِفعول؛ لأن الله سبحانه وتعالى تولَّى أمره، فلم يكله لنفسه ولا لغيره لحظة بل تولى رعايته.

قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف:١٩٦] أو بمعنى: فاعل؛ لأنه يتولَّى عبادة الله وطاعته على الدوام والتوالي من غير أن يتخللها عصيان، وكلا المعنيين واجب تحققه حتى يكون الولي عندنا وليًا في نفس الأمر، بحيث يتحقق قيامه بحقوق الله تعالى على الاستقصاء والاستيفاء بجميع ما أُمر به، ويتحقق دوام حفظ الله تعالى إيَّاه في السرَّاء والضرَّاء.

قاله القشيري، ونحوه قال ابن الدهاق في «شرح الإرشاد»: للولي أربعة شروط:

أحدها: أن يكون عارفًا بأصول الدين حتى يفرِّق بين الخلق والخالق والنبي والمتنبِّي.

والثاني: أن يكون عالمًا بأحكام الشريعة نقلاً وفهمًا؛ ليكتفي بنظره عن التقليد في الأحكام الشرعية كما اكتفى عن ذلك في أصول التوحيد، فلو أذهب الله علماء أهل الأرض لوجد عنده ما كان عندهم، ولأقام قواعد الإسلام من أولها إلى آخرها، فإنه لا يُفهم من قولنا: ولي الله إلا الناصر لدين الله وذلك ممتنع في حق من لا يحيط علمًا بدين الله تعالى وقواعده وأصوله وفروعه.

الثالث: أن يتخلَّق بالخلق المحمود الذي يدل عليه الشرع والعقل، فأما ما يدل عليه الشرع فالورع عن المحرمات وامتثال جميع المأمورات.

وأمَّا ما يدل عليه العقل فهو ما يثمره العلم بأصول الدين وهو أنه إذا علم حدوث العالم بأسره لم يتعلق قلبه بشيء منه خوفًا ولا طمعًا فيه؛ لعلمه بأنه في قبضة الله سبحانه وتعالى، وإذا علم الوحدانية أخلص لله تعالى في أعماله؛ إذ الربوبية لا تحتمل الشركة في شيء، وإذا علم أن القدر سابق بما هو كائنٌ لم يخف فوت شيء مما قُدِّر، ولم يرجُ حصول شيء مما لم يقدر، وهذا هو المعبر عنه بالرضا بالقضاء، وبسبب تحقق ذلك يلتزم الرفق بالخَلق والصفح عنهم عند أذيَّتهم له لعلمه أنهم لا يستطيعون لأنفسهم فضلاً عن غيرهم دفع ضرر ولا جلب نفع.

الرابع: أن يلازم الخوف أبدًا سرمدًا ولا يجد لطمأنينة النفس سبيلاً، فإنه لا يحيط علمًا بأنه من فريق السعادة في الأزل أو من فريق الشقاوة، ثم ينظر إلى أسباب الشقاوة وأماراتها فيجدها منحصرة في المخالفات، فهو يخاف الوقوع فيها ويجتنبها، وهذا هو المعبر عنه بالورع، وما حصل له من الموافقة فهو يخاف زوالها بأضدادها حتى يخاف أن يبدل علمه وفهمه إلى الشك والجهل، وكذا يخاف أن يطلبه ربُّه بالقيام بشكره فيما أنعم به عليه فلا يطيق، وكذا يخاف أن تخدعه نفسه فيحصل في علمه ما يفسده ويحبطه من الرياء والسمعة وكذا يخاف مِن توجُّه الحقوق عليه للآدميين، فتنقل أعماله إلى صحائفهم وهذه أحوالهم مع الله.

قال تعالى: ﴿**وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ [النور:٣٨]، ثم قال **الثالثة**: أي من المهمات الولاية غير مكتسبة، كما قال بعض المتأخرين ونبَّهنا عليه فيما مر.

الرابعة: لا يَصل الولي ما دام عاقلاً بالغًا إلى رتبة سقوط التكليف عنه بالأوامر والنواهي؛ لعموم الخطابات الواردة بالتكليف، وإجماع المجتهدين على ذلك خلافًا لبعض الإباحيين كما بسطناه فيما مرَّ.

الخامسة: الأولياء محفوظون بمعنى أنهم كلما أذنبوا وفَّقهم الله للتوبة لا معصومون، فلا يمتنع وقوع الذنب منهم، ولذلك لا يأمنون مكر الله سبحانه وتعالى فهم يرجون رحمته ويخافون عذابه، جعلنا الله منهم بفضله ورحمته.

وقال سيدي محمد البكري رحمه الله تعالى في «حكمة العارف»: مطلق الباطن مقيَّد

الظاهر بحسب بواطن الأحدية والظواهر.

العارف بالله تعالى أستاذ تتنـــزَّل به وله ومنه أحكام الأزل في مهابط الأبد إلى مستقر الذوات حيث لا تتناهى الصفات.

العارف بالله تعالى أستاذ مرآته القدم وصورته الحدوث وتعلقاته الإراديَّة القدسيَّة وأفعاله الجوامع الذاتيَّة، وأقواله بلسان غيب النفس في مجامع بيوت القلوب بحروف الحكمة.

العارف بالله تعالى منه تجري أوصاف خلافة اقتضاها له الاختصاصي الذاتي قبل «ألست» بعوالم لا يحصيها إلا الله تعالى في هذا الزمان شمس فلكها.

ورد: «**كان الله ولا شيء معه**»[1]، وقمرها تخلقوا بأخلاق الله، ونجومها خلق الله آدم على صورته وآدم أبو البشر تشرَّف بنور معلوم، ووصفٌ دونه العقول تحلُّ ببروج الأول في دائرة الملائكة المقرَّبين نقطة أشعتها في سرٍّ سرِّ حضرتها.

قال تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً**﴾ [الفرقان:٤٥].

العارف بالله تعالى آثاره أنوار، وأنواره صفات، وصفاته ذات وإلى هنا الأمر انتهى قال تعالى: ﴿**وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى**﴾ [النجم:٤٢].

قال سيدي أحمد بن عطاء الله السكندري ﷺ في «حكمه»: ما العارفُ منْ إذا أشارَ وجدَ الحقَّ أقربَ إليه من إشارتِهِ، بل العارفُ منْ لا إشارةَ له لفنائِهِ في وُجودِهِ وانطوائِهِ في شُهودِهِ[2].

---

(١) رواه النسائي (٣٦٣/٦)، والحكيم الترمذي في النوادر (١٠٤/٤).

(٢) قال سيدي ابن عجيبة: الإشارة أرق وأدق من العبارة، والرمز أدق من الإشارة فالأمور ثلاثة: عبارات، وإشارات، ورموز. وكل واحدة أدق مما قبلها، فالعبارة توضح، والإشارة تلوح والرمز يفرح أي يفرح القلوب بإقبال المحبوب. وقالوا: علمنا كله إشارة، فإذا صار عبارة خفي، أي خفي سره، أي فإذا صار عبارة بإفصاح اللسان لم يظهر سره على الجنان، فإشارة الصوفية هي تغزلاتهم وتلويحاتهم =

وقال: مطلبُ العارفينَ منَ الله الصدقُ في العبوديَّةِ، والقيامُ بحقوقِ الرُّبوبيَّةِ(١).

(١) قال الإمام العلامة سيدي ابن عجيبة: المطلب مصدر بمعنى المفعول، أو اسم مكان أي مطلوب العارفين ومقصودهم أو محل قصدهم ومحل نظرهم، إنما هو تحقق الصدق في العبودية بحيث لا تبقى فيهم بقية. إذ المكاتب عبد ما بقي عليه درهم، فما دام العبد مسجونًا بمحيطاته محصورًا في هيكل ذاته لا تنفك عنه الحظوظ، إما دنيوية أو أخروية، فلا تتحقق عبوديته لله، وفيه عبودية لحظوظه وهواه، فلا يكون صادقًا في عبوديته، وهو مملوك لحظ نفسه، فإذا قال أنا عبد الله نازعته حظوظه وهواه، فلا تتحقق عبوديته لله حتى يتحرر من رق الأكوان، ويتحقق بمقام الأحرار من أهل العرفان، فحينئذ يكون سالمًا لله، حرًّا مما سواه، قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فيه شُرَكَاءُ مُتَشَاكسُونَ﴾ [الزمر:٢٩]. أي متخاصمون: ﴿وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً﴾[الزمر:٢٩]، أي لا يستويان أبدًا إذ العبد الخالص لسيد واحد يكون أحظى وأعز وأقرب من العبد المشترك، وكذلك العبد الخالص لله أحظى بمحبة مولاه.

وقال رسول الله ﷺ: «تَعِسَ» أي خاب وخسر: «عبدُ الدِّينارِ والدِّرْهَمِ والخَميصَةِ إذا أُعْطِيَ رَضِيَ، وإذا لم يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وانتكسَ، وإذا شِيكَ، فلا انْتَقَشَ» أي إذا أصابته شوكة، فالله لا يخرجها منه بالنقش عليها، وهو دعاء على من حظه هواه بالتنكيس، وعدم الخروج مما يقع فيه.

وقال أبو سليمان الداراني ﷺ: شتان بين من همه الحور والقصور، وبين من همه الحضور ورفع الستور. انتهى.

ولأجل هذا كان مطلب العارفين إنما هو التحقق بالعبودية لمولاهم، بالتحرر من رق هواهم، والقيام بوظائف الربوبية بالأدب والتعظيم والإجلال لمولاهم، وهما متلازمان، فمهما تحقق الصدق في العبودية إلا حصل القيام بوظائف الربوبية، فإن النفس إذا ماتت بترك حظوظها حييت الروح، وإذا حييت الروح عرفت، وإذا عرفت أذعنت وخضعت لهيبة الجلال، وهذا هو القيام بحقوق الربوبية، وهو مراد العارفين ومقصود السائرين، ومحط نظر القاصدين والطالبين. قيل لبعضهم: ما مراد العارف؟ قال: مراد معروفه انتهى. أي لا يريد إلا ما أراد سيده ولا يتمنى إلا ما يقضيه عليه مولاه، وقيل لبعضهم: ما تشتهي؟ قال: ما يقضي الله فهذا يتحقق للعارف فناؤه، وبتحقيق فنائه يتحقق بقاؤه: أي بقائه مع مولاه، والله تعالى أعلم.

فإذا طلب العبد من مولاه ما هو طالبه منه من استقامة ظاهره بالنهوض إلى كمال الطاعات والحزن على ما سلف من الغفلات، واستقامة باطنه بمعرفة معبوده والفناء في شهوده، فيكون ظاهره قائمًا بوظائف العبودية، وباطنه متحققًا بحقوق الربوبية، ثم إذا أحس بإجابة المطلب وحصول المنى والمرغب فرح قلبه وانبسطت روحه، حيث شمت نسيم الإقبال وروح الوصال، فربما يقبضها البسط عن شهود مولاها، فيخرجها منه إلى القبض ثم يرحلها عنهما إليه.

وقال العارف: العارفُ لا يزولُ اضطرارُهُ، ولا يكونُ مع غيرِ الله قَرارُهُ[١].

قلت: العارف بالله تعالى نوره ظاهر، وسرُّه باهر مأذونٌ له بالكلام، ممنونٌ عليه بالإعلام، أمره نافذ في الكون، وسرُّه مصان في حضائر الصون لا يدرك معناه إلا مَن دخل مغناه، ولا يفهم معاني لبابه إلا مَن تعلَّق بأبوابه، ولا يتخلَّق بأطواره إلا مَن تحقَّق بأسراره مجهول الحال معروف المقال كلامه من عين المنَّة؛ لأنه مؤيَّد بالكتاب والسنَّة، لا يخالف ظهر الشريعة بحال، وعنده عدم شهود الحقيقة كالمحال، آيته من الكتاب ﴿**هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ [ص:٣٩].

العارف مَن عرف الأمر على ما هو عليه، وسير به إلى منــــزل القرب حتى وصل إليه وكُشف له عن أسرار الغيوب، وفتق له رتق الجيوب، فصار بصره نافذًا داركًا، وبصر بصيرته لا يرى إلا شراكًا أطلق من القيود وقُيِّد بمراسيم الحدود، فوقف عند رسوم الشريعة مع شهود الحقيقة الرفيعة، وتمسك بكل منهما، وما مال فبلغ بالمحافظة عليهما

(١) قال الشيخ ابن عجيبة: أما وجه كونه لا يزول اضطراره فلتحقق قيومية الحق به، إذ الحس لا يقوم إلا بالمعنى، فحس العبودية لا يقوم إلا بمعنى الربوبية، فبقدر تحقق العبد بقيومية الربوبية يشتد اضطراره في ظاهر العبودية، وأيضًا العارف لا يزال في الترقي، فهو متعطش للزيادة على الدوام.
وقال بعضهم: لو شربت في كل لحظة ألف بحر لا ترى ذلك إلا قليلاً وتشهد شفتيك يابسة، وكل ذلك كناية عن عدم النهاية وأن المقصود غير منضبط، فالعارف لا يزال مفتقرًا للزيادة على الدوام، فلا يزول اضطراره على الدوام، وقد قال الله تعالى لسيدً العارفين: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ [طه:١١٤]، فالاضطرار إلى زيادة العلم لا ينقطع ولو جمع علوم أهل السماوات والأرض، قال تعالى مخاطبًا للكل: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ العِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء:٨٥]، وأما وجه كونه لا يكون مع غير الله قراره، فلأن قلب العارف رحل إلى الله من الكون بأسره، فلم تبق له حاجة إلى غيره، فقراره إنما هو شهود الذات الأقدس، فإن نزل إلى سماء الحقوق أو أرض الحظوظ فبالإذن والتمكن والرسوخ في اليقين؛ فالعارف ليس له عن نفسه أخبار، ولا مع غير الله قرار، وأيضًا سابق العناية لا يتركه يركن إلى غير مولاه، فمهما ركن قلبه إلى شيءٍ شوشته عليه العناية واكتنفته الرعاية، فهو محفوظ من الأغيار، محفوف من كل جهة بمدد الأنوار، إذا كان الله حرس السماء من استراق السمع، فكيف لا يحرس قلوب أوليائه من الأغيار؟ وما تولاهم بمحبته حتى حفظهم من شهود غيره، فكيف بالركون؟ فكيف بالسكون؟ هيهات هيهات، هذا لا يكون، من كان ظاهره محفوفًا بالأنوار وباطنه محشوًّا بالأسرار فكيف يركن إلى شهود الأغيار؟.

سائر الآمال، وأشعر له السير بهما عن غوامض العلوم، وثبت قدمه حتى بلغ غوالي عو... الفهوم.

فهذا هو العارف الذي من بحار المعرفة غارف، والعارف شمسٌ مشرقة وللأغيار محرقة. معلوم في السماء مجهول في الأرض جامع بين قرب النوافل وقرب الفرض، حكيمٌ يعطي كل مريض ما يناسبه من الدواء، ويكسي القاصد حُلّة تليق به وتحفظه من الهواء، تر... ساكنًا وهو يتكلم ولا تسمع، وتراه ساكنًا وهو متحرك وبواتره تلمع، صاح في سكر... لكونه فارقًا جامعًا يقظان في نومه؛ لكونه للمنازعين قامعًا، يدأب على الجمع بين الشريعة والحقيقة ولا يظهر عنه ما يخالفهما؛ لتمسكه بمنهاج الطريقة، يأمر بالطاعة أتباعه ويسبقهم بالعمل؛ ليحسن اتِّباعه محل نظره آية من الكتاب المجيد: ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق:١٥].

وإذا حدد النظر في قول الله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠] خاف التبديل والتغيير، فالتجأ للذي إليه المصير، وإذا أردت الزيادة فطالع «شرح الورد» عند قولنا، وبجلالك الذي تحيرت في عظمته ألباب العارفين.

فهذا قد أوضحنا لك عن تعريف المعرفة والعارف، فإن كنت من أهل المعارف فـ... ميدانهم، وصل بين الصفوف وإلا فاحذر الدخول فإن المقام مخوف، وهذه مائدة يحرم على الطفيلي الجلوس عليها، ويعسر عليه؛ لأنها مصونة الوصول إليها، فليس كل مَن شقشق بلسانه وأغرب إذا أغرب على خلانه، يسمَّى بين القوم ذا معرفة، إذا لم يشهد له ... أصحاب البصائر النيِّرة والقلوب المشرقة وبعض هؤلاء المعربدين الذين تمسَّكوا بالهو... وفارقوا الدين إذا اجتمع ببعض أهل هذا الشأن، تذاكر معه في كلام أهل العرفان حتى ربما ضنَّه منهم؛ لسلامة صدره وشغله بمشاهدة الرحمن.

فهذا عارفٌ مشتغلٌ بالله عمَّا سواه، مدهوشٌ به عمَّا عداه، فهو صاحب قر... والكامل عند أهل الإحسان مَن جمع بين القرآن والفرقان، فأدرك الأمر على ما هو عليه لأنه صاح غير سكران، فهذا الذي يطلب منه الترجيح ويعول علي قوله؛ لأنه النقل الصحيح فافهم هذا الكلام لئلا يلتبس عليك المقام، ولا تنتر بصاحب قال دون حال، فـ... بطال.

قال الجنيد ﷺ: «أقلُّ ما في الكلام سقوط هيبة الرب جلَّ جلاله من القلب، وانقـ...

إذا عرى من الهيبة عرى من الإيمان».

قلت: هذا إذا كان كلام من غير حال، وأمَّا إذا كان بحال فإنه ينفع وإن طال وعلامته أن يؤثِّر في القلوب ويُحدث هيجانًا وشوقًا إلى المحبوب، وأن يبعث على العمل بنشاط دون كسلٍ.

ومما أنكره علينا بعض هؤلاء الأوغاد قراءتنا: «ورد سحر» آخر الليل مع بعض الإخوان، وقال: النداء يدل على البعد وأنتم تنادون: «إلهي إلهي»، فقلت له: هذا رسول الله ﷺ كان يناجي ربَّه ليلاً ونهارًا، ويعلِّم أصحابه ذلك أكان يدلهم على مقام البُعد؟

فقال: رسول الله ﷺ كان في مقام الإرشاد والتعليم، فقلت له: هذه زندقة وإلحاد عن سلوك الطريق المحمَّدي واتِّباع قدمه الشريف أو ما هذا معناه، فاخرسَّ عن الجواب.

ولما ألَّفت هذا الورد وأنا في بيت المقدس عام ألف ومائة واثنين وعشرين، وكنت ألَّفته في مجلس لطيف، وأضفت إليه قصيدة ميمية، وأخرى جيمية على وزن المنفرجة وصلوات على النبي ﷺ كنت بعد أن بيضته أقرأه وحدي، ثم أخذ الطريق بعض الإخوان فكنَّا نقرأه معهم في خلوة النحويين على سطح الصخرة، فيحصل لنا ولهم خشوع وخضوع وذلة توجب انسكاب الدموع، حتى ربما سرى الحال في السامعين فأورثهم الدمع المعين، ثم أني ذهبت إلى الشام وعملت للإخوان حين توجهي وصية مختصرة سمَّيتها: «الوصية الجلية للسالكين طريقة الخلوتية» وسودت وأنا هناك النصيحة السنيَّة في معرفة آداب كسوة الخلوتية لما رأيت الكثير يلبسونها من غير استحقاقٍ ومن غير معرفة آدابها، ثم بيضَّتها بالشام، وألحقت الوصية بحواشٍ وكلمات سمَّيتها: «الكلمات الخواطر على الضمير والخاطر»، فلما وصلت إلى الشام حفظ الورد بعض الإخوان، وصرنا نقرأه على عادتنا في البيت المقدس بعد إذن المراسلة، فجاء عندي رجلٌ من دمياط واسمه الشيخ يوسف من أهل طريقتنا، فلما سمع الورد أنكر علينا من حيث أنَّا زدنا في الطريق ما ليس فيه.

فقلت له: نحن ما شرعنا في قراءة هذا الورد إلا بعد الاستخارة مرة بعد أخرى، وقلنا له: هذا لا يمنع منه طريقنا بعد الاستخارة ووقوع الإشارة، وقد استحسنَّا ذلك من وجوه منها: اجتماع الإخوان فربما يكون في اجتماعهم من المدد ما لا يوجد في الانفراد وتنهيض

الهمم وتشويق مَن لم يدخل الطريق، والتفهم فيما يشير إليه من المعاني والمواعظ ومساعدة الإخوان بعضهم بعضًا، فلم يسلم.

فأخبرني ليلة: إنه رأى في عالم المثال نفسه يتحدَّث مع رجل وإذا بصيحة عظيمة ورجة وصهيل خيل، قال: فسألت من أتحدث معه عنها، فقال: إنَّ الشيخ عبد اللطيف قد جعل أهل الطريق أن يحضروا عند خليفته فلان وها هم قد حضروا.

قال: فقلت له: وكيف يحضرون عنده وهو قد أحدث في الطريق وردًا ولا يلبس الكسوة، ولا يعمل ذكر الجمعة؟ ولكن أنا أشتكى عليه للشيخ مصطفى أفندي.

قال: فرأيت شيخك يقدمهم راجلاً، ومصطفى أفندي وحسن أفندي يقدمانهم ركبانًا فقال لي قبل أن أسأله: لا تعترض وإذا جاء الوقت يظهر الأمر أو ما معناه.

فقلت له: وكيف تقول، هل زال ما عندك؟

قال: لا، فقلت له: إني أرسل الورد مع مكتوب إلى حسن أفندي ابن المرحوم عني أفندي فإذا أجازنا ماذا تقول؟

قال: إذا أسلم لكن أظنه لا يُسلم، فأرسلت الورد مع مكتوبٍ واستأذنته في قراءته وفي الذكر على الطريقة الشامية، فأرسل يقول حيث وجدتم به أُلفة روحانية فطريقنا لا يمنع من ذلك، وأجار بعمل الذكر، وذَكرَ كيفية قراءة ورد الستار على ما نقرأه الآن، ولقد كنت كثيرًا ما أري أثر الوارد علي الورد تارةً برؤية أشباحهم، وتارةً بطَرقِ نعالهم وآونة بسماع حديثهم، واتفق أنَّا ذهبنا في الخطرة الثانية التي زرنا بها البيت المقدَّس لزيارة السيد الخليل وأولاده السادات الأكرمين عليه وعليهم وعلى نبيِّنا أفضل الصلاة وأتم التسليم.

وكنا ننـــزل إلى الحرم في السَحر، ونقرأ الورد تجاه سيدي إسحاق الغيور ﷺ فحصل لنا في بعض الليالي حظٌّ عظيمٌ وبسطٌ جسيمٌ، فالتفت مخاطبًا له في السرِّ ﷺ وقلت: يا سيدي نحن الليلة أضيافك وكذلك إخواننا المقادسة، فجاء صُبيحة تلك الليلة بعض الإخوان ممن حضروا ورد السحر هناك، وأخبروا أنهم في هذه الليلة حصل لهم من الجلال والهيبة ما استغرقهم عن وجودهم.

وقال بعضهم وأقسم: لقد رأيت رجالاً عِظامًا دخلوا علينا من شباك الخلوة وجوههم كالأقمار.

قال: وترآى لي أن سطح الصخرة قد مُلئ بالرجال، فغشي عليَّ وبعضهم؛ لفرط ما وُجد من الهيبة لم يدرِ ما الذي يقول، فلما أخبرت بهذا الحال تعجَّبت منه، ولقد كان شيخنا الشيخ محمد الخليلي حفظه الله تعالى يوصي إخواننا بقراءته حتى قال لبعضهم: من لازم على قراءة هذا الورد سنة ضمنت له علي الله الفتوح.

ومن جملة الدواعي التي دعتنا إلى وضعه: ما وقع لشيخنا وإنكار أهل الشام عليه فوضعناه؛ ليعلم السامع أن ما نُسب إلى الشيخ وطريقه مكذوبٌ عليه، وأن العقيدة إن شاء الله تعالى صحيحة موافقة للكتاب والسنَّة، والواقف على ترجمته التي سمَّيناها: «الكوكب الثاقب» في بعض ما لشيخنا من المناقب يزول عنه الشك والالتباس فيه، ويقف على حقيقة الأمر ويستوفيه.

ومنها: إن أهل الطريق لا يدعون قيام السَحر، ويقولون: هو عندنا كالفرض وبعد قيامهم وتهجُّدهم يجتمعون على الشيخ أو أحد المعينين من الفقراء، ويذكرون الله تعالى إلى انشقاق الفجر، ثم يختمون الذكر، ويقومون إلى صلاة الصبح.

فقلت في نفسي: الذكر الذي يتضمن مناجاة أبلغ نفعًا كما نصَّ عليه سيدي أحمد بن عطاء الله السكندري قَدَّس الله سرَّه في «مفتاح الفلاح في ذكر الله الكريم الفتاح».

فقال: ومنه: أي ومن الذكر ما هو ذُكر فيه دعاء مثل: ﴿**رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا**﴾ [البقرة:٢٨٦].

وكذلك: اللَّهم صلِّ على سيدنا محمد، وهو أشد تأثيرًا في قلب المبتدئ من الذكر الذي لا يتضمَّن المناجاة؛ لأن المناجي يشعر قلبه قُرب مَن يناجي، وهو مما يؤثِّر في قلبه ويكسبه الخشية.

ومنها: إن الخلوتية عندنا في دمشق الشام يجتمعون لقراءة ورد «الوسائل لكل سائل» الذي ألَّفه العارف الأمجد الشيخ أحمد العسالي جعل الله قدره لديه عالي، وهو وردٌ رفيع

وورد لتاليه حصن منيع، فأحببت أن أقتفي أثره في ذلك، وأسلك كما سلك في هذه المسالك.

ومما أخبرني به أخونا في الله الشيخ مصطفى بن عمرو الخلوتي عفا الله عنَّا وعنه بمنّه وكرمه: إنه رأى صبيحة يوم الأربعاء السابع عشر من شعبان المبارك الذي هو من شهور سنة ألف ومائة وإحدى وثلاثين أن الحائط الشمالي من خلوتنا التي في البدرائية الكائنة داخل دمشق المحميَّة قد ارتفع، وكنَّا قد ختمنا الورد، وشرعنا في الذكر.

قال: ورأيت قد أحاط بنا جماعة نحو الخمسين أو أكثر أو أقل منهم: الباكي، ومنهم المراقب، ومنهم: الخاشع ولم أعرف منهم أحدًا إلا محمد سعيد الأيوبي.

قلت: هو من أقربنا، قال: فرأيته مكحَّلاً بكحلة عريضة، وهو يبتسم لم أرَ فيهم مبتسمًا غيره، وأغلبهم من مشايخ الروم.

فقلت له: هؤلاء رجال الطريق نفعنا الله بهم، فإن أغلب أهل طريقنا من بلاد الروم، ثم خطر لي في حضور قريبنا المذكور معهم بهذه الصفة أن في ذلك بشارة لتالي الورد بأنه سعيدٌ تفاؤلاً من اسمه، وأن مَن قرأه حصل له جلاء البصر القلبي آخذًا من كحلته، وأن تاليه يُوصف بأنه أوَّاب آخذًا من النسبة الأيوبيَّة، وإن كانت هذه لأبي أيوب الأنصاري ﷺ، وأن تاليه لا يزال مسرورًا إن شاء الله تعالى بورود إمداداته تعالى عليه؛ لوجود تبسّمه وإنما جاءتنا الإشارة على يد القريب لا غيره؛ لأن البشارة من القريب ذخيرة، وأخبرني غفر الله له، وكنت خرجت في أثناء الورد؛ لتجديد الوضوء.

قال: لما خرجت جاء شيخك الشيخ عبد اللطيف لابسًا كسوته البيضاء وجبته وجلس مكانك وكان حضوره في خلال اسمه بالطيف، فأنَّا نتلوه في الورد كل ليلة مائة وتسعة وعشرين مرة عدده الصغير وحضوره في أثناء هذا الاسم لمناسبة بينه وبينه. فإنه عبد اللطيف.

قال: لكن كان نظره إلى القابوني، فإنه كان جالسًا عن ميسرتي والشيخ مصطفى عن الميمنة.

قال: فتعجَّبت من كونه لم ينظر إليَّ، قلت له: أنت لا تحتاج إلى نظر.

وأمَّا القابوني فإنه في مقام التربية والعارفون أكثر تربيتهم بالنظر، قال: ثم خرج من ها هنا، وأشار إلى كتبية في الخلوة، فقلت: في مجيئه بشارة وإشارة.

أمَّا البشارة، فلأني كنت متوعكًا، فاستبشرت بحصول الشفاء؛ لأني توعَّكت مرارًا وكنت متى رأيته يحصل الشفاء، فكأنه كان بشير العافية.

وأمَّا الإشارة فهي؛ ليفهم المريد سرُّ أدب تفريغ محل الشيخ في غيبته بأنه لا يخلو مكان الشيخ من أحد رجال الطريق كشيخ الشيخ أو غيره، فإذا قدَّرنا أن مريدًا جلس في مكانه فربما يكون المحل اشتغل فيسيء الأدب مع الذي حضره، وربما أحضر الحق روحانية الشيخ بقصد منه وعلم أو بوهما لئلا يحضر الشيطان في تلك الفرجة؛ لأنه يترصَّد دخول الفرج في صفوف الصلاة وحُلق الذكر؛ ليفرِّق قلوب المصلين والذاكرين بمجرد حضوره معهم فإن طبعه يُورث ذلك لما بينه وبين أهل الإيمان من البون، واختلاف الجنس يستوحش منه، وبالوحشة تحصل التفرقة غالبًا إلا من الأقوياء فإنها لا تؤثِّر فيهم.

قال: لكنه لم يتعوَّق، قلت له: لاحتمال حضور شيخه أو أحد رجال السلسلة لكنَّك لم تره.

وهذا الكشف وقع لأجل التنبيه على ما ذكرنا، ثم سألته: هل كانت رؤيتك له يقظه؟ فقال: يقظة وعيناي مفتوحتان.

وقال لي: أخونا الشيخ محمد القابوني بعد أخبار الشيخ مصطفى وعدم معرفته بما جرى بيني وبينه: لقد أدركت شيخنا جلس في مكانكم عقب خروجكم، فاقشعر جلدي لذلك فكان ما أدركه مؤيِّدًا بكشف الشيخ مصطفى.

وقال لي الشيخ مصطفى في يوم إخباره بهذه المكاشفة: رأيت ونحن في الذِكر لفظة الجلالة تخرج كالثوب الفُستقي، وتحيط بنا.

وكان يرى أشياء كثيرة وهو جالسٌ معنا في الورد، ولقد لخصت ما ذكرته هنا من أوائل شرح الورد ومن رسالة: «المنهل العذب» السائغ لوارده في ذكر صلوات الطريق

وأوراده، وقصدت بما ذكرته الرد على هؤلاء الفرقة المفارقة وأنا بحمد الله تعالى في قراءتنا وملازمتنا على هذا الورد على خيرٍ عظيم، وسيرٍ جسيم، وبسطٍ وافر، وحظٍ سافر، نتذلل في الأسحار بين يدي الملك الجبار، ونناجيه أولاً بكلامه القديم ثم بتوسلات مناسبة لهذا الوقت العظيم.

ولما خطر لي قراءة الأوراد التي عقب الصلوات على طريقة خلوتية الشام.

قلت لأخينا الشيخ مصطفى بلَّغه الله دار الأمان والسلام بسلام: استخر على نيتي بعد ما استخرت، وانشرح صدري لذلك و لم أعلمه بما أنا قاصده، فاستخار وأخبرني أنه نام فرأى أشياخًا دخلوا عليه.

قال: ثم إني استفقت ونمت، فرأيت كذلك ثلاث مرات أو خمس مرات.

قلت له: و لم يكلموك بشيء؟ قال: لا.

قلت له: إني قد نويت على قراءة أوراد الصلوات على طريقة خلوتية الشام.

فقال: هذا إذنٌ من هؤلاء الأشياخ، فإن السكوت إقرار ولو لم يرضوا بذلك ما سكتوا، ثم لَّما كان أوائل ذي القعدة الذي هو من شهور ألف ومائة وأحدى وثلاثين عزمنا على المسير إلى البيت المقدَّس فمرض الأخر المذكور، فذهبت لعيادته، فأخبرني أنه رأي في منامه أن الفقير جالسٌ في مكانٍ وهو عندي.

قال: فرأيت قد وضع بيني وبينك صحن طعام.

قال: فقلت له: وهل تدري ما هو؟ فقال لا.

فقلت له: إن أهل الطريق قد اجتمعوا، وقالوا: إن فلانًا قد أحدث في الطريق أمرًا يستحق عليه جائزة، ثم قالوا: وما تلك الجائزة؟

فقالوا: نهديه الجنة المعجَّلة، ثم قالوا: ونشرك معه ابن عمرو فيها وكل من اقتفى أثره فيها كانت له الجنة المؤجَّلة.

قال: قلت له: وهذا الذي تراه في الصحن هو الجنة المعجَّلة، فكُل.

قال: فأكلت منه فلم أرَ ألذ من ذلك الطعام، فلمَّا أخبرني بهذه البشرى سررت بها، وحمدت الله تعالى عليها.

ففي الحديث: «**ذهبت النبوَّة فلا نبوَّةَ بعدي إلا المبشرات الرؤيا الصالحة يراها الرجل أوَ تُرى له**»(١). رواه الطبراني عن حذيفة بن أُسيد.

وعنه ﷺ: «**البشرى الرؤيا الصالحة، يراها المسلم أو تُرى له وفي الآخرة الجنة**»(٢). رواه البيهقي عن أبي الدرداء.

وعنه ﷺ: «**لم يبقَ من مبشِّرات النبوَّة إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو تُرى له**»(٣). رواه الترمذي عن أبي حذيفة.

وقد جاء في بعض الروايات: «إنها جزء من أربعين جزءًا من النبوَّة».

وفي رواية أخرى: «من ستة وأربعين جزءًا من النبوة».

وفي رواية أخرى: «من خمسين جزءًا من النبوة».

وفي رواية: «جزءًا من سبعين جزءًا»، ولقد منَّ الله تعالى على عبده الجاني والمسرف المقصِّر المتواني في أيام تبيضي لهذه الرسالة، وكنت بيَّضت منها أربعة كراريس برؤية الحبيب الأعظم والطبيب الأفخم ﷺ في المنام، وذلك يوم الأربعاء السابع من محرم الحرام عام ألف ومائة وأربعة وثلاثين.

وذلك كان نهارًا فرأيت كأني مجاور في المدينة المنوَّرة على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم، ولي كل يوم تردد على الحجرة النبوية والوقوف بين يدي خير البرية؛ لالتماس بركاته الطامة وإمداداته العامة، فجيئت على العادة فرأيت غلامًا أعرفه وقد وقف قِباله الشباك الشريف وهو يضحك غافلاً عن احترام ذاك المقام المنيف، فانتهرته.

---

(١) رواه الديلمي في الفردوس (٢/٢٤٧)، وبنحوه في البخاري (٦/٢٥٦٤).

(٢) رواه البيهقي في الشعب (٤/١٨٥).

(٣) رواه مسلم (١/٣٤٨)، وأبو داود (١/٢٣٢)،والنسائي (١/٢١٨).

وقلت له: أفي مثل هذا المقام يكون الضحك؟ فانزجر الغلام ثم أنّي اعتراني حالٍ وبكاءٍ ونحيبٍ وأنا أنادي: يا رسول الله نداء صبٍّ كيئب، فرأيت ذاته الشريفة قد تمثّلت لي في صورة منيفة، وعلى رأسه الشريف عمامة خضراء قد علاهها من المهابة والأنوار ما يجلُّ عن الوصف قَدرًا، فأكببت عليه أقبِّل يديه فأحنى عليَّ.

وقال: ساعدنا، أو قال: ساعد الأمة.

فقلت: بماذا يا رسول الله؟

فقال: قل: (لا إله إلا الله)، وأظنَّه كررها ثلاثًا، وقل: (الله) وأظنه كررها ثلاثًا كذلك فقلت: على الرأس والعين يا رسول الله.

وقلت في نفسي: الحمد لله، هذا تلقينٌ من رسول الله ﷺ لك بهذين الاسمين، وأضمرت في نفسي أنّي أشتغل بهما امتثالاً لأمره ﷺ.

ثم قال: اقرأ قصيدة الغازلي، ففهمت أنها:

الشِــدَّةُ أَوْدَت بِــالمهجِ يَــا ربِّ فَعجِّــل بالفَــرَجِ

قال: وزد فيهمَا ثلاثة أَبيات، فقلت: على الرأس والعين يا رسول الله، ثم مشى فتبعته فقلت: يا رسول الله إني عملت قصيدة على وزن قصيدة الغزالي وقد ذكرهّا آخر ورد السَّحر، فقلت فيها:

بِــالذَات بســرِّ الســرِّ بمَــنِّ أَفْضَــالِكَ رَبِّــي مِــنكَ رَجَــي
بحقيقــتكَ العُظمَــى رَبِّــي وَبِــنور الــنورِ المُنبــلجِ
بِسمَــاءٍ كُنــتَ بِــهِ أَزلاً بمحمَّــدٍ مَن جــاء بالبــلجِ

قال ﷺ: من أين لك هذا المدد.

فقلت: منك يا رسول الله، قال: نعم.

ثم قال: اقرأ قصيدة الغزالي، فقلت: على الرأس والعين و لم أزل مسايره حتى وصلت إلى باب السلام، فأردت أن أودِّعه وأنصرف، فانحنيت لتقبيل يده الشريفة فانحنى عليَّ

فنـــزلت على أقدامه الشريفة وأنا أبكي وكأني غائبٌ مدهوش من هيبته، وكشفت رأسي وأمسكت ما عليه بيدي اليمنى، وصرت أمسح وجهي ورأسي بدون حائل على أقدامه الشريفة والبكاء غالبي، ثم إنِّي لما أردت الخروج لم أُولِّه ظهري حتى غبت عنه، وصرت أقول في نفسي: مَن أنت حتى يخاطبك سيد الأنام ويحنو عليك ويتلطَّف معك بمثل هذا الكلام؟ وأنا أبكي فواجهني بعض الإخوان، وأخبرني أن الغلام الذي زجرته أخبر أن فلانًا حصل له مددٌ من رسول الله ﷺ، والحال أنه خرج قبل أن يرى شيئًا ولم يكن في المسجد أحدٌ، فحمدت الله سبحانه على هذه النعمة.

ومحل الشاهد من هذه الرؤيا قوله: من أين لك هذا المدد؟ وقولي منك، وقوله ﷺ: نعم، وقوله: اقرأ قصيدة الغزالي، ففهمت منه أن هناك شدَّة ستحصل، وأمرني أن أسأل تعجيل الفرج فما مضى ذلك اليوم والذي بعده حتى حصلت شدَّة عظيمة ويوم وقوعها رآه ﷺ بعض إخواننا وهو في السماء السابعة، لكنه ﷺ في حركة، فسأل رجلاً هناك.

فقال: إنه في حركة الشفاعة، وفَهِمَ أنها في الفقير.

وفي الحديث: «**مَن رآني في المنام فقد رآني؛ لأنه لا ينبغي للشيطان أن يتمثَّل في صورتي**»[1]. رواه أحمد ومسلم وابن ماجه عن جابر.

وفي رواية: «**مَن رآني فقد رأى الحق سبحانه وتعالى فإن الشيطان لا يتمثَّل بي**»[2]. رواه أحمد والبخاري ومسلم.

وفي رواية: «**مَن رآني فإني أنا هو فإنه ليس للشيطان أن يتمثَّل بي**»[3]. رواه الترمذي عن أبي هريرة إلى غير ذلك من الروايات الصحيحة الدَّالة على أن رؤيته حق.

وللشك مزيحة، فانظر بعين الإنصاف ما أسلفناه تتحقق أن إنكار هؤلاء الزنادقة باطل

(١) رواه البخاري (١/٥٢)، ومسلم (٤/١٧٧٥)، وأحمد (١/٣٥٧)، وابن ماجه (٢/١٢٨٥).

(٢) رواه البخاري (٦/٢٥٦٨)، ومسلم (٤/١٧٧٦).

(٣) رواه الترمذي (٤/٥٣٧).

وأن استقامتنا على هذا الوِرد هي الحق، فلا تماطل فإنَّا لآثار النبوة إن شاء الله تعالى مقتفون، وهم للدعاوى الكاذبة مقترفون، يدَّعون أن الحق يتجلَّى عليهم وحقيقة التجلِّي لا يَعرفون، فإن الحق إذا تجلَّى على عبدٍ بصفةٍ من صفاته صار يُدرك بالله ما تدركه تلك الصفة، فتعطِّل صفته الحادثة، وتنوب صفة الحق عنها، فيكون إدراكه بالله لا بنفسه كرامةً منه؛ ليشهده فيض قُدسِهِ.

مثاله: إذا تجلَّى عليه بصفة السمع، صار يسمع سائر المسموعات ولا يخفى عليه شيء منها، ويصير كما قال الشبلي: (لو دبَّت نملةٌ سوداء على صخرةٍ صمَّاء في ليلةٍ ظلماء و لم أسمعها لقلت: إنه ممكورٌ بي).

فهذا الذي صار يسمع بالله لا بنفسه؛ لأن هذا السماع ليس في قوة البشريَّة، وإنما هذا بإمدادٍ عليٍّ من مَدد الألوهية.

وهكذا سائر الصفات، وقد يدَّعى بعض هؤلاء الأقوام العثور على تجلِّي الذات مع أنه ما أدرك تجلِّي صفة من الصفات، ولو أنصف لاعترف بالنقص والقصور، وتاب وأناب ورجع إلى شهود قصوره عن علي هذه القصور.

لكن الأمر كما قال مَن بيده الضلال والهدي: ﴿**مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِياً مُّرْشِداً**﴾ [الكهف:١٧].

ومَن أراد تحقيق ما ذكرته من المقال، فليراجع الإنسان الكامل في بحث الصفات، فإنه أوسع المجال فمعرفة علم اليقين هي التي يدندن عليها غالب المتَّقين، ومعرفة عينه وحقَّه يذوقه من ذاق سحقه في محقه، ومحقه في سحقه.

وأمَّا مَن كان مثلي يحوم حول الحما رجاء أن يقع فيه لا أنِّي أدَّعى العثور والوصول فإنَّ مَن ادَّعى ما ليس فيه، فتكذيبه عند الامتحان يكفيه لا ينبغي له، ولو لاحت له بعض لوائح، أو فاحت عليه من الحي بعض روائح الفوائح أن يغتر بشيء من ذلك فيدَّعي الوصول، أو يظن في نفسه أنه من أهل الحصول، كلا فإن المقام خطير والأمر الذي طمحت إليه نفسه عسير، لكن إذا أراد القدير صيَّره يسيرًا.

قال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً﴾ [الفتح:٢١].

غير أن طريق الحال غير طريق المحال، ومسلك البطال غير منهج الأبطال، وأنشدوا:

قَالت لَنَا سَودَةُ الأَحْـداقِ والمُقـلِ لَـيسَ التَكحُّل في العَينينِ كَالكُحلِ

فما كل ماءٍ يكون لصيدٍ عند أهل العرفان، ولا كل نبتٍ وإن حسن وطال كسعدان فالكون معمورٌ برجاله وساداته، مغمورٌ بفيض الحق وإمداداته، فَما يصول فيه أحد صوله باطل إلا وأبطاله يرمقونه، ولا بد بعد الإذن بنبالهم يفوقونه، فيعود نوره مكسوفًا، وزيفه لكل أحد مكشوفًا، نسأل الله تعالى السلامة بجاه صاحب الغمامة والعمامة، ونحن نعترف بنقصنا خوف الفضيحة، ونأمر إخواننا بذلك وهذا من النصيحة.

فإن الدعوى بحق تطفئ النور، فكيف إذا كانت عن غير أذنٍ ولا دستور؟ ولقد جمعتنا الأقدار بسادة أخيار وقادة أطهار من أجلهم شيخنا الهمام بركة الشام المشار إليه في هذا الشأن، مَن أذعنت له أعناق أهل العرفان، شيخنا الشيخ عبد الغني لا زال قدره رفيعًا سَني، وقد انتفعت ولله الحمد بصحبته ظاهرًا وباطنًا، فإني كنت كثيرًا ما أتردد عليه لاغترف من بحره، وأستقي مما لديه، فكان ﷺ ينبسط معي في العبارة، ويتلطَّف بي في مواطن الإشارة، ويضرب لي الأمثال الرشيقة، ويأتيني بالمعاني الوثيقة حتى كنت أحفظ غالب ما يمليه عليَّ؛ لتلطفه في إيصال ما يلقيه إليَّ، وكنت إذا جئت منـزلي كتبت مجلسه بتمامه، وربما أنشدني فيه من نظامه فأكتبه أيضًا، وكنت أرى المعارف تُفاض عليه فيضًا وأودعت مجلسًا من مجالسه «رسالة الصحبة»، وآخر أودعته في رسالة «رفع الستر والرَدا» عن معنى قول العارف: أروم وقد طال المدا.

وكان كثيرًا ما يشير لي تارةً ويصرِّح أخرى بأن التمسُّك بالشريعة مع الحقيقة هو الأحق والأحرى، حتى أفتى على كثيرٍ ممن يَروي عنه ويدَّعي الانتساب إليه لما رأى مخالفته الشرع الشريف بأنه يقتله إن لم ينته لعله يرجع عما هو عليه.

كرجلٌ يقال له: ابن الصارم فعمل فيه أبياتًا معنى البيت الأخير: إن لم يرجع فاقتلوه بأبيه: أي الصارم وهو السيف وغيره، فإن كثيرًا من الزنادقة ينتمي إليه ويصير يعزى ما

يقول من جهالته وضلالته إليه؛ ليروج كلامه على مَن يسمع منه الشيخ في غالب كتبه التي زادت على المائتين، يحرِّض على اتِّباع السنَّة المحمديَّة، ويردُّ أحيانًا على هذه الفرقة الرديَّة.

قال شيخنا المشار إليه في «نخبة المسألة شرح التحفة المرسلة» بعد أن نقل ﷺ عبارة الجيلي ﷺ في «مراتب الوجود»: في إن مطالعة كتب القوم تسهِّل الطريق الصعب على المريدين، وأن مَن فهِمَهُ قاصرًا ينهاه الشيخ عن مطالعة كتبهم؛ لئلا يفهم كلامهم على غير مزادهم فيهلك، وإن كان ذكيًّا يأمره بمطالعتها.

ثم قال الجيلي بعد عبارة طويلة: «ولقد رأيت في زماننا هذا طائفة كثيرة من كل جنس من أجناس العرب والفرس والهند والترك وغير ذلك من الأجناس كلهم، بلغوا بمطالعة كتب الحقيقة مبالغ الرجال، ونالوا منها مقاصد الآمال، فمن أضاف بعد ذلك إلى علمه فضلة سلوك واجتهاد صار من الكمَّل، ومَن وقف مع علمه صار من العارفين» إلى آخر ما بسطه من الكلام في هذا المقام.

فانظر إلى قوله: فمَن أضاف بعد ذلك إلى علمه فضلة سلوك واجتهاد، صار من الكمَّل، ومَن وقف مع علمه صار من العارفين.

فإن المفهوم منه أن مَن خالف الشريعة ولم يتقيَّد بأحكامها لا يصير من الكاملين بالطريق الأولى خصوصًا من اعتقد أن الشريعة أحكامها ليست بلازمة عليه؛ لأنه عارف وإنما ذلك لازم في حق الجاهلين، كما هو اعتقاد الزنادقة والملحدين قاتلهم الله.

وأمَّا من تأدَّب بالآداب الشرعية ظاهرًا وباطنًا، وكان اعتقاده حسنًا على وجه السنَّة ولكنه لم يسلك طريقة أهل الورع والزُّهد؛ فإنه يصير عارفًا من غير ذوقٍ وكشفٍ وشهودٍ، ومَن جاهد في نفسه المجاهدة الشرعية الخالية من البدعة لا بد أن يذوق ما ذَاق الرجال، ويتحقق بمشاهدة حضرة ذي الجلال، وقد تقدَّمت هذه العبارة بأخصر مما هنا.

وقال في شرح «ديباجات المثنوي» عند قوله، وزادهم بها فهمًا في كتابه وسنَّة نبيِّه ﷺ ؛ إذ الفهم المعتبر إنما هو فيهما.

قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨]، والسنَّة بيان الكتاب فهي كحواء من آدم عليهما السلام، وجميع المعاني الحقَّة متولِّدة منهما.

قال الجنيد ﷺ: «علمُنا هذا مقيَّدٌ بالكتاب والسنَّة»[1].

وقال الشيخ الأكبر محي الدين قَدَّس الله سرَّه: «كل علمٍ خرج عن الكتاب والسنَّة فليس بعلم أصلاً، وإذا حققته وجدته جهلاً، والجهل عدمٌ محض والعدم ليس بوجود».

وقال ﷺ في آخر شرح عينية الجيلي ﷺ: «والمقصود من الناظر في هذا الكتاب أن لا يفهم كلامنا فيه، وفي جميع ما صنفناه في هذا الشأن إلا على مقتضى ما أسَّسنا عقائدنا عليه من قواعد مذاهب أهل السنَّة والجماعة، وليحذر كل الحذر أن يلقي إليه الشيطان معنى فاسدًا عند مطالعة كلامنا، أو يوهمه أن ألفاظ كلامنا تشير إليه؛ فيكون زائغًا عن طريق الله تعالى الحق وعن مقصودنا بذلك، فيكون مفتريًا على الله تعالى وعلينا، فإن الله تعالى ما أمرنا بالاستعاذة عند تلاوة كلامه القديم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنــزيل من حكيم حميد إلا لعلمه تعالى بأن الشيطان قد يُلقي في أفهامنا ما لم يكن صوابًا من معاني كلام الله تعالى عند تلاوة القرآن، فكيف لا يلقي في الأفهام غير الصواب عند سماع كلام عبد مخلوق لا سيما مثلي ممن هو من عامة المؤمنين» إلى آخر عبارته.

ولو أردنا استقصاء ما حرَّض عليه في كتبه من اتِّباع الشريعة الغرَّاء ومنابذة من خالفها؛ لاحتجنا إلى بسطٍ زائد وإن لم يخلِ عن فرائد الفوائد، لكن الاختصار والاقتصار فيه الكفاية لمن رام الاستبصار، وكنت إذا زرته ﷺ أرى السرور في وجهه سيما إذا أخذ في بعض مقامات وأسرار، ورآني أشاركه وأجاريه وأوافقه ولا أماريه، وكنت أرى البشر في وجهه إذا رآني أفهم ما يلقيه، فأتحقق أن ذلك لفرط محبَّته وحبِّه فيمن يشرب إذا كان يسقيه.

---

(١) انظر: اللمع (ص١٤٤)، والرسالة (١/١٠٧)، وتاريخ بغداد (٧/٢٤٣)، وسير أعلام النبلاء (١٤/٦٧)، ومدارج السالكين لابن قيم (٣/١١٩)، وروضة الحبور (ص١٢١) بتحقيقنا.

فإن بعض المريدين يغص إذا زاد عليه ساقيه فلا يقدر على شرب ما فضل في كأس خطابه من بواقيه، فيدرك الشيخ منه ذلك فيترك معه الكلام في هذه المسالك.

ولقد أخبرني بعض مَن سمع منه أنه قال: رأيت الصدِّيق الأكبر ويداه مملوءتان مضمومتان، ففتح إحداهما وقال: يا عبد الغني هذه ذريتي فاحفظها ثم أعطاه ما في الثانية ولم يصرِّح به، وله محبَّة لهذه الذرية، وودٌ كبير والتفات ومراعاة وميل كثير من ذلك ما شهدته من نفسي معه ظاهرًا وباطنًا.

فمما له عليَّ من النظر في الباطن أني كثيرًا ما أراه، ويذاكرني ويناصحني ولقد رأيته مرة في جامع كبير ثم أنه دخل تحت منبر ذلك الجامع المنير، فاستأذنت ودخلت عليه وقلت له: يا سيدي معي مواقع النجوم ومرادي أقرأه عليك، وأخرجته من عبِّي.

فقال: اقرأ لأشرحه لك جميعًا الآن، فشرعت في قراءته ولم أدرِ أتممته أو لا.

ومن ذلك أني رأيت الشيخ ﷺ جالسًا وقد تحلق عليه جماعة كثيرة وهم يذكرون الله تعالى، ولم يبقَ في الحلقة موضع إلا على ميمنة الشيخ مقدار ما يسع رجلاً واحدًا فتوضأت وصليت سنَّة الوضوء، ودخلت لذلك الموضع، وجلست فيه ثم إن أولئك الجماعة تفرَّقوا، ورأيت نفسي ملتحفًا أنا والشيخ تحت لحافٍ واحدٍ وهو يتكلم عليَّ بلسان المعارف والحقائق، فلما فرغ قلت له: يا سيدي مُرادي أن تجيزني.

فقال: ألم أجزك، فقلت: نعم قد أجزتم لي بكتبكم ومؤلفاتكم، وكان الأمر كذلك فإنه كتب إليَّ إجازة بخطِّه في كتبه ومؤلفاته.

فقلت له: يا سيدي ومرادي إجازةٌ عامة بما يجوز لكم وعندكم روايته وطريقتكم القادرية والنقشبندية، ثم لم أدرِ أقال أجزنا أم لا؟

فذهبت لزيارته بعد ثلاثة أيام، وأخبرته بالرؤيا فسرَّ بها، وقلت له: ولم أدرِ أقلتم أجزنا أم لا؟

فقال: أَجزنَا أجزنا والعالمان واحدٌ، ورأيته في راحته الكبرى يقول: إنه أخذ طريق

النقشبندية من طريقين:

طريقٌ ظاهرٌ عن محمد أبا سعيد الهندي.

وطريقٌ باطن تلقَّاه عن روحانية أبي يزيد البسطامي، أو عن غيره من كبار طريق النقشبندية، فتعلَّق خاطري بهذا الطريق الثاني، فرأيت بعد مدة أني في مكان بين جماعةٍ أعرف غالبهم وكلهم من الصالحين، لكني لم أعرف الجميع وإنما عرفت البعض ثم تفرَّقوا، فالتفت عن يساري وإذا برجلٍ نائم قيل لي: أو وقع في سرِّي إنه أبو يزيد البسطامي ﷺ فقلت: إذًا لا أذهب حتى آخذ عنه طريق النقشبندية، ثم أنه بعد حصةٍ انتبه من منامه فلم أجسر عليه حتى قام وجاء بعض الناس وصار يخدمه ووضَّأه وأنا أنظر إليه، فلما رأيته فرغ من وضوئه وجلس مكانه، قمت إليه وقبَّلت يده، وطلبت منه طريق النقشبندية.

فقال: ألم يجزك به الشيخ عبد الغني.

فقلت: نعم تلك إجازةٌ وأنا أريد بالفعل، فمدَّ يده وبايعني ولقنني الذكر في فَمي ثم انصرف وأرسل خلفي مع رجل من أقاربي، ثم انصرف وتبعته فرأيته دخل محفَّة وجلس فيها، فأردت أن أدخل عنده.

فقال: اجلس هنا، وأشار إلى طرف المحفَّة.

وقال: إني مشتغل في تكميلك، وتكميلك قريبٌ ثم إني اشتغلت في الذكر الذي لقنني به وهو مشغولٌ في المشاهدة، ثم أشار إليَّ أن أيام تكميلك قد كَمُلت، وخرج من المحفَّة وسار فتبعته، ثم أنه قال لي وهو يدير رأسه ويقول: ليكن مشهدك «هو» ومدَّها.

فقلت له: يا سيدي إن لي مدة هذا مشهدي، فقال: دم عليه ثم استفقت وفي جمعة رؤيته تيسَّرت زيارته ومرقده على تلٍ عالي ومسافته عن الشام تقرب من أربع ساعات وكان المساعد على هذه الزيارة أخونا في الله تعالى الشيخ عبد الرحمن السمان.

وقال لي: جئت مرة لزيارته وحدي، فرأيته في المحراب قائمًا يصلي فلم أجسر على الدخول، وصارت أفخاذي تصفِّق، ثم زرنا سيدي الشيخ عقيل المنيحي ﷺ، ودخلنا

حضرته، وصلّينا ركعتين، ودعونا الله تعالى بما يسرّه، ثم سرنا إلى زيارة الشيخ حيان بن قيس الحراني ﷺ، ودخلنا جامعة المنبر، وزرنا مرقده المستنير وبتنا عنده ليلتين، ثم عدنا إلى الأوطان وقد حصل لنا حظٌ كبير في هذه الزيارة، وبسطٌ كثير طفح الكيال عياره.

قيل كان سيدي الشيخ عبد القادر قَدَّس الله سرَّه، والشيخ بقا بن بطو، والشيخ أبو سعيد القليوبي، والشيخ علي بن الهيتي ﷺ الأربعة، يُبرئون الأكمه والأبرص، وأربعٌ من المشايخ يتصرَّفون في قبورهم كتصرف الأحياء، وهم: سيدي الشيخ عبد القادر، والشيخ معروف الكرخي، والشيخ عقيل المنيحي، والشيخ حيان بن قيس الحراني ﷺ (من البهجة).

وقد أشرنا إلى هذه الرؤيا في الألفية وإلى إجازة شيخنا الهمام حفظ الله وجوده للأنام، فقلنا بعد أن ذكرنا طريقة الذكر القلبي:

وَذَا طَـــريقُ النَقشـــبَندي انجْـــتَلَى حَـــال الخَـــلا وَفي المَـــلاَ مُخْـــتَلَى
وَعِـــــندَنَا في هَـــــذِهِ الطَـــريقة إجَـــازةٌ مِـــن شَـــيخِنا وَثِـــيقَة
وَهـــوَ الهمَـــامُ صَـــاحب القَدرِ السَنِي سَـــامِي المَقَـــامِ فَـــرده عَـــبدُ الغَنِي
ثم لَــــــنَا في عَــــــالمِ الــــــروحَاني أخَـــذ عَـــلى البسطَامي قُطب الحَاني
شَـــيخ شُـــيوخ هَـــذه الطَـــريقة وَمَـــن رَقَـــا أوج عُـــلا الحَقـــيقةِ
فَإنَّـــــه لَقنَـــــنا وَأوصَـــــى وَبِـــتوجُّه لَـــنَا قَـــد خَصَّـــا
وَكَـــان ذَا فِي عَـــددِ اسْم المُغـــني تَـــرجُـــو بِـــهِ عَمَّـــا سِـــوَاهُ يُغني

ولقد رأيته ﷺ في ليلة الأحد لثلاثٍ وعشرين خلت من جمادي الأولى وأنا في مدينة مصر المحروسة، وكنت بتُّ ضيِّق الصدر مهمومٌ بحوادث الدهر، فرأيت أني في مجلسه ﷺ وهو يُقرئ بعض أتباعه في رسالته، فحضرت آخرها ثم بعد إتمامها جرى ذكر بعض الزنادقة في حضرته، فقلت: يا سيدي كأن هؤلاء الزنادقة عقائدهم مختلفة من أصلها، فربما يكون أحدهم تيمانيًّا، أو درزيًّا.

فقال: نعم لكن الشيخ عبد اللطيف ليس من هذا القبيل.

فقلت له: يا سيدي وكل ما قيل عنه فإنه افتراءٌ لإني أخذت عنه، وصَحبتَه خمس سنين، فما رأيته تركَ صلاة الضحى فضلاً عما افتروه عليه.

نعم كان يتكلم بلسان الحقائق مثل جنابكم، فينكرون عليه مثل ما أنكروا عليكم، ثم أني لما أردت الانصراف قبَّلت يده ثلاث مرات، وفي الثالثة أمسك يدي ورضها.

وهكذا في اليقظة كنت إذا قبَّلت يده أقبِّلها ثلاثًا، ويمسكها أحيانًا وأفهم منه المحبَّة، ثم قال لي: سلِّم على الشيخ وودَّعته وانصرفت قاصدًا دار شيخنا الشيخ عبد اللطيف رحمه الله تعالى، فلمَّا وصلت الدار وإذا بالشيخ عبد الغني قد لحقني للاجتماع به والسلام عليه، ودخلت مسرعًا على شيخنا لأُعلمه بقدومه فوجدته يخيِّط والله أعلم في أثوابه.

فقلت له: استقبلوا سيدي الشيخ عبد الغني فرمى ما بيده وانتصب قائمًا، وإذا بالشيخ قد صعد المحل، فاعتنقا ساعة يسلِّم كل واحدٍ منهما على الآخر اعتناقًا وسلامًا يدل على خالص المحبَّة، ثم إنِّي مَهدت للشيخ مجلسًا فجلس، وجلس شيخنا أمامه والفقير بين يديهما إلا إني بجانب الشيخ أقربُ، فأشار لي شيخنا أن تنحَّ عنه أدبًا، فامتثلت أمره.

فقلت له: يا سيدي لقد عجَّلتم بالمجيء.

فقال ﷺ: خشيت العوائق، ثم إني ذكرت لشيخنا سلام الشيخ والثناء الواقع منه عليه ثم أن شيخنا استأذنه، واستلقى على ظهره.

وقال له: يا سيدي لا تؤاخذني فإني تعبانٌ وأجد ثُقلاً في نفسي.

فقال له الشيخ حفظه الله تعالى: والفقير كذلك لكن أنا أرى البلاء يدور على سائر أعضائي.

فقلت له: كأنكم الآن أقطابٌ للبلاء فلذا يَدورُ عليكم.

كما أخبر الشعراني ﷺ بذلك عن نفسه في مِننه.

فقال: نعم إني أحس بالبلاء يدور عليَّ، ورأيته أثبت من شيخنا في التجلُّد؛ لأنه صاحب الوقت الآن وصاحبه أجلد من غيره.

ثم أن الشيخ قال: يا شيخ عبد اللطيف امحِ الاسم في الاسم، وأشار إلى بقاء الهواء وفناء الإناء.

فقلت لشيخنا: وكذلك جنابه، ثم أنه حفظه الله تعالى التفت إلى شيخنا، وقال له: لا تذهب حتى نأكل قراكم، ووضع وسادة تحت رأسه وتمدد للمنام، فالتفت شيخنا إليَّ وأشار أن ما عنده ما يؤكل، فأدخلت يدي في جيبي اليمنى، وأخرجت له بعض مصاري فضه خالصة، وأخرجت من جيبي الشمال حصة أيضًا فرأيتهم زغلا.

فقلت للشيخ: خذوا هؤلاء ودفعت له ما أخرجت من جيبي اليمنى، واشتروا بها لحمًا مشويًّا، ومرادى هؤلاء الزغل أردها علي صاحبها؛ لأنها صرف ذهب، ثم أني انتبهت وقد حصل لي برؤيتها كمال السرور لا سيما هذه الخلوة التي درَّها منثور، واستبشرت بحصول الفرج واللطف وأنهما قد حملا حملتنا، فرحم الله شيخنا وحفظ وجود الثاني بجاه من أنزلت عليه السبع المثاني، وممن أجتمعنا به مرارًا، ورأينا عليه من سيَّما أهل القرب أثارًا غير أن الاجتماع كان على البعد فلم تحصل به إفادة.

وكنَّا نقنع برؤيته فإن رؤية الصالحين سعادة سيَّما السيِّد السند العارف الذي من بحر المعرفة غارف: السيد محمد مراد النقشبندي تلميذ السيد محمد معصوم قَدَّس الله سرَّه المختوم، كان كثيرًا ما يخبرني عن جميل اتِّباعه للآثار المحمَّدية، وجليل اقتفائه الأنوار الأحمديَّة أخونا في الله تعالى: الشيخ عبد الكريم القطان رحم الله روحه وجعله مع مَن في الجنة قطَّان، وقد ترجمته في كراسة سميتها: «الصراط القويم في ترجمة الأخ الشيخ عبد الكريم».

وقد أخذ عن أربعة أشياخ فترجمتهم منهم: الشيخ المشار إليه تجلَّى الله بالرحمة عليه ورأيت له رسالة مختصرة في طريق النقشبندية؛ فلخصتها وذكرتها في ترجمته وكان يشوقني هذا الأخ للاجتماع به حتى رأيته في المنام في ليلةٍ غب تشويقه ثلاث مرات، وأخبرته بذلك فسرَّ، ورأيته مرة في المنام وقد جلس للمراقبة وجلس معه جماعة كثيرون، وكان بيني وبينه رجل، فغاب الرجل وتقدمت إلى قرب الشيخ عبد الكريم ثم اتحدت به فلم يبقَ

بيني وبينه واسطة.

وممن كان يخبرني عن حميد مآثره وفريد مفاخره سيَّما فرط تمسُّكه بالسنَّة والكتاب واقتدائه بهما في حركاته وسكناته التي طبق الصواب، صديقنا المرحوم الشيخ إبراهيم الأكرمي، خادم مرقد الهمام الإمام الأكبري، أحد تلامذته الذين نفعهم الله بصحبته، وأخبرني صديقنا الأكرم الشيخ حسن الداغستاني.

قال: كنت أرى الشيخ إذا نام واستفاق وتعوَّق عليه الخادم في الماء للوضوء، ضرب بيده الحائط وتيمم و لم يمكث على غير وضوءٍ.

ولقد أخبرني شيخنا الشيخ محمد البديري المعروف بابن الميت في مدينة دمياط، وقد جرى ذكر جناب الشيخ رحمه الله، قال: زرته مرة، فأخذ يذكر علو مقدار العلم الإلهي على غيره من العلوم، ويقول: ما الذي يستفيده الطالب من عِلم المنطق والصرف وغيره، هل يستفيد به خُلقًا من الأخلاق المحمَّدية؟

قال: وكان يشير لي ويكنِّي عني بذلك، ثم قال: ولكن بعض طلبة العلم إذا رأى كلبًا ميتًا يقول: ليته أنا، أو فطيسة يقول: ليتها أنا.

قال الشيخ محمد المذكور: وكانت هذه الصفة لم يطَّلع عليها فيما أعلم أحد إلا الله وقد كنت أخذهّا عن جَدتي، فإنهَا أخبرتني: إن جدي كان يقول ذلك، فأخبرت أنه رُؤي في المنام وهو واقفٌ على كثيب من رمل، فقيل له: ما فعل الله بك؟

فقال: غفر لي وشفَّعني بعدد الرمل التي تحت أقدامي، فقيل له: وبم نلت هذا؟

قال: وذكر ما قدمناه، قال الشيخ محمد: فتعجبت من كشفه ﷺ بما لم يطِّلع عليه أحدٌ مني، وحدثني عنه أيضًا.

قال: اجتمعت ببعض مَن يُبغض الشيخ ﷺ، فأخذ يذكر لي بعض ما يُوجب الذم فوافقته، وكان ذامًا بليغًا، ثم أني قلت له: إني أذهب إليه كثيرًا ومن الآن ما عدت أذهب إليه، ثم في ثاني يوم جاءني بعض المحبِّين لي وله.

فقال: قُم بنا إلى زيارة الشيخ، فأجبته مسرعًا وعجبت من نفسي سرعة الإجابة، وقلت لها: ألم تعزمي على عدم الاجتماع به؟

لكن رأيت نفسي كالمقهور، فسلَّمت للقضاء والقدر، وكان مِن عَادتي متى أتيت دخلت عليه.

فقيل لي: امكث قليلاً؛ لأن الشيخ له عُذر أو ما أشبه ذلك، فجلست وأنا أوبِّخ نفسي وأقول لها: لأي شيء ترضين بالجلوس في الأعتاب وأنت عزمت على عدم الزيارة؟

ثم بعد ساعةٍ أذن لي ولرفيقي فدخلنا، ثم دخل إمام الشيخ ودعاني إلى القرب منه وسلَّم عليَّ، ثم التفت إلى رفيقي وإمامه، وقال لهما: بالأمس قد اتفق أن بعض الناس اجتمع عليه آخر، وآخذًا في سبٍّ إنسان.

فقال أحدهما: كذا وكذا، وقال الثاني: كذا وكذا المجلس بعينه، ثم التفت إليَّ وقال: قد وقع ذلك؟

فقلت له: نعم ولم أنكر، فقال: كيف الحال؟

فقلت له: ترجع إلى الأصل، فقال: وما هو؟

فقلت له: الاعتقاد فإن هذا الأمر عرضٌ وقد زال، وأراد الشيطان أن يدخل بيننا فدفعه الله بإخباركم، ثم قال: وكيف يكون؟

فقلت: نختلي بجانبكم، فأشار للاثنين فخرجا ثم أخذت عنه الطريق، وجرى ما جرى قال: وطلبت منه أن يؤلِّف لي رسالة، فألف رسالة وذكر فيها ماليس لي عنه غنى، وهي التي أشرت إليها.

ولهذا الشيخ أحوالٌ عجيبة وذكرها يطول؛ لأنها غريبة، والمقصود التنبيه لكل صبٍّ نبيه، على حسن اتِّباع هؤلاء الأشياخ للآثار، لا أن مُرادنا استيفاء ترجمتهم والتكلُّم على ما لهم من الأحوال والأطوار.

ومنهم ﷺ: العارف النوراني المنلا حمزة الكوراني كنت آراه على البُعد كثيرًا، واتملَّى

أحيانًا بمشاهدته يسيرًا.

أخبرني عنه شيخنا ﷺ قال: اجتمعت به وتذاكرنا معه، فانحظَّ بنا، وانحظينا به، وكان ممن لازمه، واشتغل عليه في قراءة الفتوحات صديقنا ذو الثغر الباسم الشيخ قاسم بن سعيد المغربي، وسيأتي ذكره، وكان يثني عليه وعلى حُسن سيرته وصفاء سريرته، وله رسائل في هذا الشأن ألَّفها وعرضها على الأعيان.

وأخبرني شيخنا: إنه اجتمع بشيخه مصطفى أفندي، وأخذ عنه الطريق للالتماس وألبسه الكسوة للتبرُّك، ورأيته يلبسها.

وقال لي الشيخ قاسم: ما رأيت مثل المنلا حمزة في اعتنائه في قراءة كلام القوم ومع اعتنائه الوقت الذي جعله للقراءة معنا قد فرغه عن الشواغل، فلا يشغله فيه شيء إلا القراءة، وإذا توقف في مسألة وقف عندها حتى يفهمهما.

ولَّما توجَّه الشيخ قاسم رحمه الله تعالى إلى البيت المقدَّس بقصد الزيارة، وطال مَكثه في نواحيها، فلم تكن زيارته عادة، فطال شوق المنلا حمزة إليه، وأرسل له كتابًا يحثّه فيه على الإقبال عليه، فبادر للعود امتثالاً، وأقبلا هو وإيَّاه على مطالعة مفتاح الجفر إقبالاً، ولم يزالا يدأبان على حلِّ رموزه، وتنفتح لهما بالتأمُّل مغاليق كنوزه، وسألت الشيخ قاسم عن معرفته بالجفر، فأثنى عليه، واعترف بفضله فيها، وأحسن ما لديه حتى وصلا إلى الفصل الذي إذا انحلَّ ظهرت غوامض الجفر وأسراره، وبدت خوافي إشارته وسواطع أنواره، فتمرَّض المنلا حمزة ولمعت له لوامع تلك الدار، فحنَّ إليها حنين الطير إلى الأوكار، وراش جناح روحه فطارت إلى تلك المنازل العليَّة، وهاتيك العوالم وسَلم من آفات هذه المنـــزلة التي قلَّ أن يَسلم منها العبد إلا إذا أعانه الخبير العالم.

فقلق الشيخ قاسم على فراقه ثم سكن لشهوده أن هذا كأسٌ لا بد لكل أحد من مذَاقه وكنت أراه غالبًا لا يتأخر عن صلاة الجماعة، فإنها سنَّة مؤكَّدة.

وقيل: بوجوبها وهي للخيرات جماعة، وأهل الله لا يحبون أن يفوتهم موسم من مواسم الخير؛ لأنهم لا يفترون عن طلب المزيد وهو لا يكون إلا بحسن السير.

ومنهم ﷺ على الرتبة: الشيخ أحمد بن كسبه الحلبي القادري كان يحب العزلة والوحدة عن الأنام، والإقبال على الله تعالى مدى الدوام، كنت أسمع به، وأتشوق إلى لقائه بقصد الاستفادة، ولكنه كان إذا جاء من أسفاره إلى الشام لا يفتح بابه على جاري العادة، وممن له معه صحبة أكيدة ومحبَّة مفيدة أخونا في الله تعالى الشيخ عبد الرحمن السمان بلَّغه الله منازل الأمان، فلما جاء في بعض خطراته، أعلم بمجيئة الشيخ قاسم المغربي رحمه الله تعالى فقال له: مُرادي تأخذ له هذه الأبيات الثلاثة ليشرحها وهي:

تَطهَّر بماءِ الغَيبِ إن كُنتَ ذَا سرٍّ ... وَإلاَّ تيمَّم بالصَعيدِ وَبالصخرِ
وَقَدم إمَامًا كُنتَ أَنتَ إمَامُهُ ... وَصلِّ صَلاةَ الفَجرِ في أَولِ العَصرِ
فَهَذِي صَلاةُ العَارِفين بِربِّهِم ... فَإن كُنتَ مِنهم فَانْضَح البرَّ بِالبَحرِ

ثم ثاني يوم جاءه بالشرح، فتأمَّله، فانحظ به ثم اجتمع به، فأخبرني: أنه أول ما خاطبه به إذا اجتمع بإنسان فلا تفاتحه في بحث حتى هو يفاتحك، فإنك ربما تفاتحه في بحثٍ لم يكن له فيه معرفة فتخجله، ثم أخذ يتكلَّم بكلامٍ عجيب.

وقال لي الشيخ قاسم: اجتمعت بكثيرٍ من أهل الله تعالى، فلم أجد أحدًا يتكلَّم على مقتضى فتحه مثل هذا الرجل، وكان له قوةٌ على الرياضة والمجاهدة، وأقام مدة طويلة لم يضطجع للمنام من فرط المكابدة، وكان قبل دخول رمضان بعشرة أيام يصوم على طريقة الرياضة ويوصل بها رمضان، وربما فعل ذلك في غيره مع اعتزال الأنام.

وكان في سنة اثنين وعشرين قدم إلى الشام، ونزل في دار وفتح بابه ومنع حجابه وأذن للواردين بقصد رد الشاردين، فوردت عليه الأعيان والأكابر وصغار الطلبة وكبار العلماء فلم يكابر، وأغلق الباب على جاري العادة لَّما رأى بعض القصَّاد مرادهم الامتحان لا الاستفادة، وكنت قدمت من بين المقدس المبارك الذي بعد المسجدين في الفضل لا يشارك، فأخبرت بفتحة الباب لمن ورد وعدم تمنُّعه من لزيارته قصد.

فقلت للجماعة الذين جاؤا للسلام: لا بأس أن نذهب لزيارته لنحظى ببركته، فإنه من أرباب المقام وكانفيهم المجذوب المحبوب الشيخ مصطفى التغلبي، فتوجَّه معنا أيضًا

فدخلنا عليه، وسلّمنا وجلسنا بين يديه، فأقبل بوجهه عليَّ ثم فتح بحثًا طويل الذيل كثير الخير والفوائد والنيل.

وقال في أثناء كلامه: ينبغي للإنسان إذا فتح الله عليه بشيء مِن نظمٍ أو نثرٍ أن لا يغتر به، وأن لا ينشغل قلبه بذلك؛ بل يمزقه أو يحرقه فإن عند الله ما هو أعلا مما هنالك، أو ما هذا معناه ثم أبى، ودَّعته وانصرفت وصرت أمزِّق فيما نظمته من القصائد وما كتبته من الفوائد وما عملته من الأوراد حتى مزَّقت شيئًا كثيرًا، وكان انتفاعي به في هذا المجلس انتفاعًا كبيرًا، وبعد ذلك لم يقسم للاجتماع به نصيب؛ لاحتجابه عن الناس وكان بفعله مُصيب.

كان حافظًا لكتاب الله تعالى له اليد الطولى في المعقول والمنقول، ويستغرقه الحال في كلامه، فربما أُشكل على السامع ما يقول.

أخبرني بعض الأفاضل ممن كان له عليه تردد: إنه اجتمع به فسمعه يلِّحن من حيث العربية.

قال: فقلت في نفسي: كأن الشيخ لم يعرف العربية.

قال: فالتفت إليَّ وقال: رحم الله الأجرومي، وذكر بعض مناقبه.

ثم قال: إني شرحت الأجرومية على مقتضى كلام القوم، وفتح لي بحثًا دقيقًا في علم النحو حتى أبهتني.

قال: ثم ذهبت إليه مرة أخرى، فلما جلست بين يديه خطر لي يا هل ترى أما لهذه الخواطر التي تخطر للإنسان في الصلاة من شيء يُصرفها؟

فالتفت إليَّ وقال: إن الإنسان إذا أحضر جناب الحق في وجوده حال الصلاة بأي نوعٍ كان من الاستحضار، انتفت عنه الخواطر.

قال: وأتيته مرة ولي حاجة دنيوية، فأخبرني عن تلك الحاجة وعن كيفية قضائها وأنها بعد يومين أو ثلاث تُقضى وكان الأمر كذلك.

ثم قال لي: وكل مَن اعترضه فغير محق.

وكان بينه وبين شيخنا الهمام جناب الشيخ عبد الغني حفظ الله وجوده للأنام، مكاتبات، وأثبتها في كتاب «المراسالات» له، وكان له دائرة كبيرة في مدينة حلب، فخرج عنها رغبةً في عمارة السريرة، فساح وناح وباح عطره، وفاح.

وأخبرني بعض مَن يتردد عليه: إن إنفاقه من الغيب؛ لأنها نفقةٌ كثيرة ولا معلوم له، فلا يقال لمثلها من الجيب، وقد أخذ طريقة القادرية عن شيخه الشيخ مصطفى الطيفي.

ولهذا الشيخ مصطفى أحوالٌ عظيمة، وأفعال كريمة وله مناقب مدوَّنه، وطريقته الأخذ عن الله وليست طريقته العنعنة.

وأخبرني أخونا الشيخ مصطفى بن عمر كان الله له: إنه أخبره باجتماعه في هذه الخطرة الأخيرة بأبي العباس الخضر عليه السلام والتحايا الكثيرة.

وأخبرني ابن الخالة المرحوم السيد عبد الرحمن أسكنه الله فسيح الجنان: إنه كان كثيرًا ما يكاشفه بخواطره وهو بين يده، ويقول له: نحن في كذا وكذا أو مع خاطر كذا وكذا.

ولقد بَلغني عنه أنه قال لبعض أحبابه: مَن قال لك أطال الله عمرك، فقل له: قصَّر الله عمرك، فإن قوله دعاءٌ عليك بطول العناء، وقولك تخفيف عنه من مُقاسات النَصب والعناء، وكان عنده الحدَّة التي تعتري خِيار الأمة، ولم يكن إلا الحبيب همَّه، وكان مهما أفاضه الحق عليه من المعارف والأسرار أودعه الماء أو النار محبَّةً في عدم الظهور؛ لأنه كما قيل يَقسِم الظُهور.

وأخبرني أخونا الشيخ عبد الرحمن: إنه أُخبر بيوم وفاته وأنه يكون بالأسهال، وكان كما ذكر، وقد ترجمته بعد وفاته ترجمة قليلة فأحببت ذكرها؛ لتكون خاتمة جميلة.

فقلت: قد درج بالوفاة إليَّ رحمة الله، وعليَّ جناته العارف المحقق والصوفي المدقق صاحب الكرامات الظاهرة والخوارق الباهرة، مَن يُشفي زلال سَلسبيله كل قلبٍ مكلومٍ ويكشف في ظلال ظليله كل سرٍّ مكتوم، بحر معارف تلاطمت برياح القُرب أمواجه وروض لطائف عبيره، قوَّم من المعوج اعواجاجه، وزاد ابتهاجه نور سناه في الآفاق

ساري، وفردٌ يخسر بائعه ويربح الشاري، أقداحه دائرة على مَن عليه وارد، وأفراحه طائرة تُكسب مَن لَّمت به سلبيات الموارد، شيخ سبَّح شبح المعارف في فؤاده، فكساه روح التعبير، ورُمح رماح الحقائق في ميدان سرِّه فحلاه بأشباح التصوير جميل، ولكن أسدل على جماله بُرقع الخفا، ودليل من أمِّه حصل له كمال الشفا، كانت دعواته لا تُرد ومناقبه لا تُعد ذو القوس الموتور والحال المشهور الشيخ أحمد بن كسبه الحلبي مَن هو في حجر المجاهدات ربِّي، كان إذا تكلَّم بالمعارف خلَّته يغرف من بحرٍ، وإذا نطق بالأسرار فكأنما ينطق بفرائض النحر، كان مشهده الحقيقة مع قيامه بالشريعة والطريقة، نفحته النفحة الصمدانية فاستخلصته منه إليه، وساقته عواصف نسمات الجذب حتى أقبلت به عليه، وما زال يعلو به المقام، و لم يطب له هنا المقام؛ لعلو همَّته في الطلب؛ ولتحققه أن الإقامة ليست في الشام ولا حلب؛ ولأن العارف لا يتحقق كمال التحقق إلا بخروجه عن عالم الضيق، فصار يهمز جواد الاجتهاد إلى أن بُشِّر باللقاء، فكان أحبُّ إليه من كل مراد، فأجابه إجابة صاد لشرب زلال الوصال، ولبَّاه تلبية محقق أنه آن أوان وصل الوصال، وفصل الفصال فقلت:

وَسَارعنَا لَحَضرةٍ شَمُخت   عِزًّا وَعزَّت فَلمْ يَنَالها خَليُ
مَا نَالَهَا غَيرُ عَارفٍ شَرفَت   أَنْسابه وَهوَ كَاملٌ وَوليُ
وَزُخْرِفت جَنةُ الشُّهودِ لَهُ   وَظَلَّ يَعلُو الحَبيبُ عِند عَليُ

له الفهم الحاذق الزكي حتى أن مطالعة الكتاب مرتين تضرُّه.

كما عنه حكى: انتفع به عندنا جماعة في الشام، واعترفوا بفضله لما رأوا حاله على أكمل نظام، له الاتِّباع الكامل للشريعة والأخلاق المحمَّدية والنفس المطيعة، وصنَّف كتبًا كثيرة ومزَّقها؛ لعدم الإذن بإظهارها؛ لدقة رموزها وأسرارها، وقلت فيه وحقَّه لم أُوفيه:

يَا غَائبًا عَن عَينِ عَيني وَهوَ في   قَلبي وَهَل مَن في القُلوبِ يَغيبُ
يَا مَن إذا مَا قُمتُ أَمدحُ ذَاتِه   بالعَجزِ جئتُ لَعلَّ ذَاكَ أُصيبُ
يَا قَلبُ قَلبي هم بِنشرِ صِفَاتِه   وَدع الجَهول بنَشرِ تلكَ يُعيبُ

وابْغِـي لَـنَا كَهفًـا لكـلِّ مُـلمةٍ مَـن جَـاءَ حَانَـته أَحـى يَطيبُ
حِصـنًا لِمَـن نَـادَاهُ مِن كُلِّ الوَرَى وَإلى المُـنَادى بِالسِـرَاعِ يُجيـبُ
وَشَـا مَعَانِـيهِ لَقـد دَقَّت عَلى الـ أفهَـامِ فَهـوَ لِـدَى الأَنَامِ غَريبُ
وَمَـن انتمَـى لجَنَـابِهِ فِي حَيِّـهِ يَكفِيـهِ هَـذا لَـيسَ قَـط يَخيبُ

ومنهم: ﷺ الشيخ قاسم بن سعيد بن عثمان المغربي، أخبرني الأخ في الله تعالى الشيخ مصطفى بن عمرو غفر الله له قال: كان في الخلوة التي كان فيها الشيخ قاسم رجلٌ مغربي يقال له: الشيخ عبد القادر، وكان الناس يقولون عنه: إنه من الأبدال، فتوفي، فسُئل الشيخ على النبكي المجذوب إلى القُرب من المحبوب عنه وعن الذي أقيم مقامه في البدلية.

فقال رجلٌ مغربي أسمر اللون: الآن في بغداد، وسيأتي ويسكن في مكانه، فلما جاء الشيخ قاسم وسكن موضعه علم السائل أنه من الأبدال، وسُئل أين كنت في شهر كذا فقال: في بغداد، وهذا الشيخ عليٌّ له أحوالٌ خارقه وكرامات فارقة، وأخبرني ببعضها ولده أخونا الشيخ عبد الرحمن السمان، وأخونا الشيخ مصطفى حتى قال لي أخونا الشيخ مصطفى: كنت إذا سألته عن مسألة همهم بكلامٍ وأجاب وكأنه اسم الله الأعظم، وكان أول ما نزل الشيخ قاسم في مدرستنا البدرئية، فمكث فيها سبعة عشرة يومًا، ثم انتقل إلى خلوة الشيخ عبد القادر في الشميصانية، ولما صحبته وصرت أتردد عليه كان ينحظ منِّي؛ لأني كنت لا أشغله عما هو بصدده من مطالعة أو قراءة، وجئته يومًا فلمَّا جلست رأيته قد وضع كراريس الفتوحات بين يديه يطالع درسه الذي يقرأه على المنلا حمزة، فأخذت المحل الذي يطلع فيه، وصرت أُسمع نفسي القراءة وهو يسمع وأنا أتفهم، فرأيته يبتسم وانبشَّ وضحك، فقلت: ما سبب هذا الضحك؟

فقال: هذه المسألة التي قرأهَا لي متوقفٌ فيها من ضحوة النهار، فلما أتيت انقبض خاطري، وقلت: إن السيد يشغلني عن فهم هذه المسألة، فرأيتك بمجرد جُلوسك أخذت الكرَّاس وصرت تقرأ المسألة بعينها، وأنا أسمع فانحل لي إشكالها وفهمتها، وعجبت من هذا وصرت أضحك حيث ظننت أنك تشغلني، ثم أنه ذهب للوضوء وأتى، وكنت أعرته

كتابًا لسيدي أحمد الغزالي.

فقلت له: اسمع هذه المسألة وذكرها له، وهي تتعلق بالوارد، وإنه على أربعة أقسام تارةً يكون قويًّا وصحابه ضعيفًا فيقهره وبالعكس، وتارةً يستويان قوةً وضعفًا، فلما سمع هذه العبارة قال: إن لي خمس سنين أتطلب هذه المسألة وقد طالعت هذا الكتاب ثلاث مرات فما رأيت هذه العبارة، ثم قال: لقد حلَّت بك في هذا اليوم البـــركه، وأخذ ينشد:

فَصـــادِفَ قَلـــبًا خَالـــيًا فَتمكَّـــنَا

ويكررها، وزرته مرة فرأيته في جلالٍ، فسألته عن السبب؟

فقال: إن هذه الخلوة التحتانية ينام فيها كل ليلةٍ جماعة، وإذا قمت إلى التهجُّد مرادي أن أرفع صوتي؛ لأن عندنا رفع الصوت فيه أحب، فلا أقدر لئلا أُوذي النائمين.

فقلت له: فليكن بالهمس.

فقال: يا سيدي هذا القيام رأس مالي، فإذا فوَّت الأحب كل ليلةٍ خسرت رأس مالي.

وأُخبرت: إنه كان يخرج في شدة البرد إلى صحن الأموي، أو أروقته ويصلّي بها رافعًا صوته، ولا يرضى لنفسه بتفويت الأحب، فهكذا أهل الله تعالى فيما مضى وفي كل زمانٍ هذا حالهم.

وقال لي يومًا: مرادي يا سيدي تخبرني عن أصل طريقكم.

فقلت: نعم إن شيخنا لما كان دائرًا على مُرشد يرشده، أرشده الله تعالى إلى شيخه الشيخ مصطفى أفندي، وهذا هو خليفة الشيخ علي أفندي قرَّه باشا ورجال طريقتنا غالبهم من بلاد الروم فلما سمع بذكر علي أفندي.

قال لي: إن هذا الرجل قد مَدحه إلى المنلا حمزة الكوراني، وأثنى عليه خيرًا.

وحدَّثني ببعض مناقبه، وأنه كان عالمًا جليلاً عاملاً مجدًّا، فالآن قد اطمأن خاطري عليك حيث أن طريقكم ينتهى إلى هذا الرجل، فإني أسأل الله السلامة.

وقد طالعت في بعض التواريخ، فرأيت صاحبه يذكر عن بعض مشايخ مصر أحوالاً

خارجة عن الشريعة، فخفت أن يكون طريقكم من هؤلاء الطُرق، ولكن الآن قد اطمأن خاطرى عليك، ثم إنه اجتمع بشيخنا وهو يزور الجبَّانة فسلَّم عليه، وقال لي: جزاك الله عنِّي خيرًا لقد زاد اعتقادي في شيخكم الطاق عشرين، وكانت مجاهداته وافية ومكابداته كافية، وكنت عنده قبل أن يتمرَّض بيومٍ، وكتبت له مكتوبًا إلى ناحية القدس، فأنزل قشته؛ ليخرج منها إجازة.

قال لي: في غدٍ يأتي مشتري هذه القشَّة، ويقول: هذه قشَّةُ المغربي فيها الفوائد، ويصير يفتش فيها، ثم إني ذهبت وودعته، فثاني ليلة أُخبرت أنَّه مريض وقد أنزلوه إلى أرض المدرسة، فذهبت بكرة النهار فرأيته مستغرقًا فجلست عند رأسه، فصار أحيانًا ينظر إليَّ لكن لسانه ثقيل، ثم إنه أخذ يذكر: «لا إله إلا الله»، ثم: «الله»، ثم خرجت روحه في: «هو».

وقد ترجمته من حين خروجه من بلاده إلى مجيئه إلى الشام، وذكرت له بعض ما وقع في كراسة سمَّيتها: «الثغر الباسم» في ترجمة صديقنا الشيخ قاسم، ولم تُبيَّض.

ومنهم ﷺ: شيخنا المنلا عبد الرحيم الهندي المعروف بالأزبكي النقشبندي العالم المحقق والكامل المدقِّق الجامع بين علمي الشريعة والحقيقة، والهامع فيض قُدسهِ بالأسرار الرقيقة، اجتمعتُ به مرارًا، واستفدت في مجالسه علومًا وأسرارًا، كان ممن يشوقني للاجتماع به الأخ البَر الرحيم الشيخ عبد الكريم.

وقال لي مرة: أخبرني سيدى محمد مراد: إن المنلا عبد الرحيم لا ينام مع أنه يشرب من الماء ما يزيد على العادة بكثير وهذا من حرارة القلب بنار الذكر فإنه لها يثير، خُلطته بالأنام قليلة، وسيرته سيرة جميلة، انتفع به خلقٌ كثير عندنا في دمشق الشام، ونالوا بمودَّته وصحبته المراد والمرام، كان له اعتقادٌ كبير وانقياد كثير جناب السيد محمد مراد حتى كان بعجبٍ منه مَن يعرف مقامه في العلم والعمل.

فإن الشيخ في كل مقامٍ وحالٍ بدرٌ كَملَ لكنه أدرى بمقام السيِّد المذكور وأعرف به من غيره؛ إذ هو ممن كُشفت له الستور.

ولقد أُخبرت: إن السيِّد محمد مراد رحم الله روحه وبلغه المراد دعاه بعض أكابر الشام إلى دراه.

وقال له: اصحبوا المنلا عبد الرحيم معكم.

فقال له الشيخ: لست أدعوه فإن أردته فاذهب إليه وأدعه، فذهب إليه.

وقال له: إن الشيخ يقول لك في غدٍ تحضر عنده؛ لتشرِّفونا بالزيارة إلى منـــزلنا أو ما معناه، فجاء في ثاني يوم وذهب مع الشيخ ثم عاد إلى بيته، واستقاء جميع ما في بطنه لَمَّا عَلمَ أنَّه حَرامٌ وشبهة.

وهكذا يفعل كلما دعاه من يعلم أن في طعامه شبهة؛ لعلمه أن الحَرام ظلمة، والظلمة تقسِّي القلب، ومدار أهل الطريق على ما ينوِّر قلوبهم ويلينها فإنه المضغة التي عليها المدار.

قال بعضهم: ينبغي للمؤمن أن لا يفارقه هموم خسمة هم: ذنبه الماضي، فإنه لم يدرِ ما الله صانع فيه.

وهمٌّ ذنب مستقبل أن يقع فيه، وهمٌّ قبول الفرائض التي تحملها دون السموات والأرض، وهمٌّ ما يدخل جوفه من أين، وهمٌّ الخاتمة بما يختم له.

فقال في نفسه: ليت الأستاذ لم يرسل خلفي في هذه الضيافة لما حصل له من الانزعاج فنام، فرأى القطب فتبعه ليسلِّم عليه، فالتفت إليه.

وقال له: أنت قُطب الشام الشيخ مراد تنكر عليه فما لك بي حاجة؟ أو ما هذا معناه، فأفاق منـــزعجًا وبكر لدار الشيخ، فلما رآه الشيخ.

قال له: رجعت، قال: رجعت وقبَّل يد الشيخ، ورأى له بركات عظيمة وأحوال جسيمة، فلزم بابه، ونزل رحابه وصار يثني على الشيخ الثناء الزائد لما شهد من توجهاته سنيات العوائد الفوائد.

وهذا الشيخ له حالٌ عظيم، وقال: كالدرِّ النظيم، إذا تكلَّم جاء بما يُبهر العقول لكنه موافق للمعقول والمنقول، ومن شدة اتِّباعه للآثار المحمديَّة واقتفائه للأنوار الأحمديَّة، لا

يحلق رأسه حتى يصير شعره إلى شُحمة أذنيه؛ لأن نبيَّنا ﷺ كان يفعل ذلك.

وهكذا شأن العارفين لا يرفعون قدمًا ولا يضعون أخرى إلا وهم مقتفون رفعًا ووضعًا لآثاره الشريفة الرفيعة المنيفة، وهكذا كان شأن الصحابة يكون أحدهم يمشي فيقف، ويقول: رأيته ﷺ يقف هنا، وآخر يحول رأس دابته ويخبر أنه رآه ﷺ حول رأس دابته هنا، وآخر ينـــزل عنها إلى غير ذلك، كل هذا لشدة اتِّباعهم.

ثم جاء التابعون على منوالهم، فبعضهم لم يأكل البطيخ؛ لعدم معرفته كيف أكله ﷺ، وبعضهم لا يأكل العنب كذلك، حتى إذا وقفوا على كيفية أكله عند ذلك كانوا يأكلون، وهكذا كل عصرٍ لا يخلو من رجالٍ يقتفون آثاره ويتَّبعون أنواره لقوله ﷺ: «**الخير فيَّ وفي أمتي ليوم القيامة**»[1].

ولا ندري عمَّن أخذ هؤلاء الزنادقة طريقتهم المقصية المدنية إلى سقر، إلا إن كان عن الشيطان، وأهويتهم ونفوسهم التي هي أضلُّ من البقر، فإن الاتِّباع طريق السلف والخلف ومن خالفهم فقلبه وعقله اختلف، قال اللقَّاني رحمه الله:

فَكلُّ خَــيرٍ فى اتِّبَــاعِ مَــن سَلف وَكُــــلُّ شَــرٍّ في ابْتدَاعِ مَن خَلفْ

وحاصله: إن ذكر هذا الشيخ ومَن أسلفناهم المراد بذكرهم الأعلام، والتنبيه على حُسن اتِّباعهم للقَدم المحمدي الرفيع النـــزيه، لا الترجمة التي تستقصي أحوالهم وآثارهم ومواجيدهم وأخبارهم، فإن هذا يستدعي إلى البسط الكثير، وحال هؤلاء السادة معلومٌ شهير.

ومنهم ﷺ: شيخنا المنلا إلياس الكردي أحد الرجال الذين كَملوا وبحاله وقاله إلي الحق يهدي.

وقرأت عليه من شرح «تصريف الغزي» للسعد نصفه أو أكثر، خوف الالتباس وكان ذلك في «جامع العراس».

---

(١) ذكره المناوي في فيض القدير (٦/٣٩٦)، والعجلوني في كشف الخفا (١/٤٢٦).

وكنت أراه يكاشفني ببعض الأحوال، ويشير لي بلطيف المقال، وسمعته يقول: كل مَن لم يندق عنقه لا يفوح ريحه، قيل للبنفسج: متى فاح ريحك؟

قال: لَّما اندقَّ عنقي قد اتخذ الانكسار شعارًا والتواضع دثارًا، له الزهد التام فيما سوى ذي الجلال والإكرام.

أخبرني شيخنا الأخ في الله تعالى الشيخ مصطفى بن عمرو عفا الله عنه، وهو أحد من انتفع بقراءته عليه قال: ومما أخبرني به: إنه لما خرج من بلاده، قال: كان عندي من الخيل ما يعلَّق عليه كل ليلة غرارتان من الشعير، وما يلحق ذلك من أمتعة وأسباب، فوهبت الجميع، وخرجت فارًا إلى الله متجردًا إليه.

قال: وسأله الشيخ قاسم المغربي ونحن في خلوة مع الشيخ حسن في الياغوشية كم من شيخ لكم؟

قال: ستة وثلاثون.

فقال له الشيخ قاسم: جميعهم مشايخ علم.

قال: لا ثلاثون مشايخ علم، وستة مشايخ طريق.

وقال الشيخ مصطفى: أخبرني الشيخ حسن قال: مرض ابن شيخنا الشيخ محمد فأرسلني شيخنا الشيخ عيسى خلف المنلا إلياس، وقال لي: قل له إن محمدًا مريض؛ ليزوره فأخبرته.

فقال لي: يا حسن إن بعض الناس إذا زار مريضًا وحمل عنه، ظهر عليه أثر المرض وأنا أعود المريض وأحمل عنه ولا يظهر على شيء.

وأخبرني بعض طلبة العلم ممن يقرأ عليه قال: كان الشيخ مريضًا فجاءه سائل وعنده كعكة سلطانية، فأردنا أن ندفع للسائل كِسر خبزٍ.

فقال: ادفعوا له هذه، فقال له بعض مَن حضر: يا سيدي ربما تحتاجونها.

فقال: ادفعوها له لأن أجدها في ميزاني يوم القيامة أحبُّ إليَّ من الدينا وما فيها.

وأخبرني قال: كنت إذا سافرت فرَّقت كتبي ووهبتها، ثم إذا عدت أجمع عندي منها جانبًا لأجل المطالعة، وكان بعض أصدقائي ينهاني عن اتخاذ الكتب، فاجتمع عندي في بعض الأيام جانب كبير فرأيته في المنام وهو يقول لي: ما هذه الأصنام التي أشغلت قلبك بها، فلمَّا أصبحت فرَّقتها و لم أُبقِ منها شيئًا.

وله ﷺ مجاهدات كثيرة وأحوال فاخرة وعلوم في الباطن والظاهر زاخرة، منقطعٌ للعبادة والإفادة، متصل الحبل بمنازل القُرب ومواطن السعادة، راسخ القدم في المعرفة عن وجدان وذوق لا يُأكل؛ لعلو همَّته من تحت الأرجل بل من فوق، كان إذا كثرت عليه الطلبة يفرُّ ببعض جماعته إلى جبل لبنان أو غيره من الأماكن التي تُقصد للزيارة خوفًا من الافتتان، ولو أردنا أن نستوفي عُشر صفاته لعجزنا عن ذلك؛ لتخلُّصه من آفاته، فلا نطيل الكلام فإن المقصود التنبيه، والسَّلام.

ولو أردنا أن نَذكر كل مَن اجتمعنا به من أهل طريق الله الفائزين بسرٍّ هذا الشأن لطال المجال، وربما أدَّى إلى الملال، فاقتصرنا على مَن ذَكرنا من أهل العرفان، وإلا فقد جمعتنا الأقدار في سياحتنا بكثير من أهل المعرفة السيَّار، وكذلك عندنا في دمشق الشام مجمع الأخيار، و لم نرَ أحدًا منهم إلا وهو يدأب على اتِّباع القَدم المحمَّدي ويجهد نفسه على الاقتفاء للسنن الأحمدي، فهؤلاء الذين يُقال فيهم الصوفية الذين صَفت سرائرهم من الدسائس الخفيَّة، وهؤلاء هم العارفون المحقّقون، لا كمن لكلام الأكابر يسرقون.

قال سيدى محمد القونوي ﷺ في رسالته التي جعلها في تفسير آيات المبايعة، وذكر آية مبايعة النساء، فقال عن قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَسْرِقْنَ﴾ [الممتحنة:١٢]: أي لا يسرقون معارف أحد من أهل السلوك، ولا يتكلمون بأسرار الأكابر من الكمَّل التي ما بلغَ علمهم لها ولا شاهدوها كشفًا وشهودًا؛ بل لا بد لهم من القناعة بما هو حاصلٌ لهم من العلوم اللدنيَّة والمعارف الإلهيَّة التي كُشفت لهم في أثناء سلوكهم بالمجاهدات النفسيَّة والتوجَّهات القلبية، وأفيض على قلوبهم من أشعة نورانيَّة روحانية شيخهم.

ومَن طلب المزيد من العلوم الإلهيَّة والمعارف الربانيَّة، فليقل كما قال ﷺ:

«ربِّ زدني علمًا»(١).

وهؤلاء الزَّنادقة هم الذين حَذَّر منهم سيدي أبو الحسن محمد البكري قَدَّس الله سرَّه في قصيدة له قال فيها:

فَالــــزَم بَـــذلَ بَابــــنَا وَجنَابــــنَا ... تمــسُ عَــليَّ فَــوقِ السماكِ مَطنبَا
وَاسْــلك عَــلى صِدقِ العَزيمةِ سُبلَنَا ... إيَّــاك تَطلــب غَيرهَــا لكَ مَذهبَا
مَــزِّق لِــباسَ الوَهــمِ عَنكَ مُبادِرًا ... إن رَميــتَ نُلبســكَ الطُراز المُذهَّبا
وَاشْــرَب سلافَ البَسطِ بالمَعنَ الَّذي ... جَعــلَ الحَقــيقةَ للشَــريعةِ مَشْرَبَا
واحْــذَر أُنَاسًــا يَدَّعُــون مَعَارفِهَــا ... تَــالله مَــا صَــلحوا يَــرونَ المُكتبَا
زَعمُــوا الطَــريقَ تَســمُّعًا وَتصنُّعًا ... وَحكُــوا أَحَاديــث الغَــرامِ تَكذُّبَا
وَإِذَا رَأوا بُشْــــرًا سَــــويًّا رَاقــــيًا ... رَتــب المعَــالي أو سَــعُوهُ تَعجُّــبَا
أَلقَــتهُم أوهَــامَهم مِــن خَــالقٍ ... لسَــحيق وَاد بالسَّــعير تَلهُــبَا
دَعــهُم وأقْبــل شَاهــدًا ومُشَاهدًا ... هَــذَا المُحَــبُ مِــن الحَبيب تَقرُّبَا
وَإِذَا صَــفَا نَفــسٌ وَعَقلٌ عَن هَوَى ... أُديــر كَــأسَ الحــقِّ قَلَّ لهمَا اشْرَبَا
وَاسْمَــع مِــن أَميري وَعَن تَلحِينهَا ... انْظـــر بِعينكَ مَشــرقًــا أَوْ مَغربًــا

وقال الشيخ عبد العزيز الدميري في «الروضة الأنيقة في بيان الشريعة والحقيقة» فصل: (وأمَّا قولهم نحن وصلنا إلى الحقيقة وتعدَّينا الشريعة، فهذا كلامٌ في نفسه كُفر فإنَّه قول بأن مَن وصل إلى الحقيقة سقطت عنه المطالبة بأحكام الشريعة، ومَن اعتقد هذا فقد كفر و لم يحمله على الكفر إلا الجهل بمعنى الشريعة والحقيقة، وقد تبين معناهما في صدر الكتاب فمَن وصل إلى الحقيقة، ورأى الأفعال كلها من الله، شكر الله على ما يسَّره له من الطاعات، وسأله أن يتوب عليه من السيِّئات، فهو بظاهره تحت حكم الشريعة، هو بقلبه

(١) رواه أبو داود (٣١٤/٤)، والنسائي (٢١٦/٦)، وابن حبان في الصحيح (٣٤١/١٢)، والحاكم في المستدرك (٧٢٤/١).

ناظر إلى الحقيقة، فقد جمع بين الحقيقة والشريعة.

وأمَّا مَن اعتقد أنه وصل إلى حالة يُسقط عنه فيها التكليف الشرعي فقد كفر، وهو مع كفره يُنقص المؤمنين، وهكذا كانت أحوال الكافرين.

قال الله تعالى: **﴿وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ*اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾** [الحج:٦٨،٦٩].

ومَن أطَّلع على أحد من هؤلاء فأمكنه زجره وردعه بالفعل، وجب عليه فإن لم يفعل كان عاصيًا، وإن لم يقدر على زجره وأمكنه الإنكار عليه بالقول، وجب عليه، وإن غلب على ظنه أن الهجر يصلحه أعرض عنه مع الموعظة، وإن لم يمكنه القول أنكر بقلبه).

وفي الحديث «**إن التارك للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليس مؤمنًا بالقرآن ولا بي**»[(١)] رواه الخطيب عن زيد بن أرقم.

وعنه ﷺ: «**إن الناس إذا رأوا المنكر لا يغيرونه أوشك أن يعمَّهم الله بعقابه**»[(٢)] رواه أحمد عن أبي بكر.

وعنه ﷺ: «**تقرَّبوا إلى الله ببغض أهل المعاصي، وألقوهم بوجوهٍ مكفهرة، والتمسوا رضا الله بسخطهم، وتقرَّبوا إلى الله بالتباعد عنهم**»[(٣)] رواه ابن شاهين في «الأفراد» عن ابن مسعود.

قوله: مُكفهرَّة بضم الميم وتشديد الرَّاء عابسة وقتوبة، ومما تقع فيه هؤلاء الطائفة أنهم يفسِّرون القرآن بما لم ينـــزِّل الله به من سلطان، ويقولون: هذا هو المراد من معنى الآية الكريمة لا غيره، وهو جهلٌ عظيم، وزلةٌ جسيمة.

قال شيخنا الشيخ عبد الغني في أول رسالته: «بسط الذارعين بالوصيد في بيان الحقيقة

---

(١) رواه الخطيب البغدادي في تاريخه (٣٠٩/٦).

(٢) رواه أحمد (٢/١)، وابن ماجه (١٣٢٧/٢).

(٣) رواه الديلمي في الفردوس (٥٦/٢).

والمجاز من التوحيد»: «اعلم أن كلامنا كله على آيات القرآن العظيم وكلام غيرنا من أهل طريقنا أيضًا ليس على وجه التفسير، فإن تفسير القرآن لا يجوز إلا بالمعاني الواردة بالقرآن فإنَّه يفسر بعضه بعضًا، أو في السنة عن السلف المتقدمين، وقد انتهى ذلك ودوَّنه علماء التفسير في تفاسيرهم المشهورة.

وأمَّا كلامنا وكلام أهل طريقتنا عليه على وجه التأويل، قد ذكر العلماء ﷺ الفرق بين التفسير والتأويل بما لو ذكرناه لأدَّى إلى التطويل.

وحَاصلهُ أن التأويل هو فهم معنى الآيات بما يؤول إليه اللفظ من لغة العرب على حسب ما يَرد على قلوب العَارفين من معاني المعرفة الإلهية، وشرطه عدم الخطأ فيه والخطأ فيه أن يَقول الوارد عليه في نفسه: إن هذا هو معنى الآية، وينفي المعنى المذكور لها عند المفسِّرين، فيكون حينئذٍ المعنى الوارد وساوسٌ من الشيطان يوصله إلى إنكار التفسير الحق.

قال تعالى: ﴿**وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ**﴾ [الأنعام:١٢١].

وأمَّا إذا وردَ المعنى في قَلب العَارف بالله تعالى، وكان مُطابقًا للشرع المحمَّدي، ووردت عليه الآية بذلك المعنى الوراد على قلبه، ولم ينفِ ما ذَكره المفسِّرون في معنى تلك الآية كان هذا من قبيل قوله تعالى: ﴿**وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ**﴾ [هود:١٧].

والشاهد تلك الآية التي وردت عليه، فهذا هو المقبول عندنا، ويؤيِّده ما في صحيح البخاري في كتاب «الجهاد» عن أبي جحيفة قال: «قلت لعلي هل عندكم شيء من الوحي إلا ما في كتاب الله؟

قال: لا، والذي فلق الحبَّة وبرأ النسمة ما أعلمه إلا فهمٍ يعطيه الله رجلاً في القرآن».

والسرُّ في ذلك أن الله تعالى يقول: ﴿**وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ**﴾ [لقمان:٢٧].

وقال تعالى: ﴿**قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً**﴾ [الكهف:١٠٩].

فمعاني القرآن العظيم كالبحار الزواخر ليس لها أول من آخر، وسرُّ ذلك أن كلام الله تعالى كاشفٌ عَن عِلمهِ سبحانه وعلمه متعلّق بما لا نهاية له من المعاني».

ويفعلون في الأحاديث النبويَّة كما يفعلون في الآيات القرآنيَّة، وهكذا في كَلام القَومِ يشرحونه على غير المُراد، كل ذلك من الجهل وعدم السُلوك في طريق الأستاذ، فإن مَن لم يستند في سلوكه إلى شيخ يدلَّه ويدلله ويذلَّه ويذلله، ويأخذ بيده في مهامه الطريق المُوحشة ويطمئن سرَّه في مخاوفه المدهشة، ويسير به مقامًا بعد مقام حتى يبلغه منازل التسليم والسلام، وإلا فبعيد أن يسل بنفسه الأمَّارة إلى مدارج السيادة ومعارج الإمارة.

قال الإمام سعد الدين الفرغاني ﷺ في مقدمات «شرح التائية الفارضية»[١]:

«من أهم المهمات للسالك الطالب أعلا المطالب وأولى الأسباب والشرائط في سلوكه؛ حصول شيخ مرشد واصل عالم بالعلوم الثلاثة الشريعة والطريقة والحقيقة، بصيرٌ عارفٌ بحقائق الأمراض النفسانية والأدوية المزيلة لها، ودقائق شهوات النفوس وشركها الخفي في كل مندوب أو مُباح، فإن السالك بنفسه الواقع في مرض جهله وغفلته وأنواع الأمراض المذكورة آنفًا؛ هو بمثابة مريض غير خبير بحقيقة مرضه وعلاجه، فيعالج مرضه بهواه وشهوته عن جهل به، وبسببه وبما يضاده من الأدوية، فلربما توهَّم شيئًا أنه دواء فيه يكون حتفه، والذي نشاهده من بعض مَن ظن أنه من السالكين العارفين معجبًا بنفسه مدَّعيًا بوهمه أنه ذاق وشرب شرابًا من الشهود ولم يشم رائحة ولا ذاق قطرة منه، ومظهرًا عرفانًا كسبيًّا ظنَّه كشفيًّا شهوديًا، وموحِّدًا ناقصًا يخال الإباحة توحيدًا، والزندقة معرفة حقيقية حتى ظن بعضهم وادَّعى أنه مَهدي أو عيسى أو قطب أو بدل أو نحو ذلك.

جميع ذلك من نتائج السلوك بنفسه من غير شيخ مرشد، والظن بأن الخلوة والرياضة والاشتغال بالذكر بشهوة النفس وإرادها واختيارها نافع أو موصل إلى حضرة من حضرات الحق تعالى، وجلَّ جناب الحق أن يكون موردًا لكل وارد، ويطَّلع عليه إلا واحد بعد واحد يعني: واحدًا بنفسه أو إضافة عنه بواحد يعنى: على متابعة واحد لا يضع قدمًا

(١) هي من أشمل وأفضل شروح التائية (تحت قيد الطبع بتحقيقنا).

في سيره إلا بعده، وبمتابعة قدمه.

فكان داء السالك بنفسه من حيث داواه، وحتفه في عين علاجه أعاذنا الله وسائر الصادقين من شرور أنفسنا وظنونها المردية وأوهامها المطغية آمين».

وقال سيدي أحمد زروق رحمه الله ناقلاً عن شيخه أبي العباس الحضرمي ﷺ أنه قال: «ارتفعت التربية بالاصطلاح ولم يبقَ إلا الإفادة بالهمَّة والحال، فعليكم بالكتاب والسنَّة من غير زيادةٍ ولا نقصانٍ، وذلك جاز في معاملة الحق والنفس والخلق.

فأمَّا معاملة الحق فثلاث: إقامة الفرائض، واجتناب المحرمات، والاستسلام للأحكام.

وأمَّا معاملة النفس فثلاث: الإنصاف في الحق، وترك الانتصاف لها، والحذر من غوائلها في الجلب والرفع والدفع والرد والقبول والأقبال والأدبار.

وأمَّا معاملة الخَلق فثلاث: توصيل حقوقهم لهم، والتعفف عما في أيديهم ، والفرار عما يغيِّر قلبهم إلا في حق واجب لا محيد عنه».

وقوله: ارتفعت التربية بالاصطلاح: أي فإن أهل الطريق اصطلحوا على شروط يأمرون بها المريد كشروط طريقتنا الجنيديَّة الثمانية، وهي:

الجوع والصمت والسهر والاعتزال ودوام الذكر ودوام الطهارة ونفي الخواطر عن القلب، وربط قلب المريد بالشيخ.

وقد ذكرنا هذه الشروط في الوصية والأرجوزة، وذكرنا فيها بعض آداب الطريق وهي على ثلاثة أقسام: آداب المريد مع الشيخ، وآدابه مع إخوانه، وآدابه في نفسه.

واصطلح أهل كل طريقٍ على أسماء يلقِّنونها مريديهم وكذا الأوراد، واصطلحوا على تلبيس مريد التبرُّك خِرقة الالتماس، ومريد الإرادة خرقتها، وكانوا يُلازمون الربط ولا يخرجون من خلواتهم إلا لصلاة الجماعة مع شيخهم وللجمعة، ويشتغلون بقيَّة نهارهم في الذكر والعبادة وليلهم كذلك، ولهم مجالس أوراد وأذكار يحضرونها، ومجلسٌ خاص ينفرد كل واحد منهم بالشيخ، ويعرض عليه موارده وأحواله ووقائعه وخواطره المكررة، ولا يخفى عنه شيئًا.

ثم إن الشيخ إن شاء شرح له ذلك، وإن شاء سكت ولا يسأله؛ بل يصافحه وينصرف.

فهذا بعض ما اصطلحوا عليه، فلمَّا رأى الشيخ ضعف همم الطالبين لسلوك طريق ربِّ العالمين على طريق اصطلاح القوم الذين تجرَّدوا عن القواطع والموانع، وأوصلو القيام ولازموا الصوم.

قال: ارتفعت التربية بالاصطلاح و لم يبقَ إلا الإفادة بالهمة والحال، حتى أن بعضهم كان يمد أتباعه في الأكل، فيجدون بأكله في نفوسهم نشاطًا على العبادة وقوة على الطاعة وتحصيل السعادة، فإنه كلما أظلم الكون بالدعاوى الكاذبة اختفى الصادقون، وأشرقت قلوبهم بالأنوار الجاذبة، وكلما قرب زمان صاحب الظهور اشتد ظلام هذا الكون حتى يكون كالديجور؛ لينوره بلوامع سواطع نوره، ويكشف ظلمة الظلم عن أهله، ويرفع براقع ستوره، وكلما قرب زمانه ودنا أوانه، اختفى العارفون، وظهر المخالفون؛ ليقطع دابر المبطلين الأشرار، ويوصل أجيال المحقِّين الأخيار، وكلما قربت أيام الآخرة كثر الفتح في الناس، وزال الشك والوهم والالتباس، ولما كان نور النبوة على الأصحاب هو الظاهر كانت نجوم علومهم وأسرارهم شمسه مخفيَّة لها، ونوره هو الباهر فلم يظهر عليهم شيء من الأحوال، وإن وجدت عند الكاملين أرباب الكمال، ثم لم تزل تلك الأحوال بعدهم في ظهور إلى أن عاد ليلها نورًا على نور، وكل ما قلَّ الصالحون كثر الظالمون، وورث أهل الصلاح علم أهل الفساد، فيكثر علمهم ولا يزال في ازدياد.

ولذا قيل: العلم الآن في العارفين أغزر، والعمل في السابقين كان أكثر.

كما قيل: المراد منقد والمريد معتقد، فإن المراد أعماله عادت قلبيَّة سريَّة، وذرة من عمل السر يوازي القناطير من عمل الظاهر، والمريد معتقد؛ لأن أفعاله ظاهرة ومجاهدته كثيرة باهرة فتوجب له الاعتقاد عند أهل الانتقاد.

وأمَّا أهل القلوب المنوَّرة بنور العرفان فاعتقادهم في المراد إثمٌ؛ لأنه معمِّر الجنان فعِلمُ المراد أغزر، وعِلم المريد في الظاهر أكثر، والمراد وإن قلت: روايته؛ فقد كثرت درايته وإن قلَّ نطقه؛ فقد تحقق فتقه ورتقه بخلاف المريد، فإنه لم يبلغ درجة تفريد التوحيد وتجريد

التغريد، فإن أهل السلوك على درجات في سيرهم لملك الملوك.

قال اليافعي رحمه الله تعالى في «نشر المحاسن»: «وقال الشيخ الإمام العارف بالله عالي المقام أستاذ الطريقة وركن الشريعة والحقيقة أبو القاسم الصقلي ﷺ في كتاب «**الأنوار**[(١)]»: «خاصة الله من الناس أهل الإيمان، وخاصة أهل الإيمان العلماء، وخاصة العلماء بالله العارفون، وخاصة أهل المعرفة العقلاء وهم العلماء بالله العاملون بأمر الله ونهية، وإن قلَّت روايتهم، وقلَّ في العلم نطقهم، وقلَّ في الناس ذكرهم، فبالإيمان بالله تنال النجاة من النار وبالعلم تنال الدرجات في الجنان، وبالمعرفة يتقرَّبون من المقعد الصدق، وبالعقل يفهمون عن الله الإشارة، ويؤذن لهم في الشفاعة».

فاختلفت مراتب أهل الكمال، واتفقت على قصد قُرب ذي الجلال والجمال، وكل مَن صحَّت منه العقيدة، وكانت موافقته للحق حميدة، فإن صاحبها إذا لاحت له اللوائح وفاحت عليه بطيبها الفوائح، كلَّما رسخ قدمه، ازداد بهجة وجمالاً؛ لأنه نَال بحسن عقيدته على كماله كمالاً، ومن كان بالضد من ذلك فلا بد وأن يكسف نوره، ويبدو ظلامه الحالك.

قال اليافعي رحمه الله في كتابه «روض الرياحين في حكايات الصالحين»:

ومن كلامه ﷺ: أي كلام سيدي عَدي بن مسافر ﷺ[(٢)]:

---

(١) هو الأنوار في علوم الأسرار (ص٢٩) بتحقيقنا.

(٢) هو الزاهد العابد الصوَّام القوَّام ﷺ وأرضاه، وأفاض علينا من بركاته: أبي الفضائل عدي بن مسافر الأموي.

قال الشيخ نور الدين أبو الحسن علي بن يوسف اللخمي في كتاب «بهجة الأسرار»: كان شيخ الإسلام محيى الدين عبد القادر الكيلاني ﷺ يُنوه بذكر الشيخ عدي، ويثني عليه كثيرًا، وشهد له بالسلطنة، وقال: لو كانت النبوة تنال بالمجاهدة لنالها الشيخ عدي بن مسافر.

وعن الشيخ أبي محمد عبد الله البطائحي قال: كان الشيخ عدي ﷺ إذا سجد سمع لمخه في رأسه صوت كصوت وقع الحصى في القرعة اليابسة من شدة المجاهدة، وأقام أول أمره في المغارات والجبال والصحاري، مجردًا سائحًا يأخذ نفسه بأنواع المجاهدات، وكانت الحيَّات تألفه، والهوام والسبّاع تألفه فيها.

«مَن رأيته يدَّعي مع الله حالاً أو مقامًا وهو يجوز على الله تشبيهًا أو تمثيلاً أو تحديدًا. فاعلم أنه كذَّاب، وكما أن الله تعالى لا يجوز في حقِّه تحديدٍ ولا تشبيه، كذلك لا يجوز في صفاته ولو لم يرد الشرع بذلك؛ لكان العقل يوجبه بالضرورة، وينفي ما سواه، كما أن الزيادة على الحق كُفر، كذلك النقص منه، وكما أن التشبيه جحد، كذلك التعطيل، وكما ان الزيادة على معالم السنَّة بدعة، كذلك التأويل في صفات الله سبحانه وتعالى، إلا بما وردَ به نص، وألجأ إليه برهان.

والحق في نفسه أقوى من أن يقوى بالباطل، والعروة الوثقى الوقوف عند ما جاء عن الله ورسوله من غير زيادةٍ ولا نقصٍ، وما رأيت أحدًا من المشايخ الذين يُقتدى بهم إلا على هذا السبيل، ولقد كنت أعرف رجلاً ظهرت له كرامات ومكاشفات، وكنت أعرف منه الميل إلى التشبيه والتحديد، فما مات حتى سُلب جميع ما كان له، وسقط من دائرة المباح، وخرج إلى حمى المحرَّمات[(١)].

نسأل الله الكريم العفو والعافية من جميع البليَّات.

قال اليافعي: قلت: وما أحسن كلامه المذكور وأصوبه لمن تأمَّله، وكان له ذوقٌ ومعرفة بعقيدة أهل الحق، وانظر إلى ما جُمع فيه من التحقيق والاحتراز الدقيق في قوله إلا

=

قال الشيخ عبد الوهاب الشعراني: وذلك لأن المعاني الصادقة نور، وكلما تراكمت الأنوار في قلب العبد تمكَّن وقوي استعداده، وكلما أظهر معنى خرج النور أوَّلا فأوَّلا فلا يثبت له قدم في الطريق.

وكان ﷺ أكثر إقامته في الجزيرة السادسة من البحر المحيط، وكان ﷺ يأمر الرِّيح أن يسكن فيسكن لوقته، وشيخه الشيخ عقيل المنيحي كان شيخ شيوخ الشام في وقته، وتخرَّج بصحبته الأكابر منهم: الشيخ عديّ ﷺ، وكان يُسمَّى الطَّيار لأنه لما أراد الانتقال من قريته التي كان مقيمًا بها ببلاد الشرق صعد إلى منارتها ونادى بأهلها، فلما اجتمعوا طار في الهواء، والناس ينظرون إليه فجاءوا فوجدوه في منيح، واستوطن منيحًا نيفًا وأربعين سنة وبها مات وقبره هناك يزار ﷺ.

انظر في ترجمته: الكواكب الدرية للمناوي (٦٨٧/١)، وطبقات الشعراني (١١٨/١)، والنور السافر لنصر العسقلاني (بتحقيقنا).

(١) انظر: النور السافر في مناقب سيدي عدي بن مسافر لتلميذه نصر العسقلاني (ص٢٩٢) بتحقيقنا.

بما ورد به نصٌ أو ألجأ إليه البرهان، كيف لم يكتفِ بورود ظاهر النص حتى عدل عنه إلى تأويلٍ أُلجأ إليه البرهان، فتوسَّط بين تفريط الحشويَّة وإفراط المعتزلة ﷺ، ونفعنا به.

وقد رأى بعض الصالحين أبا القاسم القشيري ﷺ في منامه أيام قراءته لرسالته، فسأله عن رجلٍ من متأخري الصوفية، وكان ذلك الشخص من أهل الشطح.

فقال له: «رحمك الله تعالى هذاك يدهلز على الناس بخز عبلاته.

فقلت له: كيف؟ فقال: السرُّ في هذا الكتاب: أي رسالته، وسرُّ هذا الكتاب في هذا السطر، ووضع إصبعه على قوله وترجمة بنان الجمال رحمه الله تعالى.

قال: وسُئل بنان الجمال عن أصول الصوفية، فقال: الثقة بالمضمون، والقيام بالأوامر والتخلي عن الكونين».

والحاصل إن أهل طريق الله المحققين قد أجمعوا على تعظيم نواميس الشريعة المحمَّدية وردع مَن خالفها من الفرق الضَّالة العنادية، وكلما قدمنا من عباراتهم فهو يسيرٌ من كثير، وغالب من يقع في الشطح من المحققين؛ لكونه أسكره شهود مقام الجمع، وهو عبارةٌ عن شهود حق من غير خلق، فهو سكرٌ وصاحبه سكران، لا يعتد بكلامه؛ لأنه مغلوبٌ مقهورٌ تحت سلطان حاله، فإن الصاحي يعذره ولا يقبل منه، فإنه ربما غلبه شهود الحق، فصار يقول: ما في الكون إلا الله وما في الجنة إلا الله.

ويقول: أنا الحق ولا يرى كثرة ولا تعددًا، ولا يدرك أن ثمَّ خلقًا؛ لنفوذ بصر بصيرته من شهود الخلقيَّة إلى شهود الحقيَّة، ولشدة فرط ظهور هذا المشهد لعينه القلبية ظن اتحادًا ووصلا، فنفى وجوده ووجود الخليقة.

فهذا إذا صحى من سكره رجع مقهقرًا لمقام العبودية، وأقرَّ واعترف بوجود الخلقيَّة وإذا سُئل عن مقالته أنكرها، فإن نفى الخلقيَّة وعدم إثباتها كفر لمخالفة المنكر لنص الكتاب.

فهذا حال المحق، وأمَّا حال المبطل الذي يتشبَّه بمن هذا حاله، وما ذاق منه قطرة وما نظر من نظراته نظرة؛ فهو كلابس ثوبي زور، وقاتله ورادعه ومؤدِّبه مأجور، مع حق أن

الأول ولو كان محقًّا فكذلك، فكيف مَن يدَّعي مُلك ما ليس له بمالك، نسأل الله تعالى العافية من ذلك، فإن الشرع الشريف ليس له إلا الظاهر، والله يتولى السرائر والغالب على هؤلاء الزنادقة أنهم يدَّعون أنهم لا يشهدون إلا الله ولا يثبتون كثرة أصلاً.

ويقولون: إن الوجود واحد وما ثمَّ إلا واحد، ونحن لا نرى إلا الله مع أنهم يشاهدون الكثرة في أنفسهم والعجز والافتقار، والله تعالى منـــزَّه عن ذلكن ويزعمون أن وجودهم المقدَّر المفروض المحدود ووجود هذه الأشياء من حيث هي أشياء مقدَّرة مفروضة هي وجود الحق تعالى، وتقدَّس جناب الحق تعالى عن صفات الخلق فهذا كفرٌ صريح.

وأمَّا قول أهل الحق القائلين بوحدة الوجود على الوجه الأحق، فإذا قالوا: ما في الوجود إلا الله مثلاً فمرادهم من حيث القيومية فإن به تعالى قيام كل شيء وهو القائم على كل نفسٍ بما كسبت ومن حيث تجلِّيه وإمداده وتولِّيه، لا أن هذه الصور الحادثة الفانية المقيَّدة المحدودة وجوده، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

وتختلف أذواق أهل هذه المشاهد، فمنهم مَن يكون ذوقه صديقيًّا، فيقول: مَا رأيت شيئًا إلا رأيت الله قبله.

فأولاً رأى قيوميَّة الحق وتجلِّيه على الشيء، ثم رأى الشيء و لم ينفهِ ولو نفاه؛ لكان سُكرًا، فكان مشهده كاملاً حيث جمع بين شهود الحق والخلق في آنٍ، لكنه غلب عليه شهود الحق، فرآه أولاً ثم رآي الخلق.

ومنهم: مَن يكون مشهده فاروقيًّا، فيقول: ما رأيت شيئًا إلا رأيت الله فيه: أي متجلِّيًا بقيوميته عليه، وهذا المشهد دون الأول من حيث الذوق.

ومنهم: مَن يكون مشهده مشهدًا عثمانيًا، فيقول: ما رأيت شيئًا إلا رأيت الله معه.

ومنهم: مَن يكون مشهده مشهدًا عَلويًّا، فيقول: ما رأيت شيئًا إلا ورأيت الله بعده.

وثمَّ فوق هذه الأذواق أذواق كثيرة لا حدَّ لها ولا نهاية، قد ذاقها الأصحاب والأحباب، ساروا على منهج السنَّة والكتاب.

ولقد سألت شيخنا الهمام سيدي الشيخ عبد الغني حفظ الله وجوده للأنام عن مقام

المعرفة الخاصة، هل يكون بدون جدٍّ واجتهاد.

فقال: لا، فقلت: ولا بد فيه من الذوق والوجدان، والقال لا يكفي دون الحال.

فقال: نعم، فقلت: وكيف السبيل إلى طريق الذوق والوجدان.

فقال: (بملازمة الطاعات ونوافل الخيرات والاشتغال بالله والإقبال عليه، كما نصَّت عليه الأشياخ.

فبهذا يحصل الذوق لطالبه أو ما هذا معناه، وسألته عن أهل مقام الجمع.

فقال: أولئك قومٌ سُكارى، فالسكران لا يعول على قوله فإنه يقول: أرى كذا وكذا والصاحي ينكر قوله؛ لعلمه أن ما يدَّعيه غير صحيح في نفس الأمر، وإنما تخيَّل لفرط سكره، إن الأمر كما أخبر وليس كذلك؛ بل الأمر كما هو عند الصاحي فإن السكر حال مدهش يُذهب بعقل صاحبه فلا يعتد بكلامه) بما معناه.

فقول السكران: ما في الوجود إلا الله حق من وجه؛ لأن الوجود الحادث قائمٌ به تعالى، فالوجود على الحقيقة له؛ إذ قيام الكل به، لكنه لما أنكر وجود الخلقيَّة بالكليَّة.

قلنا: بسكره، ورددنا قوله: فإنها ثابتة حسًّا وشرعًا وعقلاً، وقد يقول الصاحي مثل قول السكران، لكنه يعني من وجهٍ دون وجه، فمن حيث أن الكل هالك بالنظر لنفسه فإن الشيء لا يعطى لنفسه وجودًا، فإنه معدومٌ بالنظر لها أيضًا، وأمَّا بالنظر؛ لمفيض الوجود عليه فهو ثابتٌ به باقٍ بإبقائه.

فقول سيدي محي الدِّين قَدَّس الله سرَّه: (فلولاك ما كنَّا): أي من حيث أن وجودنا بك، ولولاي لم تكن: أي آثار أسمائك الحسنى، فإن الأسماء تطلب الآثار، فإن المانع يطلب من يمنعه، والمعطى كذلك ولا ظهور للآثار إلا بظهور المؤثرات.

ولهذا لم يكن ظهور الكون إلا عن الأسماء وطلبها، كما ذكره الشيخ في «إنشاء الدوائر»، وفي «عنقاء مغرب».

وأمَّا بالنظر إلى الذات العليَّة المتعزز درك كنهها بالكليَّة؛ فهي مُطلقة غنيَّة حتى عن

الإطلاق والكل في قيد وفي وثاق، فلا تعلّق لها بشيء إلا من حيث الإمداد، ولا يتعلق بها شيء إلا من حيث الاستمداد، والأسماء الحسنى هي الوسائط التي لولاها كنّا من البسائط.

ثم قال: «فكنت: أي كنــزًا مخفيًّا[١]» ولم تزل على ما كنت عليه إلى الأبد في الأزل وكنّا بك أعيان ثابتة في العلم ثم أبرزت صورة ما في علمك لا الذي في علمك، فإنه قديمٌ لا تحلّه الحوادث، وهذا معنى قول الشيخ الأعيان الثابتة: أي في العلم ما شمت رائحة الوجود: أي في العين.

ثم قال: والحقيقة لا تدري إلا بمنحة منك وكشف عنها، فهناك يكون الإدراك بك وإذا كان بك فلا إدراك، أو يكون أراد بالحقيقة الحقيقة الإلهية.

وهي كما قال ﷺ: فالأنبياء والمرسلون لايدركون كنه الذات العلية؛ بل عمَّ بالنظر إلى الكنه في حيرة جليَّة، وأمَّا التجليات الواقعة في الدنيا والآخرة فلا تخرج عن رتبة التقييد والتجليات المطلقة، فلا حظَّ للعبد فيها إلا أن رتبة التقييد وإدراك التجلّي المطلق لا يتخلص للعبد على ما حققه الشعراني ﷺ في «ميزان الذرية[٢]» إلا عند فنائه لا في حال بقائه مع الحق، وحينئذٍ فما رأى إطلاق الحق إلا الحق فافهم.

قال: وإيَّاك والغلط، فإنه لا حلول ولا اتحاد ولا يلحق عبد رتبة الحق أبدًا ولو صار الحق سمعه وبصره وجميع قواه، فإن الحق تعالى قد أثبت عين العبد معه بالضمير في قوله في الحديث القدسي: «**كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به**»[٣]، إلى آخر النسق، فإن قيل أن كلام الحق تعالى قديم.

وقد قال: ﴿**وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ**﴾ [الحديد: ٤].

وهذا يُشعر بأنَّا معه في الأزل، كما يقول بذلك الفلاسفة.

---

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفا (١٧٣/٢).

(٢) انظر: الميزان الذرية المبينة لعقائد الفرقة العلية (ص١٩) بتحقيقنا.

(٣) رواه البخاري (٢٣٨٤/٥).

قلنا: التحقيق أن العالم قديم في العلم الإلهي، حادث في الظهور، ولقد قلت سابقًا:

اسْقط البَينَ كي ترى الحبَّ رائي فَارتباط الوُجود بالأسماء
وَعَن الحُجب فَاحتج لا تَراهَا واشهدنه في السرِّ تَقرب نَائي
ثم سَل منهُ نَظرةٌ يَرتَضيهَا وَبهَا خُصَّ كُمَّل الأَولياء
بَاطنٌ لا يَراهُ قَطٌ سِواه ظَاهر نُورهُ بكلِّ المرائي
وَلقَد جَاء في الكِتَاب وُجوهٌ تُنبي عَن رُؤية بِدون امتراء
إنَّكم لَن تَروهُ حَتى تَمُوتُوا وبحشرٍ يجلي بغير خَفَاء
وَسُؤال الكَليمِ بَعد شُهود أرني ليس ذا لكشف الغطاء
بَل تَرجى التَعجيلَ شَوقًا وتوقًا لتجلي الكثيب يوم اللقاء
فَأتَاهُ الجَوابَ لَست تَرَاني فَبمَا قَد خَصصت دَار الجَزاء
فَالَّذي قَال لا يَرى الحَقَّ صَدق إن يَكن خَصَّها بِدارِ الفَناء
والتجلِّي لَه ظُهور بِإطلاَ قٍ وقيدٍ كَمَا أتى باستوَاء
فَإذَا مَا رَأيتهُ كُنتَ محوًا زاهقًا لا تَرى كَمحضِ هَباء
لا يَراهُ إلا فَتى قَد أراه فَيراه يَبدو بغيرِ اختفَاء
فَتحقَّق في الرتبتين جميعًا تَدرِ سِرًّا يَخفى عَلى الأذكيَاء
إنها لا فَهل تُريك انفصَالاً مَن يرى الفَضلِ ذَا بَعيد الشفَاء
رُبَّ عَبد قَد عَبد الكلَّ سَلهُ فَهو يَعطي العَبيدَ كُلُّ المناء
رُتبة الرَّبِّ ليس يُلحقها العَبـ ـدُ لَو صَارَ سَمعه في العَلاء
وَصلاةٌ مَعَ السَّلامِ عَلى مَن قَد رَآه في لَيلة الإسرَاء
وَعَلى الآل والصِحاب جميعًا مَن رَأوا بالقُلوبِ كنزَ العَطَاء

فشهود الحق في رتبة التقييد، يخص الحق تعالى به أفراد العبيد، ولشهود الحق علامة فمن شهدها في نفسه كان في قوله صادقًا، وإلا كان مبطلاً لدعاويه الكاذبة موافقًا.

قال سيدي محيي الدين ﷺ في باب «**الوصايا**»: «اعلم أن علامة مَن يدَّعي أنه يشاهد

الحق تعالى إذا عكس مرآة قلبه إلى الكون؛ يعرف ما في ضمائر جميع الخلق ويصدق الناس على ذلك الكشف».

ونسأل الله تعالى أن يسلك بنا طريق الصادقين في الأقوال والأفعال والأحوال، وأن يُدرجنا في مَدارج أهل الكمال إنه الكبير المتعال.

واعلم يا أخي أني مُقصِّر بالتقصير، مُعترف بالقصور عن هذا المقام الخطير، ولا يغرَّك منِّي شقشقة اللسان، فإنها لا تُجدي نفعًا عند الخبير المحسان.

ولست والله أرى نفسي من أهل هذا الشأن ولا من فرسان هذا الميدان(١)، وما حملني على جمع هذه العبارات، و لمِّ شعث هذه الإشارات إلا ما قدمته أول الرسالة.

وأسأل الله تعالى أن يجعلها مقبولةً لديه ولدى صاحب الرسالة، ولنقبض العنان؛ فقد أسفر الصبح وبان، والحمد لله أولاً وآخرًا وظاهرًا وباطنًا.

وصلَّى الله على سيِّدنا محمد وعلى آله وأصحابه الأخيار، وأتباعه وأنصاره وأحزابه الأطهار، ما كرَّ الليل على النهار وما ذكر اسمه في سائر الأقطار(٢).

والحمد لله رب العالمين

❁❁❁

(١) قلت: بل أنت يا قطب الأقطاب، وفارس فرسان ميدان العلم، ومربي ذوي العرفان، وإمام أنت وذريتك العظام، من نسل الصديق أفضل الناس بعض خير الأنام.

(٢) كُتب بآخر النسخة الأصل: حرر في ٢٥ من شهر ذي الحجة الذي هو من شهور سنة ١٣٠٧ حررها محمد بن الحاج العربي المغربي الجزائري غفر الله له ولوالديه ومشايخه.. آمين.

BROCHURE .

CHINWA

مسؤولة عن صيانة الجهاز

سيلاكي تأكل

أيضا مسؤولة عن الحسابات

العلاقات العامة رؤوس الأموال
عن الاحصاءات

جهات مسؤولة عن توزيع الصادرات
أيضا [illegible]

سنة اجتماعية لأهالي الأطفال
بأفضل من الشاكر

ولي محدد مع [illegible] صلاة [illegible]

حوز المال كالسوق منقة رحلة [illegible]